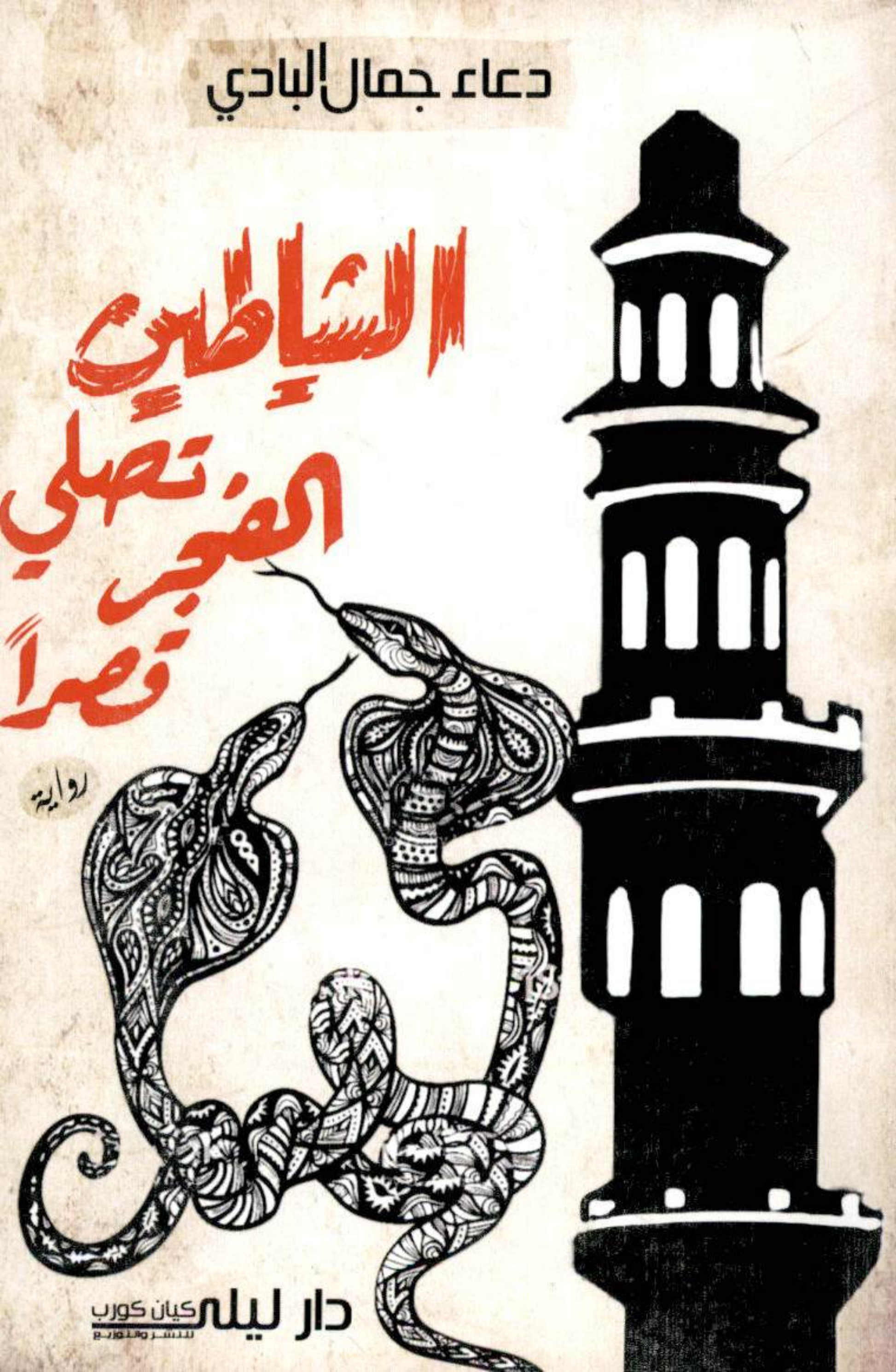

دعاء جمال البادي
الشياطين تصلي الفجر قصراً
رواية
دار ليلى
كيان كورب للنشر والتوزيع

الشياطين تُصلي الفجر قصرًا

دعاء جمال البادي

كيان كورب للنشر والتوزيع
دار ليلى

الكتاب:
الشياطين تُصلي
الفجر قصرًا
المؤلف:
دعاء جمال البادي
★★★
الإشراف العام:
محمد سامي
★★★

المهندسين- 12 شارع أحمد عرابي - الدور 3 - مكتب 8
هاتف: 01000619886 (002)
البريد الإليكتروني: mail@darlila.com الموقع الرسمي: www.darlila.com

دعاء جمال البادي

الشياطين تُصلي الفجر قصرًا



«الخيول يا سيدي مرهقة وبطيئة.. أما أنا، فأنا تقريبًا أعمى».

ألكسندر بوكشين

إهداء " إلى أبي "

نوفمبر 2007م

أنا خائف. خائف جدًّا ومذهول. هل يموت الناس من الذهول؟ هل يموت الناس أصلًا؟ وبمن سأنجو لو أنهم يتبخَّرون ثم يُمْطَرون بكؤوس يشربها اللاحقون في صباحاتهم الأخيرة؟ ليتني بركة ماء في صيف ملتهب.

رأسي صحن كبير من الملح، يذوب بلا ماء، هل أنا حيٌّ بشكل كامل؟ هل أنا ميت تمامًا؟ وأين الطفل القديم الذي صَنع من شرايين قلبي أرجوحة؟

وهو لم يكُن خائفًا ولا مذهولًا. كانت نظراته تدور بيننا واثقة من أن كل ما يحدث حوله سينتهي بطريقةٍ ما تُرضيه، هو حتى لم يكلف يده لتسحب ما تداري به جسده العاري تمامًا، بل إنه لم يتزحزح من فوق السيدة التي كانت تحته. أيوجد منشار كبير يسع رقبة الحياة؟

والناس كانوا ساكتين.. بل كانوا يُمَثِّلون السكوت، وكانوا يؤدون دورهم ببراعة. وكان الشيخ يميل بجذعه المرتكن على المحراب يمينًا ويسارًا، يُقلِّب الفضيحة في رأسه، وكيفية الخلاص منها قبل أن يفك الفجر عقد سوادها.

وقبل أن تنفرط الضجة في المكان، كان الشيخ قد سكب رأيه فوق الجمع المحتشد، وقال إن الصالح لنا جميعًا أن نغادر المسجد إلى بيوتنا ونغلق

أبوابها جيدًا مع ألسنتنا. وبالنسبة للرجل العاري والسيدة التي هـي تحتـه فيبدو أن مصيرهما هو الطرمخة.

تطوَّع أحد المذهولين غيري لسب الشيخ بأمـه، واشـترك اثنـان في لكـم جُمجمة الشيخ التي بدت لي في تلك اللحظة تحديـدًا مثلثـة لا دائريـة كمـا كنت أعتقد. لمصلحة من هذه المهزلة؟

قال الشيخ وهو يخفي بيديه صلعته ويبحث بعينيه عن عمامتـه الـتي طوَّحتها اللكمات:

– حسبي الله ونعم الوكيل.. لقد أمضيتُ في هدايتكم زمنًا.

وانفجرت ردود الناس:

– أي هداية؟ إنه التنكُّر لأصلك النجس يا شيخ.

– تبيع كلام الله كما لو أنه من تركة أمك.

– شيخ منسر تحوَّل إلى شيخ على منبر.

اكفهر وجه الشيخ من أثر الضرب والكلام وقال بجزع:

– أعـوذ بـالله مـن عثـرات اللـسان ولا حـول ولا قـوة إلا بـالله.

– إنه زمن الضلال والبجاحة.

– وضيع يعظ ميّتين.

وتدخل نفر للتهدئة.

وقالت «الست» بصوت محشرج من هول ما رأت:

- نحن لعنة هذه الأرض.. تائهون حتى قيامتنا وما بعدها.

ودعا الشيخ على من أذاه؛ فقال الحاج «صادق»:

- أخرج الله عن هذه المسألة.

وقال آخر:

- فأر يدعو على الطاعون.

وفي لحظة بعثها النصيب، أو الشيطان، بدأت همهمات تتسرب وتصب كلها في جوف كتمان الفضيحة؛ لأن عواقب انتشارها ستدعسهم جميعًا.. وازدادت الهمهمات فصارت رأيًا عامًّا بين الحشد، بينما قلة رافضة أزاحت نفسها عند باب المسجد ضاربة الكفوف على ما وصفته بقلة الدين والشرف أو انعدامهما نهائيًّا.

الفصل الأول

(1) طه عبد ربه..
عروق خشبية

مارس 2007م

كان الصراخ يرجُّ الحناجر رجًّا والسواد يأخذ من هزيع الليل ليغطي القلوب والأجساد، كأن كل شيء بجبل العرب ركبه وتمدد عليه الغم. أهذا هو النصيب؟ أهذا ما أرادته فعلًا؟ وهل هي ماتت أم أنها تمزح كعادتها وستقفز من لفافتها البيضاء لتسألني استعارة رواية لـ«دويستوفيسكي»؟ مؤكَّد ستشكرني على صمتي. أنا فقط من فهم المزحة، على الرغم من سخفها، ولم يشارك في هذا الحزن الكبير.

كلُّ مَن حولي بدوا جادين في حزنهم، حزن خائف من أن يطولهم الموت كما طالها، من فجيعة ميتة مماثلة كتلك، من السجال حول جدوى غُسل جثامينهم كما جثمانها. كيف تُغسِّل فحمًا يا «شوقي»؟ لكن «شوقي» أصر على أن تُغسَّل جثة ابنته.

وطال وقت الغسل، اضطرت المغسلات لانتظار جفاف الجسد المتفحم دون مناشف.

- ستعلق بالمناشف قطع من الجلد، وهذا حرام يا «محمد».

كان «محمد» يريد إنهاء ما يحدث في أسرع وقت، ولما استعجلهن أفاقت «كفاية» من تشنجات الحزن على ابنتها، وقالت بنحيب:

- لا تريد راحتها حتى في موتها! بئس الأخ أنت.

انتهت المغسلات من فعلهن في وقت لم يعجب «محمد»، وحين خرجت «ضي» ممددة على مرقدها الخشبي انطلق صراخ يُجامل «كفاية» في فجيعتها.

وسار النعش، والناس كادوا يختنقون من موتها وضيق الممرات الملتوية بانحدار. لم تفلح خطوط الفجر في تبديد عتمة الطريق. كانت «ضي» ترتبك فوق الأكتاف كلما تخطّى حاملوها فجوة لم تُغطّها عروق خشبية. تدريجيًّا صار النعش بلا أي توازن، يروح ويجيء كأنه بين أيدٍ ثملة، وصار سقوطه أقرب من صموده.

لماذا لا يموت الناس قبل جثوم الليل؟ أتوجد شفرة سماوية تختص الخيّرين ليلًا ونتورط نحن في معاناة الدفن مع العتمة؟

ووسط حذر السائرين في الجنازة من سقوطهم، سقطت «ضي». التوت قدم شقيقها «محمد» تحت صخرة مدببة الجانب نعرفها جيدًا ونتحاشاها تمامًا، في الأيام العادية. توترت يداه فأفلت المقبض الأمامي من ناحية اليمين وارتبك باقي الحاملين ومنهم من انكب يمينًا ويسارًا؛ فانزلق

النعش منحدرًا. ارتطم بسيخ حديدي غليظ مدجج بإحدى الفجوات، شرع في فك ألواح الصندوق الخشبي. أكمل النعش المفكك انحداره ليرتطم بكتلة جيرية دائرية أطاحت بما تبقى من الصندوق وتدحرج الجثمان المسجى بغطاء أخضر منقوش بآيات قرآنية إلى الطريق المهد.

تحجرت الأعين على رحلة سقوط «ضي»، حتى «كفاية» لم تنطق بكلمة واحدة.. أحكمت قبضتها على عنقها كأنها تتأكد من أنها ما زالت تتنفس.

ولوى الشيخ «مصباح أبو ريشة»، زلة حاملي النعش إلى رغبة «ضي» في سرعة الدفن، وهلل الناس بأن النعش طار وأن الميتة تتعجل لقاء ملائكة الحساب، وكبّروا وسبّحوا وحمدوا الله واعتدل السير الجنائزي بإعادة البنت إلى ما تبقًى من النعش. وفي المسجد خطب «أبو ريشة» عن فضائل الصبر على الابتلاء، ثم دعا للميتة وموتى المسلمين والرئيس.

وتصلّب رأس «كفاية» على رفض دفن ابنتها في مقابر الصدقة، كحال أمواتنا جميعًا. بعد انتهاء الصلاة، أزاحت قطعة القماش التي تفصل صفوف المصلين عن المصليات ونادت على زوجها «شوقي» الذي جاءها مسرعًا، دست كفها في عب صدرها لتُخرج كيسًا من القماش، محزومًا بحبل مطاطي ملفوف حول عنقها، أخرجت منه مئتي جنيه بطريقة تؤكد أنها تكشف عن ثروة أخفتها زمنًا عن زوجها والناس.

لم يقبل «شماتة» بأقل من ثلاثمئة جنيه ليرضى بدفن الجثمان في مقابر الإمام في قرافة قال إنها لعائلة محترمة لها نسب مع الملك فاروق. وأخرجت ضحكة أطلقها الحاج «صادق» الأجواء الجنائزية عن هيبتها، وقال الحاج لـ«شماتة»:

– أراهن على حياتي نفسها لو أنك تعرف من هو الملك فاروق أصلاً؟

لم يُماطِل أحد مع «شماتة»؛ لأن الأجواء لا تحتمل، كما أن الرجل معروف تاريخه ولديه استعداد أن يعيده كله في أي وقت مهما كانت الظروف ما دام هناك شيءٌ ما لا يعجبه. عادت «كفاية» لتدس يدها في عبها وتخرج مئة جنيه أخرى أعطتها للرجل الذي أقسم إنه يجاملها وإنه لا يقبل في مثل هذا الموضوع أقل من أربعمئة جنيه.

بيد أن كل شيء يسير في اتجاه فعلية موت «ضي»، نزلوا بها إلى حيث الدفن، و«كفاية» في شبه إغماء وحولها نساء بلبس السواد يترحَّمن على الشابة التي راحت قبل الشباب، عدا «زُهرة»؛ ارتكنت على حائط بعيد، بانت بعينيها الناعستين تديرهما بين شواهد المقابر باحثةً عن شيء ما ثابت بين مقلتيها.

ولا أدري هل رأى أحد مثلي رؤوسًا رمادية تخرج من الشواهد أم لا! كانت الرؤوس بلا أعين أو أنوف، وكانت تهتز على مهل كبقايا دخان حريق ولها أفواه كبيرة تفتحها عن آخرها لتلقي ألسنة سوداء طويلة تهتز

يمينًا ويسارًا لإغاظتي، وكان صدى في البعيد يسألني بغضب ورأفة:

– أين «يسري»؟

* * *

نعيش على جبل سمَّاه أوائل من استقروا به جزيرة العرب، ولا أعرف للتسمية سببًا أكيدًا. عجائزنا يقولون إن بدوًا استقروا بالمنطقة في أوائل القرن الماضي، ولما كنا نسمي كل بدوي عربيًّا صارت جزيرة العرب، وبالتدريج صار جبل العرب. أمَّا وصفه بالجزيرة، على الرغم من أنه ليس له من الجزر شيء، فنعزوه بسخرية مُرة إلى انعزالنا عن العمار والحياة أيضًا.

لا أحد يملك شبرًا في الجبل الذي يستقر على أطراف الدويقة التي هي مرمية على أطراف القاهرة. تقول الحكومة: إن الجبل منطقة عشوائية، وبالتالي أسقطت عنه أي خدمات. ونحن تصرفنا في مسألة الخدمات هذه. الكهرباء نسرقها من أعمدة الإنارة على الطريق العمومي، والمياه نسرقها من المواسير العمومية لحي منشأة ناصر القريب من الدويقة، والصرف الصحي يذهب إلى بطن الجبل.

ويغزو جبلنا، من سفحه حتى قمته، عِشاش متراصة فوق بعضها وبمحاذاة بعضها. بُنيت جدرانها من الطوب اللبن المسروق من بيوت هُدمت أو الصاج وسُقِّفت بعروق خشبية تحمل أوزانًا من القش تعلوه مفارش من

البلاستيك تمنع تسلل المطر.

تفصل بين العشاش ممرات ضيقة غير مستقيمة فتنبعج عند نقطة وتتقوّس في أخرى وتتقلّص وتتمدد وفق تعرجات الجبل. وتربط الممرات ببعضها سلالم نحتناها من حجر الجبل.

وهنا الكل يعرف بعضه، ولا شيء يخفى في الجبل؛ فلو لم تسربه الألسن تسربه الجدران الهشة والأسقف اللينة.

* * *

البعض عاد إلى عشاشه ليخفف ندبة موت «ضي» أو ليُغيِّرها، وآخرون جروا إلى أشغالهم التي تبدأ فجرًا وعطَّلتها الطقوس الجنائزية.

كان وجه «زُهرة» شديد الاحمرار والتعاسة. كانت تُسبل جفنيها حينًا وتفتحهما عن آخرهما حينًا آخر لتغرق في صورة «يسري» المعلقة فوق الثلاجة. دومًا يُوجع الموت الطازج موت أخر حسبناه قدم.

لا أعلم تحديدًا بدايات «زُهرة» مع الحزن، ربما كانت تستقبل فجائعه بحدة وألم، وتدريجيًّا صار لديها ما يمكن تسميته خبرة الحزن. خبرة أن تحزن من دون أن تُفرغ كل ما لديك في حينه، أن تتمهل في ضخ ألمك دفعة واحدة إنصافًا منك لما ستمنحه للفجائع الآتية.

– رحمها الله.. كانت أحلى من أن تبقى بيننا تمامًا مثله.

طقطقت رأسي مؤمنًا على كلام زُهرة بينما أسحب رأسي وأسنده على

باب العشة الخشبي.

– لو اتصل أبوك فلا تخبره بما جرى. يكفيه ما به.

– لكن إذا اتصل بالشيخ «مصباح» فحتمًا سيخبره.

– إذًا قل للشيخ ألا يخبره.

– وهل يقدر أحد على منع لسان «مصباح»؟!

تمتمت «زُهرة» بكلمات لم أستبينها.

علا صوتها مرة أخرى.

– بلغه لعلَّ لسانه يصيب خيرًا هذه المرة.

الشيخ «مصباح أبو ريشة» هو إمام مسجد الجبل. ولا أعرف كيف بُني هذا المسجد ولا كيف آلت إدارته لوزارة الأوقاف، مع أن جبل العرب، بناسه ومسجده، لا يعترف به البلد. و«مصباح» رجل في الخمسين تقريبًا، قصير وبدين، له عين أكبر من الأخرى، هو يقول إنه وُلد هكذا، مشيته خفيفة على الرغم من عرج واضح بساقه اليمنى، تاريخه غامض ويختلف عليه أهل الجبل، يهابه الناس وهي هيبة ولدها اللغط المحيط بحياته ولا علاقة لها بالاحترام.

وعشَّة الشيخ هي الأبهى بين عشاشنا، تكاد ترقى لتسميتها بيتًا بالمعنى الهندسي المفهوم من فرط وجود كل ما يحتاج البيت ليصير بيتًا.

واسعة وبها غرفة نوم مستقلة ومسقوفة بالخرسانة وبها سلم داخلي يصعد بحامله إلى سطح العشة الذي يكشف كل الجبل. وبعضنا يرى عيبها في أنها تقع في قمة الجبل ويستلزم الصعود إليها مجهودًا أكبر.

أمام العشة، وقفت «حميدة»، زوجة الشيخ، محددة خاصرتها بقوسي كفيها مع هزة خفيفة بالساق اليمنى، تصرخ في صبي نحيل الجسد والحيلة، يقف أمامها صامتًا متقبلًا لعناتها بأريحية المعتاد.

مررتُ عليهما سلامًا خفيفًا. لاكت السيدة السلام مدعوكًا بصوت يحاول تخفيف غلظته، والولد الذي سيشوى في نار جهنم وفق ما تنبأت «حميدة» خلال اللعنات، همهم بشيء لم أستبينه وهو يخطف نظرة زائغة لي. وعادت إلى صراخها بتدرج واضح حتى وصلت إلى المستوى الذي تراه مطلوبًا لحدة المشاجرة.

سألتها مقاطعًا اندماجها في سبِّ الولد:

– أين الشيخ؟

قالت في عجالة وفراسة:

– نائم، ولن يستيقظ قبل صلاة الظهر. ولا تقلق، لن يخبر أباك.

شكرتها بصوت خافت على ردها وفهمها الدقيق لسبب مجيئي وطبيعة لسان زوجها.

وإيذانًا للشكر أدخلتني كمحكّم في مشاجرتها التي تجري من طرف واحد:

- يصح أن يسرقنا هذا النمرود؟

أطبق الشاب كفيه خلف ظهره مستكينًا في نظرته لأسفل..

أكملت:

- أرسلتُه للعمل في فرز الزبالة بجبل المنشية بتوصية من أصدقاء للشيخ. وبعد شهرين اكتشفنا أنه سرقنا. تخيَّل يا أستاذ «طه»، وجد خاتمًا ذهبيًا ولم يبلغ معلمه. باع ابن الحرامية الخاتم.

- وكيف اكتشفتم السرقة؟

- المال الحرام يكشف آكليه يا أستاذ. اشترى تليفزيونًا ملونًا وصارت أمه تتزين به بين العشاش.

كان صوت الشاب مبحوحًا وهو يقسم:

- والله العظيم يا باشمهندس «طه» التليفزيون جاءنا كرمًا من البيت الذي تخدم فيه أمي بمدينة نصر.

وشكرت الولد في سري على مسألة «الباشمهندس» هذه. الصغار وحدهم في الجبل يتذكرون أني خريج كلية الهندسة والكبار كلهم لا ينسون أبدًا خريج الهندسة الذي لم يأكل عيشًا بتعليمه وصار عاملًا في ورشة

ميكانيكا. وأنا بينهم أريد نسيان كل شيء.

وقالت «حميدة» للولد:

- إذًا فأمك السارقة، سرقت بيت رزقها. سلالة من الأنجاس. لتلحقوا «ضي» بنفس ميتتها.

رفع الشاب رأسه بتردد ليرد الشتم:

- على الأقل لي أم.

سحبت «حميدة» عصا غليظة اعتادت مواربة باب عشتها بها لتهم بالجري وراء الولد.

(2) علي رشدي..
عدوى التشوُّه

قالت بصوت عالٍ قادم من غرفتها:

– تأخرت يا «علي».

لا أحب صوتها العالي، وبصراحة ولا المنخفض.

تنبِّهني أن الساعة تجاوزت الثامنة..

أعرف أنها ما زالت قبل ذلك تكذب في أمر الساعة ككذبها في كل شيء.

وأصحو لأكف نداءها، وفي حركة ديناميكية معتادة، أتحضَّر للخروج.

طرقت باب غرفتي الموارب، قالت وهي تقف على عتبته وتخفي نصف جسدها به

– صباح الخير.. ستتأخر اليوم؟

– أتريدين شيئًا؟

– لا شيء.. فقط أنت.

أعلم أنها تعنيها جدًّا. أغلقت الباب على ما تعنيه، وغادرت الغرفة

التي لم تدخلها، بينما لملمت أوراقًا وبعض نسخ من مجلة «بولوتيكا» في حقيبتي الجلدية وانصرفت إلى الجامعة.

قبل أربع سنوات، أوقفت البيت على النوم بلا أي فعل آخر. وهي انزعجت في البداية من هذه الحياة الفندقية، لكن ألفتها بالوقت أو ذاقت البديل، ومؤكد لا ترغب تكراره، فرضيت بي نزيلًا خفيف الإقامة ببيتها الكبير.

قالت لي يومًا بثقة تُحسد عليها:

– لن تجد نفسك في الانتقام.. ستجدها بالنسيان.

وعلى الرغم من أنها آخر من يقدم النصيحة وأني آخر من يصدقها لكني حاولت فعلًا، وتدريجيًّا نسيت كل شيء عدا ما أردت نسيانه تحديدًا. كيف أمحو ماضيًا يتنفَّس ويأكل ويشرب وينبِّهني للاستيقاظ ويُدقق في هاتفه، بل ويمنحني نصائح لنسيان الماضي؟

بيد أن لقاء «ليلى»، أمس، أعاد ذكريات لا تخص «ليلى» على الإطلاق.

جاء صوتها عبر الهاتف متهدجًا في سؤال عن ضرورة مقابلتي. تجسَّد صوتها منكسرًا أمامي، بل أحسست أن دموعها تقطر من سماعة الهاتف. لم أعتذر كعادتي معها، وافقت بفضول أن أرى «ليلى» التي لا تضعف، ضعيفة كباقي الخلق.

قالت بحماس يغلفه الانكسار:

– إذًا، اليوم في السابعة مساءً موعد مناسب؟

– تمام، في الأندلس.

– لا. الأندلس مكان غير مناسب. هل أزعجك إذا التقيتك بالبيت؟

– أي بيت بالضبط؟!

– بيتك يا «علي».

كان ردها كفيلًا بأن أنهي المكالمة من دون تحديد موعد أو مكان للقاء.

لم تدخله «ليلى» يومًا، لكنها لم تمل من إبداء انبهارها كلما مرت عليه في طريقها أيام الجامعة.

– هذا بيتكم!! يبدو مُربكًا.

وعلى الرغم من أن وصف بناء هندسي بالمربك يبدو غريبًا فإنه كان صائبًا حد انبهاري به وبها. وربما بدأت قصتنا لهذا الوصف تحديدًا.

قديمًا كان الجيران يسمونه بيت المنارة لبروز قبة فوق طابقيه تنتهي بكشاف إضاءة ثبَّته أبي لإنارة سطحه في ليالي الصيف. يتكوَّن من طابقين، الأول للمعيشة واستقبال ضيوف لا يأتون أبدًا، والثاني لأربع غرف للنوم تطل على ممر طويل، ويربطهما سلم داخلي أرضيته ومسانده خشبية، أما السلم الخارجي للبيت فأرضيته من الرخام وسوره القصير من الحديد

الملتوي.

له حديقة أمامية مختصرة في شجيرات «لانتانا» تفتقر للتشذيب، أما الحديقة الخلفية فعلى كبرها تأكلها الوحشة من فتور عشبها وذبول أشجار الكافور والصفصاف والجميز التي لا تطرح الجميز أبدًا.. كانت في صغري غنية بالنضرة، لكن الإهمال يفعل أكثر من هذا.

ونضرة حديقة الماضي لم تسحب أبي - رحمه الله - لجلستها، وجد راحته وسط ريحان زرعه في قصارٍ فخارية كبيرة فوق سطح البيت، أغلب لياليه كان يقضيها بين ريحانه ممدِّدًا جسده ثاقبًا نظره بين رمد السماء، تاركًا أمر الحديقة لعم «فخري»، حارس البيت، قبل أن نتخلى عنه قبل سنوات لعبء راتبه علينا.

وبلا سبب واضح لي، وقتئذ، انقطع أبي عن جلسته بين الريحان وصار المقهى مقامه الدائم. يومًا سألته عن السطح الذي هجره، قال:

- يا بني، مات الريحان. سيقانه صارت عِصِيًّا قاسية وورقه الذابل غطى سطح البيت. لم يعد ثمَّة مكان لي هناك.

* * *

كان جدي «رؤوف المنسي» - رحمه الله - موظفًا في مصلحة الضرائب. ورث بيت المنارة عن أبيه. كان وحيده فآلت الثروة كلها إليه، والثروة هنا لم تكن سوى بيت المنارة ومحل خردوات في الموسكي. وُلد جدي في الغورية

وانتقل مع أبويه للعباسية وهو في العاشرة تقريبًا. لم يحكِ لي جدي عن السبب الذي حرَّك العائلة من مصر القديمة إلى الحي الراقي، هكذا كانت العباسية حيًّا راقيًا. تعلَّم في مدارس العباسية والتحق بكلية التجارة، وتخرج فيها أوائل الخمسينات. تزوّج بهدوء وتقليدية من بنت الجيران جدتي «فوقية»، التي أنجبت له «رشدي» و«رشيدة». وماتت عمتي في سن الخامسة بسبب حُمَّى نادرة أقعدتها في الفراش عشرة أيام إلى أن توفاها الأجل ولحقتها جدتي بعدها بعام. وتكفَّل جدي بتربية والدي الذي صار يتيم الأم في الثانية عشرة من عمره.

اختار جدي كلية الآداب لأبي ليلتحق بها ويصير مدرسًا للتاريخ بعد التخرج، كما اختار له زوجته «بثينة عبد الكريم»، واختار له أن يستمر في العيش معه بعد زواجه في بيت المنارة.

واضطر جدي لبيع محل الخردوات ليغطي تكاليف الزواج. ولم أفهم أي تكاليف هذه؛ فأبي تزوَّج في بيت المنارة، ومهما كانت تكاليف تجديد عفش البيت فلن يكون ثمنها بيع المحل. كشف لي أبي عن السر في ساعة صفاء وقال إن جدي كان مدمنًا للعب القمار وأنفق ما جاء من وراء بيع المحل على إدمانه، ولم يدخل رأسي هذا الكلام، وبعد تفكير خلصت إلى أن ما قاله مجرد انتقام صغير من جدي الذي اختار لـ«رشدي رؤوف المنسي» دراسته ووظيفته وزوجته وأجبره على تسمية ابنه الوحيد الذي هو أنا

«علي»، على الرغم من أنه لا يحب هذا الاسم.

كان جدي يترك لأبي جلسته مع الريحان ويقعد في «فراندة» البيت بالطابق الثاني، يشرب الشاي ويقرأ الجرائد ويراقب مراحل تغيُّر الحي الذي شهد صباه وشبابه وكهولته، كان دائمًا ما يتحسر عليه:

– أمست العباسية ككل أحياء المدينة حزينة وخجولًا من حزنها، فأخفته وأخافته بالتوحش.

هبط التشوُّه على العباسية بعدل تام، فاستوت فيه البناية ذات العمر الطويل مع التي تصغرها بخمسين سنة، وذاته الإنسان الذي فن منذ عقود قصور وفيلات وبيوت الحي الراقي بزخارفها كلوحات فنية نادرة، هو الذي مهر في تشويه ما صنعه. زادت العمارات المتآكلة بأدوار مخالفة ليصير البناء الذي يحتمل ثلاثة يتكفل بستة، وأغلقت شرفات الشقق لتوسيع غرفها الضيقة بالذرية والفقر، ولا أفهم سر هذه الأتربة التي تغطي البنايات، وكأن مجموعات منظمة من الصبية قررت عقاب الحي لسبب ما نجهله بتلطيخ واجهات البنايات بالتراب والطين. واختفت الحدائق التي كانت تتقدَّم معظم البيوت، تحوَّلت إلى ممرات تنحشر بها سيارات السكان والعابرين، واحتل تمدُّد عمراني وهواء ملوث الحقول التي كانت تحيط الحي.

– ومتى بدأ هذا التشوُّه يا جدي؟

- لا أحد يعلم متى وكيف بدأ الأمر.. فوجئ الناس بكم قبح يحاصرهم ولا سبيل لهم في النجاة.

ومات جدي في «الفراندة» وهو يراقب التشوُّه بهدوء. كنا وقتها في الصيف الذي سأدخل بعده المدرسة الثانوية. طلب مني شايًا، رحت المطبخ وأعددته، ورجعت إليه، ووضعت كوب الشاي على الطاولة التي كانت أمامه، شكرني وارتشف قليلاً منه ثم سألني:

- كم ملعقة سكر وضعت في الشاي؟

قلت له:

- ثلاث ملاعق.

فراح يغمغم:

- إن سكر هذه الأيام لم يعد يُحلي أي شيء.

وأطلق تنهيدة ومال بجذعه ناحية الشارع الرئيسي وقال إن الحياة ليس لها طعم من دون «فوقية». وأخذ نفسًا عميقًا ولم يزفره.

وفي ثاني أيام العزاء، كان أبي يجلس في «الفراندة» مع رجل لا أعرفه، وكنت أنا أجلس في الصالة على كرسي ملاصق لباب «الفراندة» - والذي يجلس على هذا الكرسي لا يراه الذي يجلس في «الفراندة» - وقال أبي للرجل الغريب إن «بثينة» هي التي قتلت أباه وأقسم بالله وبالطلاق

وبالخاتمة الشريفة على ذلك، وقال إنها وضعت لجدي سمًّا في الشاي، أما الرجل الغريب فلم يرد ولم أرَه مرة أخرى في حياتي.

* * *

على الرغم من أن المكالمة انتهت بيننا من دون اتفاق على ميعاد اللقاء ومكانه، انتظرت في السابعة مساء بمقهى الأندلس.

تحب «ليلى» الشَّعر القصير المموج، تقول إنه يناسب استدارة وجهها الذي تمنحه بعضًا من مساحيق التجميل فيزداد جماله، لكن زينتها اختفت هذه الليلة تمامًا كلمعة عينيها العسليتين، خصلات شعرها الأحمر المموج كانت مذعورة وطائرة في كل إتجاه، وملابسها الفضفاضة – على غير عادتها – كانت منسجمة مع ما عليه هيئتها.

وأنا نسيت «ليلى»، وعرفت أني نسيتها يوم التقينا صدفة في أغسطس الماضي، كانت تمسك بيد رجل وسيم، وكانت تضحك جدًّا، وكانت توزع نظرات امتنان على كل الناس، بمن فيهم أنا. وكانت ترتدي ملابس محتشمة وتضع قليلاً من مساحيق التجميل على عكس عادتها. صافحتها بهدوء كما صافحت الرجل الوسيم ببرود وقلت لنفسي: كم هذه الفتاة جميلة وتعيسة أيضًا!

وهي فعلاً جميلة وتعيسة، وعرفت أن حياديتي الشديدة في تقييمها هي آخر طريق النسيان، هي نهاية الطريق نفسه. ولم أكن حزينًا أبدًا.

و«ليلى» لم تنسَ، أو ربما تقول إنها لم تنسَ. هي تظهر وتختفي في حياتي وفق المزاج العام لحياتها. وقد سمتني صديقاً لتجاوز مسألة الحب هذه. والحقيقة أنها لا تصلح كذلك للصداقة، «ليلى» لا تصلح لأي علاقة، إنها فتاة من النوع الذي لو صادفته حتى في الجنة فستسعى للخلود في الجحيم، وسيكون هذا بنفس راضية تمامًا. يوم انتهت قصتي معها قال لي «طه»: إن أفضل معروف تقدمه لقلبك الآن: أن تنساها.. تنساها بصدق.. تنساها تمامًا.

ابتسمت بثقل وهي تسحب كرسيًا:

- كنت متأكدة من حضورك.. لم تتغير يا «علي».

اصطنعت وجومًا وقلت:

- لم يحدث جديد كي أتغير.. التغيير اتركه لمحترفيه.

أشعلت سيجارة ثم قالت:

- أرجوك يا «علي». اترك خطبك عن التغيير للجامعة. انسَ ولو مرة أنك مشروع ثائر.

- مشروع ثائر! ! إذًا ما سبب طلب لقاء مشروع الثائر؟

- هكذا من دون سؤال عن أحوالي! !

سحبت سيجارة أخرى من علبتها لتقدمها لي، اعتذرت:

- أما زلت لا تدخن؟!

- ماذا نفعل؟ مشروع ثائر مؤدب يغسل أسنانه قبل النوم ويستيقظ مبكرًا وينام مبكرًا.

- كيف تسير الحياة معك؟

شبكت كفي عائدًا بظهري إلى الخلف:

- كما ترين.. لم أمُت.

زفرت يأسها من توجيه الحديث لما تريده.

قالت إنها بدأت العمل في شركة سلّام منذ ستة أشهر. تعمل سكرتيرة بمرتب مُجزٍ جدًّا. والعمل ليس مرهقًا كما في شركات أخرى. والمديرون مريحون وفي الوقت نفسه ماهرون ويمدون الآخرين بخبراتهم بودٍّ شديد.

- وهل طلبتِ لقائي لتطلعيني على مزايا عملك الجديد؟

- الشركة تحتاج إلى مهندسين وفكرت أنها ستكون فرصة جيدة لـ«طه».

- ومن أدراك أن «طه» لا يعمل؟

- وهل تسمي ما يفعله عملًا؟ خريج هندسة ويعمل في ورشة ميكانيكا.

- وهل تسمي ما تفعلينه عملًا؟ خريجة آداب تاريخ تعمل سكرتيرة.

هذه الفتاة التي هاتفتني بصوت منكسر صباحًا تُقابلني ليلًا لتقدم لي سيجارة وعملًا لصديقي. وهي لا تطيق «طه» وفي الوقت نفسه تطرح بجدية أمورًا تخص مستقبله، حقًّا إن أكثر الأمور دهشة يُحدثها أكثر الناس رتابة.

دعكت عقب سيجارتها بمنفضة السجائر:

- أنا جادة في مساعدته.

وقبل أن تتسلَّم مني ردًّا متوقعًا قالت:

- وأظن أن القرار له وليس لك.

وفكرت أنها ستفتح أي حديث آخر، لكنها لم تفعل، سألتها:

- لِمَ طلبتِ لقائي في البيت؟

وكعادتها في تمييع الكلام بشكل يبدو سمجًا:

- أحتاج إلى بيت. أحتاج إلى جدران أخفي وراءها بكائي. وطالما راودني إحساس أن الشيء الوحيد الذي يمكن أن يُحدثه بيتك يا «علي» هو البكاء.

- وما السبب؟

لا تتخلى عن الشكوى العائمة التي لا تمسك لها جذرًا ولا طرحًا:

- لأني لا أجيد سوى الفشل. أنا ميتة يا «علي». محبوسة داخل ميتة

فاشلة. تخيل! لقد صنعت من الموت فشلاً.

- لا.. أنا أسألك عن سبب إحساسك تجاه بيتي.

عادت خائبة صامتة للوراء لتلصق ظهرها بظهر المقعد.

- قصة جديدة فاشلة؟!

سكتت فقلت:

- هل هو الذي قابلته معك آخر مرة.. في أغسطس الماضي؟

فأجابت بسؤال:

- تُرى ما الذي يجعل حبًّا كبيرًا لا يستمر؟

- ربما الإدراك المتأخر أنه لم يكُن حبًّا كبيرًا.

(3) «طه».. الأندلس

لافتة مقهى الأندلس ظاهرة ملء العين لرواد شارع ابن مفلح، متآكلة الإطار والمتن باتساق متقن مع ما تحتها من أتربة وزبائن.

لا دليل واضح على سر تسمية المقهى بهذا الاسم. مرة سألت صاحبه «عبده دغش» عن السر فقال بعد ضحكة عالية:

– الأندلس كان «كباريه» في شارع عماد الدين، الله يمسيه بالخير..

– لهذا سُمِّي المقهى بهذا الاسم؟

– لا طبعًا.. سميته الأندلس على اسم زهرة الأندلس.

– لكن يا معلم لا يوجد زهرة اسمها الأندلس.

وأقسم «دغش» برحمة أبيه وأمه وكل أموات عائلته إن هناك زهرة اسمها الأندلس.

– كيف أصدقك وأنا رأيتها بأم عيني؟

– أين؟

– أمام كباريه الأندلس.

– مؤكَّد سماها الناس باسم الأندلس مجازًا على اسم الكباريه.

وضرب المعلم كفيه على بعضهما متعجبًا من التعليم الذي أخرج

مهندسين لا يعرفون زهرة الأندلس.

مررت بيدي تحية لـ«دغش» وهو قابلها بأخرى أكثر ودًا، ونادى على «عطوة» ليعد قهوتي المعتادة.

سحبت كرسيًا وأخذت جلستي المعتادة خلف النافذة المطلة على شارع ابن مفلح، أتأمل السائرين وبعض الواقفين. كانت «ضي» تظهر بينهم بخفة مدهشة، ترتدي بلوزة قصيرة و«جينز» خشنًا وتحمل أوراقًا كثيرة تتعجل مشيتها لتلحق محاضراتها، ورأيتها ترتدي قبعة بيضاء عريضة وفستانًا منقوشًا بالورود، كانت تبدو أكبر سنًا، تسند خطواتها المتمهلة بعصا طويلة وتمنح الجميع ابتسامة رضا. ولم يكُن غيرها السيدة التي تجلس على الرصيف المقابل للمقهى تحتضن طفلًا بيد وبالأخرى تعطي لزبونة باقي خمسة جنيهات ثمنًا لابتياع مجلة «العربي»، ولم يكُن غريبًا أن تكون الزبونة نفسها هي «ضي».

آه يا «ضي»! كيف يموت الجمال الرائق بهذه الطريقة؟! وما كل هذا الموت في أرضنا كأنه هواء نتنفسه؟! ولماذا يموت الناس بلا مقدمات.. يلقون السلام عليكم على الحياة ويرحلون هكذا ببساطة؟!

ووسط «ضي» التي احتلت عقلي والشارع بالأرصفة، ظهر «علي رشدي» يسير بهوادة في اتجاه مدخل المقهى. نُزعت معظم أزرار قميصه الأزرق، وبنطاله الأبيض غدا رماديًا بلون سماء المدينة ويمسك في يده اليمنى صديريًا

أسودَ من الصوف الخفيف يشوحه بعنف ذهابًا وإيابًا ويقبض بيساره على حقيبته الجلدية، وكان شعره مبعثرًا فوق جبهته بطريقة توحي بأنه خرج لتوِّه من خناقة، ولولا لحيته المهذبة ونظارته الطبية التي تمنحه بعض وقار لحسبه الجاهل به بلطجيًّا. وما هو عليه اعتاده منذ أن التحقنا بكلية الهندسة قبل عشر سنوات في خريف 1997م.

سحب كرسيًّا ووضع حقيبته على الطاولة.

سألني وهو يمسك بزرٍ منزوع عن قميصه ويدسه في جيبه، عن سبب عدم ذهابي إلى العمل اليوم.

وأخبرته أن «ضي» ماتت. وهو سألني: من «ضي»؟

– «ضي» يا «علي».. «ضي» جارتي.

– نعم نعم.. لها الرحمة.

ثم أدار رقبته لينادي على «عطوة» كي يصنع له شايًا.

كيف يلقى الموت الذي هز جبل العرب هذا الحياد في العباسية؟

ثم سأل بنفس الحياد:

– متى حدث هذا؟

– أمس في الحادية عشرة مساءً ودفنَّاها مع الفجر.

– أكانت مريضة؟

- لا.. أشعلت النار في جسدها.

- انتحرت!!

- الله يغفر لها.

- لا بُدَّ أن يغفر لها.. يكفي أنها احتملت هذا البلد طيلة حياتها.

- لم تتجاوز الثانية والعشرين.

- لو أنها انتظرت للخامسة والعشرين!

- وما الذي كان سيحدث في الخامسة والعشرين يعني؟

- ربما كانت قد انسجمت مع ما دفعها للانتحار. الخامسة والعشرون سن جيدة لإدراك أن الحياة لا تستحق.

- عادي.. ينتحر كثيرون بعد الخامسة والعشرين وبعد الثلاثين وبعد الستين. ثم أنا وأنت في الثامنة والعشرين، فهل أدركنا أن الحياة لا تستحق؟

صمت قليلًا ثم قال:

- عمومًا، جيد لها أنها انتحرت.

- لا حول ولا قوة إلا بالله..

- صدقني، المنتحر أكثرنا شجاعة في البصق على الحياة والمضي باستهانة نحو نهاية مجهولة. المنتحر شخص فهم الحياة بقدر كبير وأراد

أن يفهم الموت بالقدر نفسه.

– لا حول ولا قوة إلا بالله. النفس ملك خالقها، والانتحار قنوط من رحمة الله، والقنوط كفر.. هذه حقيقة دينية لا لبس فيها.

– من يدرك مرار الحقيقة يحمد التيه.

ثم سأل:

– ولماذا انتحرت؟

– لا أحد يعرف.

– ألم تترك رسالة أو قصاصة قبل أن تنتحر؟

وقلت إنها لم تكتب شيئًا. الفقراء عندما ينتحرون لا يتركون وراءهم قصاصات. إنهم ينتحرون في صمت. ينتحرون ليتخلصوا من أولئك الذين يفترض أن يقرؤوا هذه القصاصات.

وسكتنا. مددت بصري إلى الرصيف المقابل حيث «ضي» بينما هو كان يعيد مسار شعره إلى طبيعته ويعدل ياقة قميصه.

وجاء «عطوة» بالشاي، وأردت أن أهرب من سيرة «ضي» فقلت:

– سيحدث يومًا أن يقتلوك ولن يبكي عليك أحد ممن تحاول إنقاذهم.

ويبدو أنه ارتاح لتغيير الموضوع:

– ومشكلتك في حادثة القتل أم في عدم بكائهم على حادثة القتل؟

- أنت تريد تغيير ما لا يتغير.. هذا وطنهم وهم أحرار في إدارته، ما فائدة الحلم بطريق مضيء والقائد والقطيع عميان؟

كان «عيسى»، وهو ملمع أحذية ونسميه «عيسى لمعة»، ينهي عمله مع حذاء مجاور فناداه «علي». طرق «عيسى» على صندوقه الخشبي إيذانًا بخلع صديقي حذاءه ففعل، وعلى عكس ما يفعله مع باقي الزبائن حمل بضاعته الجديدة مستقرًّا أمام رصيف المقهى ليتركنا بلا إزعاج أو تلصص يداوم عليهما مع باقي زبائنه.

حكى «علي» بحماسة تحملها عيناه ولسانه عن توزيع طلاب أسرة «بداية» التي يشرف عليها نسخ مجلة «بولوتيكا». تضمن العدد الجديد آراء مفكرين وسياسيين وقانونيين حول مساوئ التعديلات الدستورية التي ينوي الرئيس استفتاء الشعب عليها، وبعض الصور والكاريكاتيرات التي توصِّل الفكرة نفسها. أعد المجلة مع طلبة أسرة «بداية» في غضون أسبوع ووزع بعضها في كلية الهندسة التي تقع خارج الحرم الجامعي على بعد خطوات من بيته ولم يتسنَّ توزيعها داخل الحرم إلَّا قبل الاستفتاء بيوم واحد.

وألهبت كلماته التي ألقاها أمام مكتبة الجامعة حماس الطلبة المتحمسين أصلًا فشكلوا مسيرة جابت أرجاء الجامعة ورددوا هتافات تساند رؤيتهم: «عدِّلوه عدِّلوه.. جابوا الواد مكان أبوه». ولم يكُن صعبًا على طلبة

جماعة الإخوان المسلمين أن يشكلوا مسيرة أخرى علا هتافها: «صوتك مدفع صوتك دانة.. صوتك في الإسلام ده أمانة».

التقت المسيرتان بالقرب من البوابة الرئيسية للجامعة، وهنا بدأت احتجاجات تتسرب بين المشاركين في المسيرة الأولى رافضة التلاحم مع مسيرة الإخوان. وتقاذف الفريقان الاتهامات:

– لماذا تتظاهرون؟ الدولة أهدتكم 88 مقعدًا في البرلمان.

– الاحتجاج ليس حكرًا عليكم. نحن نعارض النظام قبل ولادة أجدادكم. ثم إن الدولة لم تُهدِنا شيئًا.

– لا تحتجون من أجل الديمقراطية، بل من أجل بند منع إنشاء أحزاب على أساس ديني.

– علمانيون.. الحمد لله الذي عافانا.

وتدخل «علي رشدي» لتهدئة الجانبين، واتفقوا على تجاوز باب الجامعة لتنطلق مسيرتهما إلى ميدان العباسية، وعبر مكبِّر للصوت هدد ضابط يحمل رتبة رائد، وسحنته جديدة على التظاهرات، باعتقال من يتقدم، ونفذ تهديده فعلًا لمَّا تسلق بعض الطلبة البوابة الحديدية. فتح الأمنُ البوابة ليصنع فخًا لباقي المتظاهرين، فكل من تقدَّم خارج الحرم الجامعي كان مصيره الضرب أو الاعتقال.

قلت بفتور:

– لا فائدة، لن تقبل بأي شيء سوى أن تنتهي؛ لأنه لا فرضية لانتهاء عبث هذا البلد.. والمعادلة لا تقبل استمرار الضدين. وأي ضدين!! هل نحن ضد؟ هل نحن شيء أصلًا؟! نحن أصفار على شمال المصالح، نحن لا شيء. وأنت يا «علي» مع أصحابك المجانين لا تعترفون أبدًا بفشلكم، بل تتلذذون به فتكتبونه أدبًا وتنشدوه غنوة وتشيعونه مع آخر تابوت ترقد فيه جثة آخر من قُتل في سجونهم... «وتأخذون في أعقابكم أناسًا لا علاقة لهم بالمسألة».

والأخيرة هذه لم أنطق بها لأنها ستفتح بابًا لا أريد له أن ينفتح.

وهو قال:

– يريد توريثنا بضاعته الفاسدة.

تنهدت زافرًا ملل الحديث عن تعديل الدستور.

– سيكررون قبولهم تعديلات 2005. نحن أبناؤه وسنرثه مجبرين مهما بلغ عفن الإرث.. وغدًا سترى مقدار بر الأبناء بأبيهم عندما يصوِّتون لما يريده.

– يومًا.. سنعقه، ونزيحه إلى دار المسنين أو دار الآخرة.

قلت من دون حساب:

– أنت عاق منذ زمن يا صديقي.. وندمت وعدت إلى بيت المنارة.

زم شفتيه وسرح بصره إلى «دغش» وزبائن المقهى ثم عاد وقال:

- أنا لم أندم أبدًا.

اشرأب عنقه ليتأمل لوحة معلقة قبالته لم ينجح أحد في فهم رسمها، طالما حاول هو وأبوه فك شفرتها لكنهما فشلا.

جاء «لمعة» بالحذاء. ارتداه «علي» شاكرًا الرجل بجنيهين.

حاولت إزاحة غيم زلتي موجهًا حديثي لـ«لمعة»:

- هل ستذهب غدًا للاستفتاء يا «لمعة»؟

- فتاء إيه يا أستاذ؟ ربنا يشفي كل مريض.

- على هذا أنت عدو للوطن يا «لمعة»!

- كلنا أعداء الوطن يا أستاذ.

* * *

(4) قسمت رأفت العباد..
يوم رُكل الحب بالحذاء

أرخت جسدها على المقعد الهزاز، وقالت بثقة غير مهتزة:

- في بلادنا.. يحدث كل شيء في الحب عدا الزواج.

صمتت قليلاً متأملة تأرجح السقف في عينيها لتستطرد:

- وفي الزواج يحدث كل شيء عدا الحب.

- ألا يحدث أن يقع الضدان في قصة ما؟!

- بالطبع يحدث.. في أغلب الروايات.

- لكن هناك الكثير من التجارب الناجحة.

ابتسمت فبان قوسا تجاعيد حول فمها.

- اقتربي منها وستعرفين الحقيقة.

- الحقيقة أني كبرت يا «مهجة» ولم تعد ثمَّة حقائق كبيرة لا أعرفها، أنا في الخامسة والعشرين.

- الحقائق وُجدت كي لا ندركها.

ضحكت وقلت:

- وهل روايتك ضمن هذه الحقائق غير المدركة؟

هزت رأسها بالإيجاب.

سألتها بابتسامة:

- وفي أي قرن ميلادي ستنتهين من كتابة هذه الرواية؟

- أنتظر الفصل الأخير.

توقف مقعدها عن الاهتزاز. سحبت قامتها المشوقة، فبدا الروب الذي ترتديه فوق قميص النوم متهدلًا على كتفيها وخصرها. كان شعرها الذهبي مبعثرًا على كتفيها وظهرها، وعلى فوضوية تسريحه إلا أنه بدا جميلًا. ورثت عن أمها خضار العيون وبياض البشرة وعن جدي أنفًا طويلًا يناسب وسع العينين والثغر. هي تقول إنني أشبهها لكن أبي لا يرى ذلك تماما.

اختفت داخل المر الواصل غرفة المعيشة بغرف النوم. عادت حاملة كومة من الورق.

وضعت كومتها على طاولة صغيرة أمام المقعد الهزاز:

- يمكنك الآن قراءة هذا لحين انتهاء الفصل الأخير.

أمضت «مهجة» خمس سنوات في كتابة ثلاثة فصول من روايتها، وتعزو بطئها في إنجازها مشروعها الأدبي الأول لانشغالها في عملها الصحفي، خاصة أن الترقية الجديدة كمديرة تحرير جعلتها أكثر انشغالًا

عن السابق.

قالت:

- الناس يمنحونـك أنفسهم قِطَعًـا. لا يقـدم لـك أحـدهم نفـسه دفعـة واحدة. دومًا هناك أجزاء مفقـودة ودومًـا تأتيـك علـى مهـل. وأنـا أنتظـرهم لأدفع بهم حيث الورق.

«مهجة» خالتي وصديقتي الوحيدة. دخلت حياتي عندما خرجت أمي منها. وقتها كنتُ في العاشرة من عمري وهي كانت تخـتم حلقتهـا الثالثـة. تقابلنا أول مرة في عزاء أمي. كانـت هادئـة متلفعـة بـسواد الحـداد، سـواد رائق رقيق، متقبل حقيقة أن للطريق نهاية وأن الفراق فاجعة مؤقتـة تـروق مع الذكريات المؤنسة والنسيان.

لمحتُها وأنا جالسة بين المعزين تتلقفني أحضان المواساة، إلى أن وقفت هي أمامي. أرخت ساقيها لتصبح بمحـاذاة جلوسـي، لم تحتـضنّي مثلـهم، ضغطت براحتيها على ذراعي وقالت: «تماسكي». عاملتني كصديقة ناضـجة تستوعب فاجعة الموت وتعرف كيف تبلع حزنه بماء الحياة.

تلقّفت كومة الورق من فوق الطاولة ووعدتها بإنهـاء قراءتهـا في أسـرع وقت.

قالت بفتور:

- على مهلـك. لقـد كتـب أبطالهـا حكايـاتهم في سـنين. كمـا أن كآبـة

الأحداث ستعطل حماستك.

سألتها في حيرة:

– ماذا تقصدين بأن أبطالها كتبوا حكاياتهم في سنين؟

– ستفهمين عندما تقرئين.

خطفت نظرة على الورق بين راحتي:

رواية

«يوم رُكِل الحب بالحذاء»

مهجة إدريس

2011

سحبت سؤالًا في عيني، قائلة:

– ربما تصدر في هذا التاريخ. عمومًا تاريخ مؤقت.

سألتُ:

– وهل يُركل الحب بالحذاء؟

– كل شيء يُركل بالأحذية هذه الأيام، فلا تستكثري الأمر على الحب.

– سأبدأ في قراءتها حالًا.

– أي قراءة؟ لديك موعد مهم كما لديَّ يوم طويل من التحضيرات

لاستفتاء غد.

أومأت برأسي وسألتها:

- صحيح، هل تتوقعين قبول الشعب بالتعديلات الدستورية؟

قالت وهي تخلع الروب بسرعة:

- يا عزيزتي نحن نقبل بكل شيء.

* * *

لم يحبذ أبي يومًا توطُّد علاقتي بخالتي «مهجة»؛ يرها نموذجًا فاشلًا لأنثى وصحفية لا تعرف مصلحة وطنها. وللحق هي تبادلته رؤى مشابهة. لا تطرح وجهة نظرها في أبي خلال أحاديثنا، تركت هذه المهمة لمقالاتها في أهم جريدة معارضة في البلد.

ثار عندما سمعني أقول لها ذات مرة: «ماما مهجة».

- أمك لا بديل لها. هذه السيدة عرق اندسَّ في العائلة وسأقطعه إذا ما قلتِ «ماما» هذه مرة ثانية.

ولَّا كنت لا أحب مناداتها بـ«خالتي» تجاوزت الأم والخالة وصرت أناديها باسمها، وللحق هي أحبت هذا. اعتبرته إذنًا بعلاقة صداقة بيننا.

- الصديق هو الاختيار الوحيد الصادق في حياتنا.

- لكن هناك أصدقاء مزيفين.

- وهؤلاء أيضًا نختارهم بصدق.

يقول أبي إنها تحب دمغ الفلسفة التي درستها بكلية الآداب على كل شيء في حياتها.

- متكلفة في حديثها. كأنها تؤدي بمبالغة دورًا في مسرحية باهتة. لو كانت قد أكملت ما بعد مسرح الجامعة لكانت تنافس الآن نادية الجندي، لكنه سوء حظنا وحسن حظ الجمهور. أخرجت موهبتها علينا.

وكم خشي من تأثير شخصيتها على ابنته الوحيدة، وهو ما يُجزم أنه حدث فعلًا، خاصة بعد تخرجي في الجامعة واشتغالي بإنتاج الأفلام الوثائقية التي ساعدتني كثيرًا في تعلم صنعتها والإعداد لها بعلاقاتها الكثيرة.

قال لي مرة آسفًا:

- لي علاقاتي التي تكفل لك صنع أفلام في هوليوود، لكنك أصبحت مثلها تمامًا.. لم يعد أحد يصدق أنك ابنتي.

ودَّعت «مهجة» على وعد بالمرور عليها في الجريدة بعد لقائي معيدًا في كلية الهندسة. حددت هي لي موعدًا معه لمساعدتي في إنجاز فيلمي الجديد.

- «علي رشدي»، جارنا منذ زمن. صحيح أنه ليس اجتماعيًّا مع جيرانه لكنه لا يتوانى عن خدمة الآخرين ما دام ذلك في يده. بيت المنارة هو بيته.

منذ أن رأيت «المنارة» وأنا أتخيله مسرحًا لقصة تجري أحداثها في القرون الوسطى. لا يمكن أن يكون أصحابه عاديين. بيت ساكت كما لو كان ساكنوه أمواتًا. تنطلق وتختفي إضاءته بمواعيد كالمصالح الحكومية. وتبرز من شرفته العلوية كثير من عروق الصبار، وحديقته وإن كنت أراها بنظرات خاطفة من وراء سورها لكنها تبعث ضيقًا من فرط إهمال أصحابها لها. لم يزِد في طوابقه ولم تغلق شرفاته كمعظم بيوت الحي. بقي طلاؤه القديم على حاله فبان ككتلة حجرية باهتة وسط العمائر الباهتة أيضًا. وأصحابه رأيت منهم شيخًا كان يتفقد الصبار ذات مرة، وعداه لم ألمح أحدًا على الرغم من كثرة ترددي على شقة «مهجة» التي تبعد مسافة مئة متر تقريبًا عن بيت المنارة.

- لِمَ لا يظهر أحدهم في البيت يا «مهجة»؟

- نصفهم مات والنصف الآخر يظهر ولكن في غير البيت. «علي» ووالدته وكأنهما مقطوعان من شجرة واحدة.

* * *

(5) «علي».. قهوة مُرة

مقهى الأندلس، البناء الوحيد الذي ظل على حاله ولم يدهسه تشوه العباسية؛ كان قبيحًا منذ البداية، ولم تمسسه يومًا أناقة الحي.

ظل حياديًّا، يتابع درجات تشوُّه ما حوله بهدوء العاقل الذي لن يقع في فخ التطور.

مساحته صغيرة ويستقر على مبعدة يسيرة لا تتجاوز الدقائق الخمس من بيت المنارة، على ناصية شارع ابن مفلح. تعطي نوافذه الكبيرة المفتوحة دائمًا إحساسًا باتساع يفتقر إليه. تقوم في جوانبه طاولات قصيرة الأرجل بنية اللون، وعلى يمين مدخله مصبوب رخامي توضع عليه معدات إعداد القهوة والشاي وباقي المشروبات، وعلى اليسار يجلس صاحبه «عبده دغش» وأمامه مكتب خشبي صغير فوقه صندوق خشبي يخص حسابات الأندلس.

وعلى عكس باقي المقاهي، يأبى صاحبه «عبده دغش» فرش مقاعد أمام مقهاه مترفعًا عن زيادة عدد الزبائن، كأنه يخشى انتقال عدوى التشوُّه من زبائن الشارع.

كان أبي زبونًا دائمًا في مقهى الأندلس. هنا ضحك وأدمع ولعب الطاولة ولمع حذاءه وكسَّر سرواله المكوي، أكل طعامًا لذيذًا ومائعًا وفاسدًا، حل الكلمات المتقاطعة وناداني لإسعافه بأسماء الفنانين الأجانب والروايات العالمية لتقفيل مكعباته، واشتكى من نخر السوس بضرسين متجاورين،

ومـن رداءة الحـشو الـذي وضـعه بهمـا الطبيـب، شـاهد مباريـات الـدوري والمنتخب وسمع حكايات الأصـدقاء، وصـمت ليتأمـل حالـه وحـال النـاس، وتكلم كي لا ينفجر.

في الأندلس عاش ومات أيضًا.

ارتدى، ذات ليلـة شـتوية، حـذاءه بعـدما لمعـه لـه «عيـسى»، الـذي نناديه «عيسى لمعة»، ثم ارتشف بعض الشاي، وطلـب مـن «عطـوة»، صـبي المقهى، أن يشتري له علبة سجائر.

رفع عينيه ليُلقي نظرة سريعة علـى اللوحـة المعلقـة قبالتـه، بعدها طلب مني أن أعطي لـ«عطوة» ثمن سجائره عندما يأتي بها.

داعبته واتهمته بالتملُّص من دفع ثمنها بعدما غلبته في دور الـدومينو واضطر هو لدفع ثمن مشروبات مَن جلسوا ليشاهدوا فـوزي، لكـن المسألة لم تخرج عن رغبة في موت بلا دَين.

مات جالسًا على كرسيه الذي صاحبه طيلة سنوات، ميتـة بسيطة غـير مزعجة كما حيا.

وبقي الأندلس ملاذًا يوميًّا لي. أجلس علـى نفـس الطاولـة والكرسـي، وأدقق في اللوحة المتربة التي أدمغها ببصره قبل فراقه.

قديمًا وقع أبي في حب هذه اللوحـة الغامـضة. إطارهـا متآكـل يحاصـر رسمًا باهتًا غير مفهوم. كنت أستغرب أن يُغرم المرء بشيء لا يفهمه، ومـع

الوقت أدركت أن ذبول الحب يبدأ بالفهم وزوال الغموض.

وقد دخل «رشدي رؤوف» مع أصدقائه في سجالات كثيرة حول مغزى الرسم، منهم من قال إنها تقليد لنقش فرعوني يرمز لحيوان قديم، وآخر اعتبرها رسمًا تجريديًا يرمز لفكرة لا مجسمًا ماديًا، وسمعت أحدهم مرة يقول إنها رسم فاشل لصرصورين.

كلما تأملت بهتان اللوحة تسري بي رعدة.. أخاف من يوم تتشوش فيه صورة أبي. يوم تروح وتجيء وسط صدى صوته في البعيد.. فلا أميِّز قسماته فتبدو ككتلة واحدة تتدحرج من دون هدف مبعثه مسلمة أن الذاكرة لن تخطئه.

أرتعد من الدخول في سجالات مع النفس حول حجم أنفه أو عرض حاجبيه وحال تجاعيد العينين في آخر جلسة لنا، وهل الشامة التي تحت عينه اليسرى كانت سوداء أم بنية!

وهو أضاع عليّ فرصة الاحتفاظ بوجهه، لم يحب يومًا الصور الفوتوغرافية. وفلسفته أن الصورة لا تنفع الذاكرة بل تزعجها. دومًا كان يسأل:

– ما فائدة أن أوثّق حماس الشباب لأتأمله وأنا دونه في الستين؟ ولماذا أحتفظ بوجه الستين وأنا لن أستطيع رؤيته جيدًا في الثمانين؟

* * *

- أنت عاق منذ زمن يا صديقي.. وندمت وعدت إلى بيت المنارة.

بلعت كلام «طه»، وسكتنا. وجاء «عيسى لمعة» بالحذاء وفكَّ قليلًا من توتُّر الجلسة بالسخرية من الاستفتاء على التعديلات الدستورية: كلنا أعداء الوطن يا أستاذ.

ثم تدخل صوت «دغش» من خلف صندوقه الخشبي:

- ضيوف يا باشمهندس.

جاءتنا بمشية خفيفة وابتسامة تعلو ثغرها الدقيق، ومعها أعناق المقهى تتفقد مثوى الأناقة الأخير على طاولتنا. منحتنا تحية، ووزعت عينيها بالتساوي بيننا حينما سألت عن الدكتور «علي رشدي».

بدا «طه» مغلق العينين دافئ القسمات؛ فميله للأمام قليلًا جعل أشعة شمس ربيعية متسربة من النافذة تكسو ملامحه..

وردَّ من وراء الشمس وهو يعقد ذراعيه:

- تفضَّلي.

جذبت ظهر مقعد لطاولة أخرى ملاصقة، جلست على مقربة من صديقي فيقاسمها بعضًا من شمسه، لتغلق عينيها هي الأخرى.

مالت للخلف قليلًا فانحسرت شمسها واتسعت عينان سوداوان بين أهداب طويلة بلون بلوزتها الخفيفة التي تتخلل سوادها نقوش لزهور

قرمزية، اعتذرت عمًّا سمته ببراءة اقتحام مجلسنا، وهي تبحث بعينيها عن مكان لوضع حقيبتها البيضاء على أرضية المقهى التي تميل أغلبها للسواد.

قالت في المطلق كأنها تتحدث عن شخص غائب:

– ذهبت إلى الكلية ولم أجد دكتور «علي رشدي» فاتصلت بخالتي «مهجة» لتتصل بدورها به وتعرف أنه هنا.

رجع «طه» للخلف فانقشعت الشمس عن ملامحه..

وأنا قلت:

– نعم، أستاذة «مهجة» اتصلت بي واعتذرت لها عن نسيان الموعد. لا بأس. هنا مكان جيد أيضًا. على الأقل بعيدًا عن المظاهرات.

ولمَّا ابتسمَتْ ظهرت ندبة تُجوف دائرة صغيرة منتصف خدها الأيمن زادت إشراق وجهها البيضاوي المنتهي بذقن مدببة، وهي كانت تبتسم بلا سبب وكأنها تتصدق على فقراء الابتسام أمثالنا، وبلا سبب أيضًا تدخَّل «عبده دغش» ليأخذ دوره في الترحيب بالضيفة ومناداة «عطوة»؛ ليقدم للزبونة مشروبًا مخصوصًا غير الذي يقدمه لباقي الزبائن. وصاحب هذا نظرات امتنان من زبائن لـ«دغش» الذي منحهم معروف اقتحام حديثنا؛ فمنهم من مزح بتأكيد أنه لن يقبل بعد الآن سوى بما سيقدَّم للآنسة وآخر يتندم على كل المشروبات التي شربها طيلة حياته، وثالث يضحك بصوت

مرتفع متمنيًا الصحة للجميع، وأخرسهم «دغش» بالانسحاب من زاويتنا بعد الاستئذان.

غدت خجلة من وضعها في مركز دوران المقهى، فاستنجدت بحديثها عن فيلمها الوثائقي حول المشروعات المهمة لخريجي كليات الهندسة التي لا تلقى اهتمام المسؤولين.

ولعل لمعة عينيها بالحماس وهي تحكي عن اندهاشها بكم المشروعات التي تهملها الجهات المعنية، اضطرتنا لإخفاء فتورنا تجاه ما تقوله.

قطع الفتورَ وإخفاءه إحضارُ «عطوة» القهوة التي طلبتها، منحها ثغرها سكرًا كانت قد طلبت من «عطوة» عدم خلطه مع البن.

قال «طه»:

– على فكرة، نحن الثلاثة نشرب القهوة من دون سكر.

وقالت:

– خالتي «مهجة» تحاول إقناعي بمخاطرها من دون سكر.

قلتُ بحكمة زائدة ليست لها مناسبة في جلستنا هذه:

– ثمَّة سكر إذا أرغمنا عليه صار مائعًا وزاغ مذاقه للأبد.

ثم استحضرت كلام جدي بلا سبب أيضًا، وقلت:

– إن سكر هذه الأيام لم يعد يُحلي أي شيء.

ردت بابتسامة وعادت لحديث المشروعات الطلابية، وطلبت

مساعدتي في إيصالها بخريجين أصحاب مشاريع مهمة على شرط أن يكون قد مرَّ على تخرجهم سنوات لتستضيفهم في فيلمها.

وعصرنا الذاكرة لنصفي لها أهم مشروعات مرت علينا ونطلعها على المعاناة التي قابلت زملاء وأصدقاء في تنفيذ مشروعاتهم، واقتسمنا حكي قصة زميلنا «أمجد مهران» الذي ذابت قدماه من اللف على مكاتب وهيئات وزارات الصناعة والصحة والتعليم العالي ليقنعهم بمشروعه عن جهاز للتحكم في الأشياء من خلال حركة الرأس لمساعدة مرضى الشلل ومبتوري الذراعين، وكيف أنه قابل مدير إحدى الهيئات المتخصصة ليعرض عليه الاستفادة من المشروع لكنه صُدم من رد المسؤول:

- عادي يعني لم تأتِ بجديد. لدينا مثل هذا المشروع الكثير. لا نراه مفيدًا لنا.

رد «أمجد» بغيظ:

- غريبة! كنت أظنه مشروعًا مفيدًا لبلد مشلول كبلدنا.

خرج «أمجد» من المكتب الحكومي مقررًا الهجرة إلى ألمانيا، وبعد ثلاث سنوات قابل الشاب المسؤول الحكومي، الذي صار وزيرًا، بأحد المؤتمرات في ميونيخ وكان يومها زملينا يحاضر بإحدى جلسات المؤتمر حول مدى النفع الذي حققه مشروعه على عدة دول أوروبية نفذته.

وقال الوزير في كلمته الرسمية إنه فخور بالشباب المصري الذي لم

يبخل بمعرفته فمنحها للعالم، وهذا معروف منذ أيام الفراعنة الذين منحوا العالم أسمى حضارة.

غلى الدم في عروق «أمجد»، وعندما جاء دور حديثه، أمسك بالميكروفون وقال:

- أحب أن أشكر الفراعنة على ما منحوه للإنسانية من حضارة وإن كنت أعيب عليهم ترك سلالة خبيثة لا تفعل شيئًا سوى وأد ما تبقى من الحضارة والإنسان.

ضحكت حتى انحنت قامتها إلى الأمام..

وقال «طه»:

- بلع الرجل الإهانة في حينها، وبعد انتهاء المؤتمر قابل «مهران» وقال له هامسًا:

- أعدك ألا تدخلها ثانية.

سأله أمجد:

- وهل ما زالت مفتوحة ولم تغلقوها بعد؟

وهي اندهشت عندما سألت «طه» عن مشروع تخرجه وقال لها إنه نسي موضوعه، وسكتت تمامًا عن الاندهاش والكلام عندما أخبرها أنه لم يجد عملاً في مجال تخصصه في الهندسة منذ تخرجه في الجامعة، وأنه يعمل في ورشة لتصليح السيارات بحي الظاهر.

(6) «طه».. جبل العرب

كانت «ضي» أجمل بنات جبل العرب، ولولا أن ولادتها جاءت على يد جارتنا «أم عنتر» لتأكَّد أهل الجزيرة أن «شوقي» خطف رضيعة من حضن أهلها وادعى بنوتها لاستغلالها في التسول، مهنته التي ورثها عن آبائه. كان وجهها باستدارة القمر وبإشراق بدره. تقول «كفاية» إن ابنتها ورثت عن جدتها البشرة الخمرية والعينين الرماديتين والأنف المنحوت والشفتين الدقيقتين، لكن أحدًا لم يصدق «كفاية» المعروف عن عائلتها الدمامة.

وكان جمال طباعها نشازًا على جبلنا. هادئة تجذب الجميع بكلماتها الموجزة، تمشي بخطوات حيية وتطلق ابتسامات في خجل على عكس رفيقات سنها متبجحات المشية والكلام.

وظل الشجار بين «شوقي» و«كفاية» محتدمًا سنوات؛ لإصرار الأول على عمل ابنته في التسول، أما أمها فكانت ترى في ابنتها زينة الفتيات، وطالما هددت زوجها بأشقائها في الدرب الأصفر لردعه عمَّا ينوي فعله.

- أخوالها في الدرب سيذبحونها ويذبحونك.

- على أساس أنهم رضوا بي زوجًا لأختهم وأنا مدير مصلحة!

- ابنتنا الوحيدة يا «شوقي»، صنها وكفى بـ«محمد».

– أتحسبين عليَّ «محمد» ابنًا؟ هذا بلاء، لندعُ الله أن يزيله عنا.

– لو أكملت تعليمها سنضمن عريسًا محترمًا. والبنت شاطرة. حرام نحرمها من الثانوية. والباشمهندس «طه» يساعدها.

كانت تكرر رجاء المساعدة من «زُهرة». وأمي بدروها ترحب. وأنا «الباشمهندس» كنت وقتها طالبًا بالسنة الثانية بكلية الهندسة.

وتدخّل أبي أكثر من مرة لإقناع «شوقي»، لكن معركة إكمال «ضي» تعليمها فشلت من ناحيتنا.

ظلت تبكي أيامًا على حرمانها من الثانوية. حاولت مواساتها. أهديتها مجموعة من الكتب في الأدب والتاريخ والفلسفة. سُرت بالهدية، ومع كل كتاب كانت تنهي قراءته كانت تناقشني فيه بحماسة وفهم.

كنت أندهش من قدرتها العالية على حفظ السطور وفهم المعاني أيضًا. وكان هذا إحدى جرائمي معها. قدمت لها المعرفة ولم أقدم لها كيفية الخلاص من الجهل الذي يحاصر حياتها. إن أقبح ما يمكن أن تفعله بالناس أن تمنحهم خيالًا. الخيال يخلق الأمل، وأهل جبل العرب لا أمل لهم ولا أمل فيهم.

ولم تتوقف عند الكتب التي أهديتها لها أو التي استعارتها مني لاحقًا، بل جاءتني يومًا تحمل طستًا كبيرًا ممتلئًا بالكتب. كانت في زيارة لأخوالها في الدرب الأصفر ولمحت وهي تتجول مع ابنة خالتها محلًّا أعلاه

لافتة «كل شيء قديم»، ومن بين الأشياء القديمة تلال من الكتب فاشترت منها عشرة كيلوجرامات، كان المحل يبيع الكتب بالكيلو. صحيح أنها نالت ما نالت من شتائم «كفاية» على تضييع المال فيما لا ينفع، غير أن ذاك المحل صار نزهتها كلما أنهت قراءة ما اشترته.

و«ضي» أحبتني، أو هكذا ظننت. واختارت أن تضع حبها وسط الكتب. كتبت رسالة وطوتها داخل كتاب «فلاسفة أيقظوا العالم»، كنت أعرتُها إياه، ولمَّا أعادته وجدت رسالتها:

- عزيزي الباشمهندس «طه»..

أتمنى أن تكون بخير، أن تكون على نفس الخير الذي تفعله للناس.

هذه أول رسالة أكتبها لأحد. وأنا سعيدة جدًّا لأني الآن أكتب وأنك أنت، لا غيرك، هذا الأحد.

أنا مدينة لك بالكثير، الكثير جدًّا، وليس ثمَّة كلمات وافية لوصف ما بداخلي تجاه فضلك عليَّ. أنت حوَّلت جوربًا مثقوبًا وحزينًا إلى فستان يصلح أن يُلبس.

إن هناك شيئًا عميقًا أود أن أقوله لك، لكن كل ما قرأته لا يسعفني على نسج كلمات مرتبة وغير مرتبكة على هذا النحو الذي أنا فيه الآن.

إنني أشعر أن قلبي انطلق وتوقف عندك، ولا أمل لي في استرداده. إن قلمي يهتز الآن بقوة وكذلك قلبي الذي لم يعد ملكي. إن وحدتي الكبيرة

تصير صغيرة، تتلاشى، مع ابتسامتك وأنت تهديني كتابًا.

«ضي».

وكتبت لها:

- عزيزتي الفتاة الصغيرة..

أنا واثق تمامًا من أن كثافة مشاعرك ما هي إلا حب للورق، عليك أن تدركي تمامًا أن كل ما فعلته لك أني أهديتك كتبًا.

وأنا لا أعرف من المخطئ في هذه القصة، كل ما أعرفه أن هناك شيئًا ما خطأ حدث من دون قصد.

«ضي»، نحن نعيش في عالم كبير من الظنون، وما نحسه اليوم يتنافى تمامًا مع ما نلمسه غدًا، وبعد غد يحمل كثيرًا من الاختلاف.

عليكِ أن تتخطي هذه المشاعر، وصدقيني سيكون الأمر سهلًا؛ لأن هذه المشاعر ليست بداخلك أصلًا. تخطي كل شيء بالنسيان.

صديقك المخلص

«طه».

وهي لم تلق ردًا مني على ما قالته في رسالتها الثانية، التي كانت عبارة عن سؤال كبير:

- أنا أحتاج لإجابة، أحتاج للتأكد من أن كل ما قرأته لم يكُن محض عبث، أحتاج للتأكد من أني لست بهذا القدر الكبير من السذاجة.

وكانت نهاية رحلة «ضي» مع الكتب قاسية.

شجار عنيف مع أخيها انتهى بضربها. جمع أخوها كل الكتب ليصنع بها تلًا سامقًا بين عُشتينا ثم أشعل النيران فيها. وأمسكت النيران بعروق خشبية تسقف عُشّتنا وأخمدناها بسرعة.

ولم تعد «ضي» إلى ضيائها أبدًا بعد حادثة حرق الكتب هذه، وكأن رماد الكتب لوث جريان حياتها. لسنوات ظلت حزينة باهتة وفقدت كثيرًا من وزنها.

- لم يكُن ورقًا هذا الذي نموت حزنًا عليه.

كان «شوقي» يقول كلما انفتحت سيرة تدهور حال ابنته، أما «كفاية» فتلعن الظروف التي منعتها هي وزوجها من الوجود يومها بالجبل لمنع ابنهما من جنونه.

حتى أبي فقد تأثيره الخاص على «ضي». ولم يكُن في وسعه أكثر من الدعاء لها وللغائب «يسري» ولي وللناس جميعًا.

* * *

أمام سلة ممتلئة بحزم الخضار، جلست «زُهرة» على قالب صخري مغلف بوسادة محشوة قشًا. ترطب بضاعتها كل حين بمياه تخزنها في قارورة جوارها؛ فتترك ندى مصطنعًا على الخضرة الذابلة.

لم يترك الفقر والألم أثرًا على ملامح «زُهرة». يوم رآها «علي رشدي»

لم يصدق أنها أمي، حسبها أختًا جميلة لم أحكِ عنها، قلت ضاحكًا:

– هذه فائدة الزواج في سن الثالثة عشرة.

وورثتُ عن «زُهرة» العينين الخضراوين والأنف الصغير وخمرية البشرة وتركت لها الشفتين الرفيعتين. وخدمتنا مع بيعها الخضار لم يكنزا لها شحمًا، فظل جسدها نحيفًا مهما أكلت، فتنافس بنات العشرينات في الطلة والنشاط وهي تحط رحالها في منتصف الأربعينات.

وقع أبي في حبها وهي بنت السنوات العشر، وكان هو في الثامنة والعشرين. ظل ثلاث سنوات يقنع جدتي لأمي بالموافقة على خطبة ابنتها أو طفلتها حتى تتم البلوغ فيتزوجها. وافقت في أواخر أيامها بعدما اشتد بها المرض، خافت أن تترك وحيدتها للدنيا بلا سند.

جاءت جدتي لأمي جبل العرب بعد نكسة 67 تجر طفلتها الوحيدة بعدما قتل العدوان ابنها وزوجها في مدينتهم الإسماعيلية. وحكت لي «زُهرة» أنهما مرّتا بأيام سوداء في القاهرة، لكن الأيام تمر ولا أحد يموت من الجوع – على الرغم من أن الناس تموت عادي من الجوع – واستقرتا بجبل العرب بعد تنقلات كثيرة في مصر القديمة عند أقارب ومعارف وأغراب.

– ولِمَ لم تعودا بعد انتهاء الحرب يا أمي؟

– لم يعد لنا شيء هناك، ثم إننا تعودنا على هنا.

- لكن هناك البيت.

- أي بيت؟! لم يعد هناك بيت بعد وفاة جدك وخالك. ثم إن الحروب لا تُبقي بيوتًا يا بني.

وعلى هذا فأبي لا يبخل في أي فرصة أن يغبط «زُهرة»:

- على الأقل لها جذر وماضٍ تتذكرهما كلما اشتد عليها الحاضر.

و«عبد ربه طه» جاء إلى الدنيا مقطوعًا. تربى في ملجأ، وعندما هرب منه، كما يهرب الكل من الملاجئ، سار في كثير من الطرق، كان آخرها طريق الهداية. جاء جبل العرب وأحبه الناس لأمانته وصدقه ولسانه العفيف. وصار عاملاً في مسجد الجبل. تزوّج «عبد ربه» بـ«زُهرة» وجئت للدنيا بعد عام من زواجهما، سماني أبي على اسم أبيه «طه» الذي هو اسم منحوه إياه في الملجأ، وبعد عام جاء «يسري».

وقفت أمام سلة الخضار وقلت لها:

- ما كان عليك العمل اليوم. لم تنامي منذ ليلة أمس.

- الحاج «صادق» كثر خيره أحضر الخضار فخشيت أن يذبل.

كان «يسري» يذهب يوميًا بعد صلاة الفجر إلى السيدة عائشة ليتسلَّم من مُزارع من قرية ناهيا قفة منتفخة بالخضار بسعر أقل من الذي تبيعه «زُهرة» بخمسة قروش للحزمة، ثم يعود إلى حيث تعتاد أمه وضع

فرشتها.

على أن الأمور تغيرت بعد «يسري» وتوليتُ مهمة النقل، وأحيانًا يفعلها جارنا الحاج «صادق»، بائع السمك، ضمن نقل بضاعته من السيدة عائشة.

– جئت باكرًا.. استأذنت من الأسطى؟

– لم أذهب للورشة أصلًا. رحت العباسية.

حملت عنها بضاعتها لنصعد الجبل، كانت تتوقف أمام عشاش بعينها لتوزع الخضار المتبقي بعدل وسماحة بين الجيران.

قالت ونحن نصعد السلم المؤدي إلى ممرنا:

– رحم الله «ضي»، كانت خفيفة في نزولها وصعودها.

ثم تنهدت وقالت:

– ولم يأتِ أحد في خفة «يسري».

كانت المنافسة على الصعود الأسرع للجبل هي اللعبة الأقرب لقلب «يسري» في طفولته من بين كل الألعاب التي اخترعها أطفال جبل العرب. كان الأمهر في تسلقه حتى قمته والأسرع في الهبوط. ظل الجميع يحسده على تلك المهارة حتى يوم تصفه «زُهرة» بالأسود الذي لم تُرَ فيه شمس.

كانت الشمس قاسية يومها، ولمَّا كان «يسري» يشتكي من حساسية موسمية بعينيه اللتين تؤلمانه بشدة وتدمعان إذا ما لفحتهما شمس، حاول

إقناع أقرانه بانتظار هدوء الشمس لبدء المنافسة. اتهموه بالتملص لاستشعاره خسارة قادمة؛ فقبل اللعب.

صعد الجبل بخفة معتادة وسط ضحكاته وصرخات أقرانه المتشاحنين أسفله، كانوا يجذبون ملابس بعضهم ليُعيق كل منهم حركة الآخر.. استقر «يسري» في القمة يراقبهم بعينين دامعتين وأهداب تحترق. حاول النزول بتحسس حذر لما لا يقدر على رؤيته بوضوح. ولم يدُم حذره طويلًا، تورطت قدمه اليمنى فوق صخرة مفتتة القالب فانفلتت ساقه ثم جسده كله.

تدحرج مسافة مئة متر ثم ارتطمت ساقه ملتوية بحجر ضخم نسميه الدبابة بمحاذاة الممر الثالث من قمة الجبل لينفلت جسده مرة أخرى ويدخل في إغماء. حملناه إلى مستوصف منشأة ناصر، ولمَّا أفاق ظل يصرخ طيلة ثلاث ساعات حتى حضر طبيب لتجبيس ساقه.

احتاج «يسري» إلى عملية تركيب شرائح في رجله اليمنى، واحتاجت العملية إلى مبلغ كبير.. خمسة آلاف جنيه. ولمَّا فشل أبي في توفير المبلغ بعدما سأل المعارف والجيران، صار «يسري» أعرجَ يزك بساقه، وظل وقتًا لا يقدر على الحركة، وإذا تحرك لا يقدر على التوزان فيميل جسده حتى يسقط على الأرض. وبالتمرين والتعوُّد والسنين صار يمشي من دون مساعدة أحدنا أو عكاز. وبات أقرانه ينادونه: «يسري الأعرج». كان أبي يوبخ من يناديه بهذا الوصف لكن أحدًا لم يكف عن المناداة بل زادوا بمناداة أبي «أبو

الأعرج».

صنعت «زُهرة» إبريقًا كبيرًا من الشاي لتوزيعه على المعزين الذين ارتصوا على كراسي فرشت في الممر الضيق.

وحضرت كتلة سوداء تتحرك على مهل وتنتحب. نحو عشرين سيدة متشحات بلبس الحداد أتين من الدويقة للتعزية. أغلبهن دخلن عشة «كفاية» وخمس منهن دخلن عشتنا ضمن سيدات كثيرات استضفن في عشتنا.

سألت إحداهن وهي تلوي جسدها لتستقر في جلستها على حصيرة تتوسط العشة:

- ترى ماذا فعلت في حياتها لتلقى هذه النهاية البشعة؟

همست أخرى:

- يقولون إنها كانت حبلى ففعلت ما فعلت مخافة الفضيحة.

- وهل هناك فضيحة أكثر مما فيه «شوقي» و«كفاية» الآن؟!

- سمعت أن أحدًا من أقارب أمها بالدرب الأصفر فعل فعلته وهرب.

- لا أظن. «كفاية» بجبروتها كانت كفيلة بإجباره على زواجه من ابنتها.

كانت «الست»، وهي عجوز في السبعين من أهل الجبل القدامى، تتابع الكلام وهي تلوي شفتيها ثم تدخلت شاخطة:

– اتقين الله في بناتكن. واخرسن.

وكان «محمد»، شقيق «ضـي»، يـترأس صـف الكراسـي المعزيـة عاقـدًا ساعديه مطقطقاً رأسه الكبير حتى قارب أنفه أن يلتصق بيـده. و«محمـد» في الثلاثين تقريبًا من عمره، ويحب أن يناديـه النـاس بـ«جبـل»، وهـو فعلًا يشبه الجبل المقلوب؛ فله كتفان عريضتان جدًّا وصـدر ضـخم، بينمـا سـاقاه رفيعتان بشكل يثير الشفقة. علامات الإجرام مدموغة على وجهـه وصـوتـه، وجرح قديم في خده الأيمن يحذر من لا يعرفـه بتاريخـه الأسـود. أمـا أبـوه «شوقي» فرفض الجلوس على كرسي وافترش الأرض مخفيًا جبهتـه ببـاطن كفيه.

وقبل أن تنتهي سورة هود من شريط المسجل، حـضر نفـر مـن عزبـة الزبالين، زملاء «محمـد» في فـرز القمامـة كمـا عـرّفهم لأبيـه ومـن حولـه، ونادى «محمد» على قريب له من ناحية أمه ليُحضر مقاعد للمعزين الجدد.

لم يعرف أحدٌ كيف سمع «جبل» همهمة زميله في العمـل عنـدما سـأل جارنا «شفيق الشُق» عن ظروف موت «ضي»، وكيـف سمـع رد جارنـا الـذي جاء مغلفًا بالترحم ومحشوًّا بالإساءة لسمعة المرحومة.

انتفض «محمد» من كرسيه رافعًا إياه في الهواء وطوَّحه ناحيـة جلـسة زميله فانفتحت جبهـة الرجـل عـن دم غزيـر غطـى كـل وجهــه، وانطلقـت معركة قوامها فتح الرؤوس بمقاعد الكراسي حتى أخـرج «محمـد» مـن عـب

جوربه مطواة ليطعن بها زميله ثم «شفيق الشُق».

* * *

الفجر ما زال في غيبه والليل ينازع هزيعه الأخير. صحَونا على طرق خفيف على الباب. الإرهاق والعودة بلا أخبار جديدة من سفاجا كانا يكسوان ملامحه الضاربة في كبر الستين.

قال «عبد ربه» وهو يقف أمام باب عشتنا مغربًا وجهه ناحية باقي معركة حطت أوزارها قبل ساعات من مجيئه:

- ماذا جرى؟!

حكت «زُهرة» ما جرى مترحمة بين كل جملة وأخرى على «يسري» و«ضي» وموتى المسلمين.

لم يبكِ تمامًا كما فعل يوم عرف بما جرى لـ«يسري». وانكتمت دموعه وهو يمسح على لحيته المرسلة.

سأل:

- هل كُتب علينا أن تشوَّه جثثنا؟

كان أبي يعتبر «ضي» ابنة له لم يرزقه الله بها. وصغرها عني بخمسة أعوام جعل منها آخر العنقود بالنسبة له. كان يدللها ويحفظها القرآن ويحرص على تهذيب سلوكها الذي تشربه من أمها.

وكانت «زُهرة» ترد على أبوة «عبد ربه» لـ«ضي»:

- لكن العرق يمتد.

لم تبلـغ «زُهـرة» أن «كفايـة» لا يمكـن أن تـؤثر في ضـناها و«محمـد» المعروف بسلوكه المنحرف لن يطبع بعضًا منـه علـى شـقيقته. أمـا «شـوقي» فإدمانه الخمر الرخيصة لم يترك له وعيًا ليعلم ابنته خيرًا أو سوءًا، لكنها في النهاية ابنة متسول وخمورجي.

رفع «عبد ربه» بصره إلى صورة «يسري» المعلقة فوق الثلاجة وقال:

- التاريخ لا يعيد نفسه، بل يعيدنا. اللهم ارفع مقتك عنا.

(7) «مهجة إدريس»..
حقيبة بلا سفر

أبريل 1993م

لِمَ يترك القطار فينا وحشة من دون كل ما اخترع الإنسان للتنقل؟ وحده له مكانة خاصة في حضرة الوداع.

عجلاته المسرعة والبطيئة، صافرته الغاضبة من الرحيل، تمنح القلب انقباضًا حتى لو لم يكُن بالقطار ما يخصنا.. كما لو أنك على يقين أن الفراق سيدهسك يومًا ما.

مر القطار من دون أن أستقله..

وقفت جوار حقيبتي على رصيف المحطة أراقب مشاهد الفراق المؤقت والأبدي. أغبط أولئك القادرين على تحويل ما بهم من ألم إلى صراخ ودموع وتلويح بأيديهم.

تراجعتُ مع الحقيبة لخلف وقفتي حيث مقاعد الانتظار. لم يكُن هناك ما أنتظره، إلا أنني انتظرت.

قضيت ليلتها مع ونس القطارات الراحلة والآتية. كان «يحيى» يفاجئني بابتسامته فيطل من نوافذ القطارات المقبلة وتدمع عيناه مع

المغادِرة، يزحزح الحقيبة ليلتصق بي ويرد على كل متطاول يظن بنا سوءًا. يعاتبني بنظرة لوم على ما فعلته به ويطمئنني أنه لا يقدر على عتاب أنا طرف فيه.

كان «يحيى» ليلتها كل شيء. ولم يكُن «يحيى» هناك على أي حال.

ضحك كثيرًا عندما قلت له ونحن نتجول بين أرفف مكتبة بمعرض الكتاب:

- سأكتبك يومًا ما.

سألني مازحًا:

- أهون عليكِ؟! أتحولين أنفاسي إلى حروف وحركاتي إلى تتابع سطور وتختمين مشاعري حيثما أردتِ بنقطة؟

ثم بنبرة جادة:

- ربما أصير على ورق مملًا أو عاديًّا.

- قد تكون مملًا لقارئ وممتعًا لآخر.. أحيانًا نفعل الضدين بالناس: الانبهار والبلادة.

- طيب، أرجو أن تكوني رؤوفًا بي وأنا على الورق.

وهذه الفكرة تحديدًا هي التي أخافتني كثيرًا من البدء في أي مشروع أدبي.

لا أريد خلق أناس من ورق أعذبهم بفقر أو مرض أو حب وقتما أشاء

ثـم أمـنحهم بعـض سـعادة وفـق مزاجـي، أجعلـهم يتحـاورون ويجـادلون ويفنِّدون أمور الدنيا ويخرسون أيضًا، وعندما أختنق منهم أو يـصر صـاحب دار النشر على اختصار المكتوب، أختمهم بما أريـده مـن دون أخـذ رأيهـم، وبعدها أقتلهم بكلمة «تمت» مذيلة تحتها تـاريخ جريمـة القتـل. أي عـدل هذا؟ يخيل إليَّ أنهم سيأتونني في أي وقت في البيت أو الجريـدة ليعـذبوني كما عـذبتهم وربمـا يقتلـونني فعلًـا بـلا أي شـفقة. وقـد يحاسـبني الله يـوم قيامتي وقيامتهم، ومن يعلم؟! ربما يعجِّـل بالعقـاب فيـأتيني مـن أقـررت بسرقته في رواية ما، على شكل موظف يتهمني بالاختلاس. أو تلك الـسيدة التي قسوت عليهـا بجعلـها سـاقطة في مـسار الأحـداث ستبلع غـضبها ثـم تتقيؤه كله في أو إحدى بنات عـائلتي. أو هـذا الـذي صنعت منـه شخـصية هامشية في الرواية واستخسرت فيه البطولة، ربما يبـزغ نجمـه وأراه بطلًـا لأفلام عظيمة ويبعث لي باقة زهور ومعهـا رسـالة صـغيرة مكتـوب فيهـا: «الحماقة تُعمي أحيانًا عن اكتشاف أشياء مذهلة».

- متى ستكتبين يا حبيبتي؟

ضاع سؤال «يحيى» بين صوت احتكاك مكنسة خـشبية يجرهـا عامـل نظافة بأحد أعمدة المظلة الرخامية التي أجلس عليها.

كان القمر يسجي تاركًا للشمس يومًا جديدًا فوق القطارات.

سألني عامل النظافة:

- هل فاتك القطار؟

- نعم.

- لا تقلقي، سيمر آخر قريبًا.

تُرى هل ما زال «يحيى» ينتظرني؟ مؤكد انتظر حتى وصول آخر قطار من القاهرة إلى الإسكندرية. ثم ملَّ وغادر.

كان معه حق عندما قال البارحة:

- مشكلتك أنك تقولين «لا» عندما تصبح «لا» حيادية بلا نفع على مجرى الناس والحدث وحياتك، دومًا تتأخرين، تقولين «لا» حين تصير هي نفسها «نعم»، لا فارق.

وسط كل من قالوا كلامًا يؤكد ويؤيد فشل زواجي من «يحيى»، ظل كلام جدتي لأبي هو المُربك للقصة كلها:

- يومًا ما ستنظرين للزمن والناس بزهد كبير، تندهشين ممن يصرخ على ضياع حبيب وتشفقين على أولئك اللاهثين خلف حاجة والغاضبين من فوات والمفجوعين لفقد، وستبتسمين في وقت لا يحتاج إلى الابتسام وعلى أشياء لا تحتاج إلى الابتسام أبدًا، وسيكون ألمك الوحيد في وجع مفاصلك جرَّاء الروماتيزم، ولن تحتاجي لنصائح أحد سوى تلك الخاصة بالطبيب. ربما «يحيى» هو حبك الكبير، لكن هذا لا يعني أنه سيستمر. لا شيء يستمر أبدًا.

ولأن كل شيء لم يستقِم في بيت العائلة بالمنيرة، قررت انتظار زهد جدتي وحدي بشقة العباسية التي كانت من نصيبي بعد تقسيم ميراث أبي بعد الوفاة بعامين. صحيح أنهم لم يستوعبوا هذه الخطوة في البداية، لكنهم وزنوا أيهما: ضرر «يحيى» أم العيش وحدي؟ فوجدوا الأخير أجدى، على يقين أن الأيام ستغيِّرني فأعود إلى حِضنهم مرة أخرى.

وبعد شهرين، انتقلت جدتي للعيش معي. قالت إن أمي وأشقائي صاروا مزعجين إلى حد بعيد وهي تريد الهدوء في أواخر أيامها.

كانت تؤنسني بحكاياتها عن جدي ولم تمل أبدًا من حكي قصة زواجه الثاني وكيف حاول جدي إرضاءها بعدما غادرت إلى بيت أسرتها غاضبة. ذات صباح فتحت المذياع على محطة البرنامج العام فانطلق صوت المذيعة باسمها قائلة:

– أهديها إلى سعيدة مرتضى أحمد.. أحبك.. أنت حبي القديم والجديد. أنت حبي السعيد.

ثم دارت أغنية «أمانة عليك». بكت جدتي وعادت إلى بيت زوجها، كما تزوج جدي السيدة الأخرى.

«أمانة عليك يا ليل طول.. وهات العمر من الأول..

بحب جديد وقلبي سعيد يا ريتني عشقت عمنول».

كانت تحب تلك الأغنية، وجدي أيضًا.

كم ستبدو الحياة لطيفة لو نادينا الليل وتسامرنا معه وقدمنا له عشاء لذيذ ثم طلبنا منه أن يعطينا العمر من أوله!

– وماذا لو أعدنا العمر من أوله يا جدتي؟

– لا شيء، سنكرر نفس الأخطاء بنفس الندم. ما دُمنا لا نستند لخبرة.

– وهل الخبرة تجعلنا لا نندم؟

– نعم. تجعلنا نندم بحكمة وهدوء.

وماتت جدتي ميتة حكيمة هادئة، كنا في رمضان، تناولت سحورًا خفيفًا. توضأت. صلت وقرأت ما تيسَّر من سورة مريم ثم نامت محتضنة المصحف. وفي السابعة صباح ذاك اليوم حاولت إيقاظها ولم تستيقظ.

* * *

– «قسمت» هانم.. «قسمت» هانم، وصلنا.

لم أنتبه للطريق من العباسية حتى الدقي. غرقت في رواية «مهجة». اعتذرت لـ«سالم» السائق، ودلفت إلى العقار الذي توجد به الجريدة التي تعمل بها.

جريدة «الأمل»، تحتل الطابق الثالث من عقار قديم بشارع عبد الرحمن الرافعي، المتفرع من ميدان المساحة بحي الدقي. تصدر أسبوعيًا ولها جمهور عريض، ولم يعد الأمر مبالغًا إذا قلت إنها صارت أهم

صحيفة معارضة مقروءة في مصر. تضم كوكبة من الكتاب الشباب وتتسم كتاباتهم بخفة الظل وثقل الثورة. مقال رئيس التحرير يظل قُرّاؤه يحللونه ويستندون إليه في أحاديثهم السياسية حتى صدور المقال التالي. انتقلت «مهجة» للعمل بها في بداية صدورها قبل خمسة أعوام كانت قبلها تعمل في جريدة «الأهرام».

– «مهجة»، أنت تحكين قصتك في الرواية؟!

– نعم.. وما المشكلة؟

– ما المشكلة!! ستصير مشاعًا. العائلة كلها ستصير مشاعًا.

– لا يهم. لنعتبرها سيرة ذاتية في شكل أدبي.

– إذًا العيش وحدك كان سبب امتناعك عن زيارتنا في الزمالك حتى موت أمي.

– لم أمتنع، بل مُنعت. اعتبر أبوك حبي لـ«يحيى» فضيحة وعيشي بمفردي أمرًا شاذًا يسيء لسمعتي حتى من لا شيء. وعليه قاطعتني أمك لسنوات. رأيتها مرات قليلة في مناسبات تجمع العائلة.

– لا أعرف عن حبك القديم سوى أن العائلة رفضته ولم يحكِ لي أحدٌ في المنيرة أو الزمالك عن سبب الرفض. لِمَ اعتبره أبي فضيحة يا «مهجة»؟

– سيخبرك الورق.

طرق الباب. دخل شاب نحيف الجسد طويل القامة يحمل فرخ ورق

أبيض بنفس طول وعرض صفحة الجريدة.

راجعت «مهجة» الورقة بعدما ارتدت نظارتها الطبية، ثم قالت:

- أريد خبر تظاهرات طلبة الجامعات ضد التعديلات الدستورية أعلى الصفحة. وأين صور المصابين أصلًا؟

- موجودة، لكن المساحة لن تكفي.

طلبت منه حذف تقرير عن تسمم مواطنين بسبب شرب مياه ملوثة ليفرد مساحة لمتن وصور خبر التظاهرات.

وتدخلت:

- لكن أظن أن خبر التسمم بالمياه الملوثة أهم من التعديلات الدستورية.

قالت «مهجة» بثقة:

- التعديلات ستؤدي إلى مزيد من التلوث.

انصرف الشاب وسألتني:

- هل أفادك «علي رشدي»؟

- نعم. هو وصديقه، خريج هندسة أيضًا، رحَّبا جدًّا. حكيا لي قصصًا مؤلمة عن إهمال الكثير من مشروعات تخرُّج. أحسست أنهما متحمسان للفيلم وللأفلام الوثائقية بشكل عام، ولا تتخيلي كم أحببت المقهى الذي

جالستهما فيه. قريب من شقتك. صاحبه اسمه «دغش». ما معنى هذا الاسم يا «مهجة»؟

خلعت نظارتها الطبية وقالت:

– تبدو صداقة جديدة.

– ربما. تخيلي، صديقه مهندس ويعمل في ورشة ميكانيكا. هذا شيء عجيب جدًّا.

– العجيب هو أنك تتعجبين.

الفصل الثاني

(1) «علي».. حذاء وكلب

أعادت عنقها لمستقره بيننا وسألت بفتور:

- ما الغموض في اللوحة؟

كانت اللوحة مستكينة يمين «قسمت» وهي أدارت عنقها لها على وقع حديث «طه» عن سنوات السجال حول طبيعة الرسم ومغزى الرسام، ولم يُشِر من قريب أو بعيد لأبي وقد استحسنت هذا جدًّا.

أردفت بثقة:

- ليس هناك أي لغز. راسم اللوحة استوحى حذاء فان جوخ بلوحته الشهيرة، فيظهر فرد حذاء منبعج قليلاً من الأمام برقبة أكثر طولاً مما هو عليه في اللوحة الأصلية، أما الفرد الثاني فرُسم باتجاه معاكس لنظيره ليظهر الكعب أكثر طولاً من أخيه وسُحب رباطه وعقد برباط الفرد الآخر لينتهي الخيط بلفه حول عنق حيوان أظن أنه كلب. فان جوخ كان يمشي حافي القدمين معظم حياته؛ لذا فالنقاد رجَّحوا أن اقتصار لوحته على فردتي حذاء رمز لفكرة الحياة باعتبارها رحلة الروح. هذا كل ما في الأمر.

هكذا فقط، حذاء وكلب. ألهذا الحد نعمى عن الواضح ونفني عمرًا في عبثية السجالات؟! ماذا يضير لو أنها جاءت وحكت ما حكت وهو موجود

بينما يبتسم لها فتظهر أسنانه الأمامية المتآكلة وضروسه الخاوية.. لِمَ تُحقِّق الأماني وأصحابها غائبون؟ كأنه عناد الموت مع الحياة.

وقال «طه»:

- عجيبة. حذاء وكلب. يعني كل من رأى اللوحة لم يرَ فيها سوى أشياء بعيدة تمامًا عن الحذاء والكلب.

وقالت:

- ربما لأنهم رفضوا رؤية هذا الفنان يرسم شيئًا ما، وكل عين حرة في تفسيره.

قالت إنها تمتلك نسخة من هذه اللوحة في بيتهم القديم بالزمالك، كانت معلقة في غرفتها وكانت تحبها لأن أمها هي التي اشترتها خلال مزاد قبل عشرين سنة.

- لكن أبي رفض أن ننقلها ضمن ما نقل إلى بيتنا في مدينة نصر قبل عام. قال إنها شخبطات لا تحمل أي فن.

ترك «طه» أمر اللوحة الذي أنا غارق فيه وسألها:

- يعني أنتم سكان جدد على مدينة نصر؟

وهي هزت رأسها بالإيجاب.

- أوقعت حرب في الزمالك أم أنها غرقت؟ أصلًا لا يوجد سبب آخر منطقي يجعل إنسانًا ينتقل من الزمالك إلى مدينة نصر.

وهي ردت على حيرته بابتسامة صامتة.

صارت «قسمت» ضيفة دائمة في الأندلس، تُعلمنا بما أنجزته وما تنوي، ونرتب لها مواعيد لقاءات مع زملاء وتتصل هي بدورها بهم لتتم أغلب مقابلات التصوير داخل استوديو شركة الأفلام الوثائقية التي تعمل بها في وسط البلد.

بدا «طه» متحمسًا على غير عادته تجاه الناس والحياة عمومًا. كان يستأذن من الورشة، ينهي معنا لقاءات زملاء لهم مشروعات لاقت من الإهمال ما لاقت ثم يعود إلى عمله.

فكّت شفرة غموض اللوحة بعدما أخبرتنا أنها استمدت زاوية جديدة للفيلم من قصة زميلنا «أمجد مهران»:

- أريد تسليط الضوء على الشباب الذي وجدت مشاريعه فرصة في الخارج وحققت نجاحًا كبيرًا رد اعتبار أصحابها.

قلت:

- أي نجاح ليس له طعم مع الغربة.

قالت:

- لم تعد هناك غربة. العالم صار مفتوحًا على بعضه وهدم التطورُ الحواجزَ القديمة تمامًا.

- مهما انفتح العالم ومهما وصل التطور، تظل الغربة غربة، تُغربل

الألم، تنزع عنه شوائب فقر المال والنجاح ليبقى الوجع في قعر الحياة نفسها.

– المغتربون بالملايين ويعيشون حياتهم بشكل عادي جدًّا.

– عادي جدًّا؟! ما العادي بالضبط؟ الغربة توقظك صباحًا على صراخ منبه غريب لا يتلوه صوت قادم من المطبخ يستعجلك للنهوض، تأكل معها وحيدًا مهما كثرت الملاعق على طاولتك، تُريك كل ما حولك غريبًا وفي الأصل أنت الغريب لا هو، تصاحب أناسًا إلى زوال في أي وقت ولأتفه سبب، ليس لأنهم سيئون ناكرون للعشرة، لكن لأنهم يعلمون جيدًا أن وجودك معهم لن يدوم. الغربة هي الضحكة المؤقتة والراحة المؤجلة والحياة على حافة تنقٍّل.

وأمسك «طه» خيط الكلام وقال بصوت مهزوز:

– والغريب يموت ميتة غريبة تبقى مرثية لمن عرفوه يتحاكون بها مع كل مشروع غريب جديد، موته منسي، بلا ضجيج، وأحيانًا بلا جثة، نبلغه بمكالمة هاتف أو برقية أو ربما عبر نشرات الأخبار. وحتى إن عاد حيًّا فلن يقدر على ضرب جذوره من جديد في أرضه.

كان أبي – رحمه الله – يرى في الغربة ملاذًا آمنًا من الموت في بلد يُنكر الحياة على ناسه، لحظة تهاوى صدام حسين في تمثاله البرونزي، رفع ذقنه من اتكاءة على العصا. أدار وجهه ناحية حذاء كان بيد «عيسى

لعة» ومسح دمعة على خده، ثم اقترح عليَّ بصوت مبحوح أن أهاجر:

- يا بني اهرب. هذي بلاد قاسية.

كان تلفاز الأندلس يشي بعراقيين يهتفون ضد صدام حسين، رافعين أيديهم بالأعلام الأمريكية ويركلون بأرجلهم بقايا تمثال زعيمهم الذي ورَّطهم في القهر والظلم والصمت، كانوا مبتهجين بما حسبوه انتصارًا، غير أن أبي لم يبتهج.

- السفر هروب. وأنا لن أهرب.

أعاد بصره ودمعه إلى التلفاز ثم قال:

- إذن.. ابقَ.. ابقَ حتى يأتي دورنا تحت النعال يا بني.

- نحن تحت النعال منذ زمن.

وابتسمت «قسمت» وقالت:

- لم تجربا الغربة وتتكلمان عنها كما لو أنكما عشتما عمرًا في بلاد غريبة.

قطع كلامنا وغربتنا صوت الشيخ «أسامة»:

- ولنا في اللقاء نصيب.

ضرب الشيخ «أسامة» بعصاه ضربات خفيفة على كرسي جوار «طه»، كان يستبين موقعه ويحدد زاوية التحرك للجلوس. وعدا عصاه لا يحتاج الشيخ الأربعيني لمساعدة أحد، يسير بمفرده في شوارع العباسية كأصح

البصراء. ولم يضبطه أحد يتعثر مرة في طريقه لمسجد القبة الفداوية الذي يداوم على الصلاة به. يعرف الناس حتى قبل أن تعرف أذناه بصمة أصواتهم؛ لذا فيقتنع الكثيرون، وأولهم «عبده دغش»، أنه شيخ مبروك، أي له من البركة الكثير وله في توزيعها نصيب، لكن آخرين يشكون في أن الشيخ ليس أعمى ويرى مثلهم.

والأعمى دائمًا حافظ للقرآن على دراية جيدة بأمور الدين. لم أفهم يومًا علاقة التدين بالعمى، تمامًا كعلاقة الفقر بالصبر. ربما يتعلق الأمر بعوز استمرار الحياة من دون تنغيص الناقص بنا!!

وهو ليس شيخًا معتمدًا من جهة دينية ولم نكن نعرف له دراسة محددة، لكنه كحال كل من له لحية ويرتدي جلبابًا وعمامة في بلادنا، فنسميه شيخًا على سبيل ما كان أو ما سيكون أو تكريمًا لزهده في الملابس العصرية أو لهَيبة تقرها ظروف كثيرة عدا فعل حقيقي يناسبها، من دون فرضية أبدًا أنه شخص عادي ليس له من المشيخة أو الدين شيء.

جاء الرجل من محافظة الدقهلية، في أي سنة؟ لا أحد يعلم، كما لا يُعرف له أهل أو عمل. يعيش بمفرده في غرفة صغيرة فوق سطح عقار يطل على ميدان العباسية. وتقريبًا هو الساكن الوحيد بالعقار المكون من ستة طوابق؛ فجميع شققه مؤجرة لأطباء اختاروها لعياداتهم وأصحاب مكاتب لبيع الأجهزة الطبية لقرب المبنى من مستشفى الدمرداش.

دومًا يقابلنا بضحكة تجلجل وجهه الأسمر ولحيته المهذبة وهو يعاتبنا على شح السؤال، ثم يسأل عن تمام العافية وخير الدنيا وأبدًا لا يُقلب في مآس. ولم أنزعج يومًا من غموض الرأي السياسي للشيخ الذي يلملم عباءته من أي حديث يورطه في الاحتساب على تيارات دينية بعينها، خاصة تلك التي لها نشاط سياسي، فيكتفي بالدعاء لانتشال البلاد مما هي فيه.

ولا يُخفي «طه» توجسه من الشيخ «أسامة» بلا سبب واضح. يقول إنه عادة ما يرتاب الناس بلا سبب ثم تأتي الأسباب على مهل. وعزوت هذا لمشكلته مع الشيوخ جميعًا، مرة قال لي بعصبية:

- مشكلتي مع الشيوخ غير أن مشكلتك مع الدين نفسه.

وبعد بشاشة سلامه، واطمئنان جلسته على مقعد يقارب جلسة «طه» ويقابل «قسمت».

سألنا الشيخ بود:

- ما سر اختفائكما هذه الأيام؟

كان سؤاله أشبه بديباجة لا تريد جوابًا بقدر إظهار رغبة الوصل، على الرغم من هذا قال «طه» بحدة:

- تختفي وتظهر لتبادرنا بهذا السؤال.

أزاح الشيخ تنهيدة علقت بصدره وهو يفرك لحيته بكفه اليمنى

ومسبحته الخشبية بأنامله اليسرى، ليقول:

- أعانك الله على العتاب وعلى الناس يا باشمهندس.

قلت:

- انشغلنا بالتعديلات الدستورية. صحيح، هل أدليت بصوتك في الاستفتاء؟

- لم أضع صوتي في صندوق انتخابي طيلة حياتي.

- ولو فعلتها، كنت ستقول «نعم» أم «لا»؟

- لا فارق. هم قالوا «نعم» ومرروها والسلام.

قلت لـ«طه» مساء إعلان نتيجة الاستفتاء:

- انظر للجانب المضيء، لم يصوت بالموافقة سوى 75٪ وليس 99٪ كالمعتاد. استفاقة الشعب قد بدأت.

وقال إنني على مشارف الجنون، وزاد:

- رحمتك يا رب وسعت كل شيء، فهل تسع عقل «علي رشدي» قبل أن يُجن؟

وكانت «قسمت» هادئة في جلستها تنصت لحوارنا مع الشيخ وتقلب عينيها كل فينة بيننا.

بان على ملامحها الدهشة عندما قال الشيخ:

- لم تعرِّفنا على الآنسة يا «علي».

لم تكن «قسمت» قد تحدثت بعد ليعرف الرجل أن شخصًا ثالثًا يجلس معنا، فكيف عرف أنها امرأة غير متزوجة؟!

وعرَّفته بها وقال موجهًا حديثه لها:

- بارك الله مجهودك. قصدت خير الناس.

طقطقت رأسها مؤمنة ثم انتبهت لكون الرجل لا يرى فقالت:

- نعم. فعلًا.

سألته «قسمت»:

- حضرتك من القاهرة؟

- وهل يبدو أني غريب عنها؟

- تقريبًا لم ألتقِ شيخًا إلا وكان من محافظة غير القاهرة.

انفرجت أساريره عن ضحكة وسأل:

- وهل كفرت القاهرة؟!

قال إن أصوله من محافظة الدقهلية، لكن بحور الدنيا طرحت به إلى شاطئ العاصمة فاستقر بها.

- قرية أخطاب.. مركز أجا.

صاحت بحماس:

- بلد «نجيب سرور»؟! قرأت كل شعره ومعظم مسرحياته، أديب

عظيم لكن الظروف ظلمته، لم يُمنح مكانته المستحقة.

- قولوا لـ«دولسين» الجميلة..

«أَخْطَابَ».. قريتي الحبيبة.

هو لم يمُت بطلًا، ولكن مات كالفرسان بحثًا عن بطولة..

لم يلق في طول الطريق سوى اللصوص..

حتى الذين ينددون كما الضمائر باللصوص..

فرسان هذا العصر هم بعض اللصوص!

- أحببت تلك القرية من شعر «سرور». هل هي فعلًا كما صوَّرها في ديوانه «لزوم ما يلزم»؟

رد الشيخ مقتبسًا قولًا من الشاعر:

- في قريتي «أخطاب».. حيث الناس من هول الحياة.. موتى على قيد الحياة.

قلت:

- لا بأس يا شيخنا، «أخطاب» توسعت حتى صارت مصر كلها.

وسارع الشيخ مغيرًا مجرى الحديث ليسألني:

- ما أخبار رسالة الماجستير يا دكتور «علي»؟ هل قاربت على إنجازها؟

(2) «مهجة».. حب في الظلام

25 فبراير 1986م..

يومها، كانت تقلبات فبراير تحمل تقلبًا حادًّا في حياتي.

في حدود السابعة مساءً، أغلقت جهاز التسجيل بعد أن أنهيت حوارًا صحفيًّا مع محامٍ أوكله وزير سابق للدفاع عنه في قضية الرشوة المدان فيها. قال الرجل كل ما يبرِّئ به موكله ويبرز نصاعة ذمته على الرغم من ثبوت التهمة والحكم عليه بعشر سنوات.

كنت غير مرتاحة لكلام الرجل ولا لمكان اللقاء الذي كان في «كافيه» بفندق صغير بنهاية شارع الهرم، المهم أني أنهيت الحوار الذي كلفني به رئيس التحرير المكلف بدوره من جهة ما لغسل أيدٍ كثيرة من قضية الرشوة هذي.

شكرني المحامي على سعة صدري، في الحقيقة لم يكُن هناك داعٍ للشكر؛ فليس معنى ترك شريط التسجيل يدور بكلامه ساعة كاملة أني سأكتب هذا الغثاء كله، سأكتب بعضه فقط حفاظًا على مرارة القراء.

وبينما كان الرجل يسألني عن ميعاد نشر الحوار وأنا أعده أنه سيكون في أقرب وقت، انطلقت أصوات صراخ، وبتلقائية انبطحنا أرضًا. انكسر زجاج واجهة الفندق إثر ضربة ما. حمينا رأسينا بلف أيدينا حولهما؛

لتفادي نثار الزجاج، غير أن بعضًا منه اخترق جبهة المحامي. لدقائق بقينا على وضعنا الانبطاحي ثم استبنًا أن كل من بصالة الفندق يهرب، فاستسلمنا لفعل الكل وهربنا.

وفي الشارع، كان الكل يهرب أيضًا. لم أفهم آنذاك ما يجري، مَن هؤلاء؟ ولماذا يدمرون ويحرقون كل ما يلقونه؟

توقفت عن الجري. شعرت بأنفاسي تختنق وضربات قلبي توشك على التوقف من فرط سرعتها. أرحت ظهري على بوابة حديدية لسور إحدى الفيلات المطلة على شارع الهرم. وبينما كل شيء يختنق في عينيَّ وصدري، شعرت بيد من الخلف تشدني من ملابسي فانحشر جسدي بين راحتي البوابة. صرخت، فزادت اليد من جذبي ناحيتها حتى خلص جسدي من البوابة وسقطت على الأرض. وساعدتني اليد على النهوض.

قال صوت يبدو حياديًّا:

- هل أنتِ بخير؟

- نعم بخير.

لم أستبن ملامحه بشكل جيد بسبب ظلام الشارع والفيلا.. قال:

- علينا الانتظار حتى نرى ما سيجدُّ.

سألته وأنا أتكئ على ساق شجرة تحسستها بنور سيارة مسرعة:

- ما الذي يجري؟

أجاب باستهانة عجيبة:

- عساكر الأمن المركزي يحاولون الخروج من الحظيرة.. يحتجون على طول مدة التجنيد.. لا قلق، سينتهي كل شيء قريبًا جدًّا.

لم أفهم من رده هل هو مؤيد لفعلهم أم لا.

- أيثورون؟!

وهو سألني:

- هل تسكنين قريبًا من هنا؟

- المنيرة.

سكت، ربما كان يقلب أفكاره لكيفية التخلص من شبح فتاة تسكن بحي المنيرة.

- وأنت؟

- من هنا.

أشعل سيجارة وهو يركن ظهره جانبي.

قلت:

- أيوجد مخرج خلفي لهذه الفيلا؟

- بالطبع يوجد.

- وماذا ننتظر إذًا؟

- أن أفرغ من سيجارتي.

تركته واندفعت ناحية البوابة الحديدية مرة أخرى. كان العساكر مستمرين في تدمير كل شيء. واندهشت من كونهم لا يرفعون شعارًا أو يطلقون هتافًا ينادي بمطلب.

- لا تنكري رغبتك في مشاركتهم ما يفعلونه.

جاء صوت الرجل الغريب مرة أخرى من خلفي.

- المجتمعات لا تتغير بتحطيم السيارات وأعمدة الإنارة وتكسير واجهات المحلات.

- بمَ تتغير إذًا؟

- بالاحتجاج السلمي، الكتابة، حملات التوعية.

- وبالكاتشب أيضًا.

- نعم؟!

- إذًا.. مسطردة؟!

- أنت تمزح يا حضرة؟

- والله المزاح ما تقولينه.

سحب يدي بهدوء. مشينا ناحية الحديقة الخلفية للفيلا. كان يمشي

بثقة ودراية بالمكان كما لو كان صاحب الفيلا. شعرت بلزوجة بين يده.

قال بهدوء:

- يدك تنزف.

أخرج منديلًا من جيبه. ربطه حول الجرح. كانت يده خفيفة كأنه ممرض ماهر.

السور الخلفي إسمنتي يتجاوز طوله مترًا ونصف المتر. تسلَّقه كما القرد العارف بتفاصيل شجرته، لم يقفز إلى الناحية الأخرى، بقي معلقًا بين الناحيتين.

مد يده:

- ناوليني يدك.

مددت يدي السليمة، وزنت ساقي اليمنى على جذع شجرة قريب والساق الأخرى على نتوء بارز بالسور. صعدت بصعوبة كلصٍ فاشل.

قفز أولًا ناحية الشارع.

- لن أقدر. أنا خائفة.

- افعلي كما فعلت.

- لا أستطيع.

- وماذا بعد؟!

– لا أعرف.

تركني فوق السور ومشى ناحية الرصيف المقابل.

صحت:

– أنت نذل.

لعنت الزمن الذي أفقد الرجال شهامتهم وآمنت تمام الإيمان بكل الخطابات النسوية الكارهة لكل ما هو ذكوري. وقلت في نفسي: لو أن الله ينجيني من هذه الورطة سأكتب مقالًا عن كل الرجال الأنذال.

سمعت صوت انكسار زجاج. كان لنافذة سيارة فيات حمراء تقف في أمان الله بمحاذاة الرصيف المقابل. ركب الرجل الغريب السيارة بعدما حطم نافذتها. فعل شيئًا بعجلة القيادة ثم أدارها.

قطع بالسيارة الطريق عرضيًا، توقف للحظة ثم تقدم ناحية السور حتى التصقت السيارة به. نزل منها:

– هيا انزلي.. ماذا تنتظرين؟

لم يكُن بين سطح السيارة وقدمي سوى سنتيمترات قليلة. قفزت على سطح السيارة ومد يديه ليساعدني في النزول من فوقها.

شكرته في خجل.

– اركبي سأوصلك.

طار الخجل من وجهي وقلت بحزم:

- أنا لا أركب سيارات مسروقة يا أستاذ.

- ولماذا استخدمتِ سطح سيارة مسروقة يا مدام؟

- آنسة من فضلك.

قهقه. نزعت منديله الملفوف حول يدي ورميته على الأرض، قال:

- اسمعي، نحن على الأقل نحميها من تدمير سيلحق بها بعد دقائق عندما يمل العساكر من الشارع الرئيسي ويبدؤون في الشوارع الجانبية.

رفضت الركوب ومشيت.

سار بالسيارة بمحاذاة سيري. قال وهو يُخرج نصف رأسه من النافذة:

- سأعيدها إلى مكانها بعدما أوصلك. أعدك.

وكان ذلك أول وعود «يحيى» لي.

اتخذ طرقًا كثيرة ملتوية ليصل إلى كورنيش النيل. منحتني بعض أعمدة الإنارة فرصة رؤية وجهه. جسمه رياضي أسمر البشرة، ذو أنف كبير، لكنه متسق مع عينيه الواسعتين وشفتيه العريضتين. شعره كثيف ويميل بعض منه على طرف جبهته، عيناه عسليتان، عرفت هذا عندما رأيتهما بعد ذلك في ضوء النهار. كان وسيمًا، خفيف الظل، واسع المعرفة،

على الرغم من أنه يصر على ادعاء غير ذلك.

قلت إن شائعة سرت منذ أيام عن تمديد الخدمة الإجبارية لجنود الأمن المركزي لتصير أربع سنوات بدلًا من ثلاث، لكن لم يتوقع أحد أن تسير الأمور على هذا النحو الاحتجاجي.

تجاهل ما قلته وسأل:

– هل كنتِ في زيارة أقارب بالهرم؟

– لا أفهمك.. أنت غير مهتم بما يفعله العساكر وفي الوقت نفسه تؤمن أن التغيير لا يأتي إلا بما يفعلونه.

– أنا أهتم فقط بما له مستقبل، أما ما سينتهي قريبًا فلا يشغل بالي.

– وما المستقبل في معرفة سبب وجودي بالهرم؟

رد:

– اسمي «يحيى توفيق».

في صغره كانوا ينادونه بالنابغة. ولد صغير ذكي شغوف بقراءة كل ما يتيسَّر وقوعه بين يديه.. أمه لم تكمل تعليمها، لكنها كانت تشجعه على القراءة. كانت تقتطع من مصروف البيت لشراء الكتب في مختلف المجالات له ولأخيه «مصطفى»، الأكبر منه بعامين، الوالد سافر العراق للعمل في المقاولات، والأم تكفَّلت برعاية الولدين، لكن مسؤولية الطفلين صارت شاقة

حينما صارا مراهقين يحتاجان إلى أب في المنزل يضبط إيقاع تربية معقولة تشرباها في الصغر.

كانوا يسكنون بفيصل، لم تكُن فيصل السبعينات سوى مجموعة بيوت متناثرة وترعة طويلة تسقي حقولًا ممتدة، كانت ضاحية متواضعة لحي الهرم الذي كان يعد نفسه بقوة كبديل مشوه وفاشل لشارع عماد الدين. الناس تقريبًا يعرفون بعضهم البعض، الأولاد ينزلون الشارع للعب ويمدون أحلامهم لشارع الهرم الذي بلغ كبره بأن لم يعد يعرف الناس بعضهم البعض.

التحق «يحيى» مع أخيه «مصطفى» بمدرسة المستقبل للغات في الجيزة. كان تلميذًا مشاغبًا، وظّف ذكاءه واطلاعه في الانحراف باحترافية وعقلانية وإبداع.

الأمور بدأت تدريجيًّا، ينزل مع أخيه للعب مع الجيران، يشكلون فريقًا ينافس فرق حي الهرم، تكثر المشاحنات ويغلي التعصب في النفوس على لعب كرة قدم أو «بلْي»، يكون شبه عصابة صغيرة يدخل بها مشاجرات مع أقرانه. لا يغيب أسبوعًا من دون العودة ممزق الملابس أو مبطوح الرأس أو مجروح الساق.

تتحسر الأم:

- صرتَ كالمجرمين! يا ربي، ماذا سأقول لأبيك عندما يرجع؟

تكتب الخطابات وتسجل الأشرطة للأب، تطمئنه على حال الولدين وتشكو منهما وتؤكد عليه ألَّا ينسى إرسال المراوح والسجاد مع جارهم الذي سينزل زيارة الصيف المقبل. كما تلمِّح إلى ارتفاع الأسعار ليزيد من الحوالة الشهرية.

وكانت فاجعة عندما دخل «يحيى» في مشاجرة مع أحد أبناء الهرم، أحدث «يحيى» عاهة مستديمة للولد بجرح قطعي في جبهته، ولولا تسوية تمت بين أهل المصاب وأخوال «يحيى» لكان مصيره حتمًا في مؤسسة للأحداث.

غير أن أقرانه ومن تابعوا الخناقة من الكبار شهدوا بمهارة وخفة وقوة «يحيى»، ابن الخامسة عشرة. وصار أقرانه يحترمونه خوفًا والكبار يعملون له حسابًا تفاديًا لمستقبل ينتظر الولد.

لم تكتب الأم في الخطاب الأخير لزوجها عن مشاجرة ابنها مع ابن الهرم. فضَّلت أن تحكي له عمَّا يفعله «يحيى» بنفسه وبالعائلة حينما يعود، والعودة قريبة بعد شهر. لكن الأب لم يعد، انقطعت الخطابات والحوالات وقال رفاق الغربة إن الأرض انشقت وبلعته. مرت سنة ولا أحد يعلم مصير الغائب، إلى أن اندلعت الحرب بين العراق وإيران، وقال الناس إن الحرب أخذته مع من أخذت. لم يكُن سببًا مقنعًا؛ فالرجل غائب قبل الحرب بزمن، لكن الأسرة ارتضت به سببًا بدلًا من انتظار المجهول.

لم يكُن والد «يحيى» قد كوَّن مبلغًا يكفيهم تقلبات الزمن أو اشترى عقارًا أو أرضًا يعيشون من ريعها؛ فكل ماله وضعه في مشروع مقاولات في العراق وكان ينتظر جني أرباحه قبل الاختفاء. وأخوال «يحيى» بالكاد يكفون بيوتهم، بل إنهم كثيرًا ما كانوا يميلون على أمه بالدين من زوجها. باعت الأم ذهبها لتنفق على ابنيها، ولمَّا خلص ثمنه، اضطرت للتخلي عن حلمها في إكمال تعليمهما. لم يكُن الأمر مأساة لـ«يحيى»، فالأمور كلها عبثية عنده:

– بمَ ستنفعني المدرسة؟! وماذا سأفعل بشهادة الجامعة؟! لقد عرفت كل شيء.

– وماذا عرفت يا «فلحوس عصرك»؟

– عرفت أن الدنيا لا تحتاج للعلم بل للممارسة. ومن الخطأ أن نبحث عن مكانة علمية في بلد دخل الراقصة فيه أعلى من دخل الطبيب. لقد قرأت ما قرأت ولم أرَ نظرة إعجاب من الجيران أو الرفاق بسبب معلومة زوَّدتهم بها، ولكن عندما مارست القوة وتشاجرت وانتصرت صاروا يحترمونني. نحن في زمن لا يعترف بالعلوم بل بالعوالم يا ماما.

– لولا العلم ما تيسَّرت لنا الدنيا.

– بل إن العلم عقَّد كل الأمور.

أما «مصطفى» فحزن أيّما حزن لترك المدرسة التي كان متفوقًا بها. كان

يحلم بالالتحاق بكلية الطب ليصير جراحًا كبيرًا. انزوى يعمل في ورشة للنجارة حتى جاء دوره في التجنيد. التحق بقطاع الأمن المركزي. وكانت فاجعة على الأم و«يحيى» عندما جاءهما خبر موت «مصطفى». قال زملاء «مصطفى» في الخدمة إن قائدهم كدَّره بلا سبب وحبسه يومين وحرمه من إجازته ووجدوا جثته مختنقة بحبل عُقد في نافذة زنزانته بالمعسكر. لكن المستشفى دوَّن سبب الوفاة في شهادة الوفاة: «هبوط حاد في الدورة الدموية». عجبت عندما روى لي بعد ذلك قصة شقيقه، لماذا لم يتفاعل بأي حال مع ثورة عساكر الأمن المركزي؟! لماذا حتى لم يتأثر؟! وهو أجاب:

- اختار أخي أن ينسحب. وأنا اخترت أن آخذ حقي، كل حقي. وها أنا آخذه.

ولم يدُم لـ«يحيى» عمل، تنقَّل بين الكثير منه، إما لقلة العائد المادي مقابل ما يبذله من جهد وإما لثقل دم صاحب العمل وإما لإساءة لم يتحملها وإما لأن مزاجه غير راضٍ عن العمل أصلًا.

عمل واحد فقط وجد فيه نفسه، يتلخص في الوقوف في صف طرف ما في الخناقات، يَضرب ويُضرب، ويحصل على أجر مقابل هذا. أي: صار «يحيى» بلطجيًّا. لعنت الأم حظها في ابنها وترحمت على الأب الذي لا تعرف إن كان ميتًا أم لا، والابن الذي انتحر. ولحقت «أم يحيى» بـ«مصطفى» بعد وفاته بسنتين قضتهما في حزن وكمد وقلق على ابنها الذي

نجا من الموت والاختفاء.

ولم يكُن كباقي البلطجية المعروفين. كان يحمل من الفكر والعلم ما هذّب كلامه وطريقة تعامله، حتى إن صبيانه - بعدما صار له صبيان يعملون تحت يده - لقبوه بالأستاذ. وكانت له مكانته المميزة بين زملائه البلطجية، وكيف لا؟ هل رأيت بلطجيًّا يتحدث الإنجليزية بطلاقة وبعضًا من الفرنسية، يلبس نظارة القراءة ويغرق في الكتب في أوقات فراغه، يرتدي لبسًا مهندمًا كشباب الجامعة وأحيانًا يذهب إلى الأوبرا؟ لقد كان ذلك أمرًا مستغربًا آنذاك، أما الآن فصار كبار بلطجية البلد كما كان «يحيى».

* * *

طرق الباب طرقًا خفيفًا:

- أما زلتِ مستيقظة يا «قسمت»؟

ابتسم وهو يخطو ناحية سريري بعصا رفيعة تسند مشيته.

يبدو أبي بكامل أناقته في أي وقت وفي أي مكان. لا يفارق السيجار فاه، كما لا تفارق العصا مشيته، على الرغم من قدرته على المشي من دونها. يحرص على ارتداء بدلته الكاملة وحذائه اللامع حتى في أحرِّ أيام الصيف، أما لباس النوم فيرتديه قبل دخول السرير بدقائق، ويحظر على نفسه المشي به في غير حجرة النوم. يضفي شعره الفضي بعضًا من هيبة إطلالته.

وهيبة طلته توازيها صرامة في نظام الحياة. الأكل والنوم والاستيقاظ في مواعيد ثابتة، يمارس المشي والسباحة بانتظام في نادي الجزيرة، ويحافظ على صحته من الخمور. يحب سماع الراديو ويعشق «أم كلثوم»، في مكتبته كل أسطواناتها الأصلية. يحب تربية القطط والسلاحف، لدينا ثلاث قطط وخمس سلاحف. يداوم على السفر كل شهرين إلى بلد مختلف للاستجمام، هذا إلى جانب سفريات العمل طبعًا.

ألقى نظرة خاطفة على كومة ورق ملقاة جواري، تراجع ليجلس على أريكة مقابلة لسريري:

– لم أعهد فيكِ السهر.

– كنت أقرأ.

ولمّا عرف أنها رواية تكتبها «مهجة» قال وهو يهز عصاه:

– «مهجة» لا تحتاج لتأليف روايات عن حيوات الناس. تحتاج فقط لتأليف نهاية موفقة لهراء حياتها.

لم أُرِد الدخول في نقاش لن يُفضي سوى لمزيد من إهانة «مهجة»، فسكتُّ.

كثيرًا ما تعجبت من عشق أبي لأمي وكراهيته الشديدة لشقيقتها. كيف يحمل الإنسان مشاعر متناقضة لشخصين يحملان الدم نفسه؟ أومن أنه قادر على إنهاء علاقتي بخالتي، لكن طيف أمي العالق بها يمنعه.

عاش قصة حب كبيرة مع أمي، وهو حتى الآن لا يستوعب رحيلها. يعلق صورها على كل جدران البيت، سواء في الزمالك أو مدينة نصر، عندما تركنا بيت الزمالك رفض نزع صورها منه وطبع صورًا مماثلة ليعلقها في شقة مدينة نصر. عندما تأتي سيرتها على لسانه، وهو يتعمد أن تأتي سيرتها على لسانه كثيرًا، يبتسم ويدمع في الوقت نفسه.

ابتسم فبانت أسنانه الصناعية، وقال:

- كيف حال أفلامك العظيمة؟!

- بخير. أوشكت على إنهاء واحد.

- حسنًا. خبر جميل.

ثم:

- معنى هذا أنك ستكفين عن الجلوس في مقاهي العباسية!

ليس صعبًا أن أفهم أن «سالم» السائق مَن أبلغه بحكاية مقهى الأندلس. كنت أحرص على النزول من السيارة في ميدان العباسية وأترجَّل المسافة إلى المقهى، ليس خوفًا من «سالم»، لكن السيارة الفارهة ستكون نشازًا بين رُوَّاد «الأندلس». وواضح أن «سالم» كان يتبعني، أصلًا شغلته هي مراقبتي، ومسألة توصيلي هامشية للغاية في عمله.

قلت:

- أجلس في مقاهي وسط البلد وليس لديك مشكلة!!

- ومن قال لك إني أوافق على مقاهي وسط البلد؟ لكنها على الأقل أشبه بطقس فلكلوري، يجلس عليها الأولاد والبنات، السياح والعائلات.. أما مقهى يديره واحد اسمه «عبده دغش» وكل رواده يشبهون «دغش» هذا، فهذا كثير يا «قسمت»، كثير جدًا.

- طيب أنا لا أريد أن يوصّلني «سالم» هذا لأي مكان بعد الآن. ولا أريد سيارة خاصة.

ضرب بعصاه على الأرض وقال:

- كما تحبين. ولكن تأكدي أني مع ذلك سأعرف كل شيء عنك.

ثم قال وهو ينهي خطواته المتئدة إلى باب غرفتي:

- آه، وانصحي خالتك بأن تكتب رواية لا تقتل فيها أحدًا.

(3) «علي».. ماضٍ يعود

كانت ترتدي فستانًا أصفرَ يلائم خبث مايو، ذا كميْن طويلين يشفان عن ذراعيها فيختلط الأصفر بالأبيض، وتشغل ياقته زهور بلون السماء، وأطرافه السفلية التي تعلو كعبيها بشبرين مزينة بدوائر صغيرة بيضاء. بدت جميلة ككل يوم. نعم، صرنا نلتقي كل يوم.

في البدء، كان الانشغال بإنجاز الفيلم، لكن الانتهاء من مشاويره لم يمنع استمرار لقاءاتنا. نجلس نحن الثلاثة في «الأندلس»، وأحيانًا نتمشى إلى وسط البلد، نذهب للسينما، نبحث عن مسرحية جادة ولا نجد، نتناقش في السياسة والفن والأدب، نختلف ونتفق ونمارس الحيادية بطلاقة مدهشة. لم أقابل فتاة قادرة على الإصغاء بهذا الاهتمام لأي موضوع أفتحه، كما تجبرني على الإصغاء لأحاديثها الرقيقة. كانت عكس «ليلى» في كل شيء، وكان هذا أفضل شيء بها. وكم تعجبت من أن أُدخلها في مقارنة مع «ليلى» أصلًا.

وعرفتُ منها أنها قضت طفولتها ومراهقتها في حي الزمالك، لا تخرج إلا قليلًا، ولا تصادق إلا في النادر. ظلت تتوه في شوارع الزمالك من قلة مشيها بها حتى التحقت بكلية الفنون الجميلة الكائنة في حيها، فصارت أكثر دراية بالشوارع والناس. ولَّما بدأت تستجمع أحداثًا لتصنع

منها ذكريات قليلة، قرر والدها الانتقال من الحي الهادئ إلى عمارة يملكها في مدينة نصر، فسكنا طابقين يوصلهما سُلَّم داخلي ليصنع فيلا صغيرة، أو ما يقولون عنه هذه الأيام «شقة دوبلكس».

بيد أن «طه» مبتهج من هبوط «قسمت» على أرض صداقتنا البائرة. عشر سنوات لم يدخل بيننا صديق ثالث، وها هي تدخل بانسيابية مدهشة منها وبرضاء تام منا. كان حبلٌ ما غير مرئي يجر ثلاثتنا بسلاسة، شغلنا بعقدة واحدة، كان يجرنا نحو الجحيم من دون أن ندري، وكنا سعداء مبتسمين.

قالت منشرحة الوجه:

– شاهدت أمس النسخة النهائية من الفيلم بعد عملية المونتاج.

زفر «طه» تنهيدة:

– أخيرًا!

تعطَّل المونتاج طيلة شهر كامل لأسباب قالت إنها خارجة عن إرادة «أحمد»، مدير شركة الأفلام الوثائقية.

– لا يهم. عمومًا أنا سعيدة أن فيلمنا سيخرج للنور.

ودعتنا لمشاهدة النسخة المُنتَجَة لفيلمها أو فيلمنا.. هكذا باتت تصفه.

تركنا «الأندلس» متجهين إلى وسط البلد. ركبنا «تاكسي» حتـى تقـاطع شارع رمسيس مع شارع عبد الخالق ثروت، ثم ترجّلنا باقي المسافة.

انحرفنا يمينًا من شارع عبد الخالق ثروت إلى شارع شـامبليون. دلفنـا إلى عقار لا يقل قدمًا أو يزيد على باقي بنايات الشارع.

حملَنا المصعدُ إلى الدور الثالث، وأمام باب شقة تعلوها لافتة نحاسـية كتب عليها «شركة ضوء للأفلام الوثائقية» وقف ثلاثتنـا. ضـغطت «قـسمت» الجرس. انتظرنا دقيقة ليفتح البـاب شـاب يبـدو في ثلاثينـات عمـره تعلـو ثغره ابتسامة ترحيب.

- «أحمد عادل»، صاحب الشركة.

لم تزِد في تعريفه لنا. كان من الشخصيات الودودة التي لا تحتاج منها سوى معرفة الاسم لتدخل في حوارات لا تنتهي. شعره ملتـوٍ بـشكل منمّـق. قامته طويلة وبشرته سمراء تزيد أسنانه بياضًـا. يرتـدي ملابـس رياضـية وتشغل معصميه وعنقه مسابح خشبية للزينة لا للتـسبيح، بيـد أن سـحنته أو شيئًا ما به ليس غريبًا عليّ.

استراح معنا على أريكة حمراء طويلة يمين صـالة الاسـتقبال. تـركتنـا «قسمت» لتشارك شخصًا لم نكُن رأيناه بعدُ إعداد الشاي. كان المطبخ يختفـي في ممر طويل يتفرع من الصالة.

قلّما يوجد «أحمد» بالشركة؛ لذا فقد اعتبر نفسه محظوظًـا برؤيتنـا في

المرة الوحيدة التي حضر فيها خلال أسبوعين.

- «عمرو» يتولى إدارة الأمور بشكل جيد؛ لذا أغيب عن الشركة وأنا مطمئن.

- هل لديك عمل آخر يشغلك؟

- يمكنك أن تسميه عملاً.

ثم ابتسم وهو يدير عنقه ناحية الشخصين القادمين من ناحية الممر.

كان شاب يمشي جوار «قسمت» يحمل صينية فوقها أربعة أكواب بلاستيكية. قامته أقل طولاً من «أحمد» وبشرته سمراء، أنفه ضخم يناسب شفتين عريضتين، وتبدو عيناه جادتين من خلف نظارته الزجاجية عريضة الإطار. وإلى حد كبير كان يشبه «أحمد».

جرَّت «قسمت» طاولة بلاستيكية صغيرة كانت جوار الباب. وضعتها أمامنا ثم وضع الشاب الصينية عليها.

قال «أحمد» وكأنه يذيع حفلاً، وهو يشير إلى الشاب:

- أقدم لكم من يتحمل غيابي وحضوري أيضًا، نائبي الهمام.. «عمرو عادل المندوه».

انفلت عن «طه» صيحة:

- «عمرو عادل المندوه»! يا الله! «عمرو»!!

رد الشاب بابتسامة متوجسة.

- أنا «طه عبد ربه».. ألا تتذكرني؟

ثم انتفض «طه» من جلسته ليحتضن الشاب الذي تحوَّلت ملامحه الجادة إلى أخرى رقيقة مرحِّبة بنا.

قال «عمرو» وهو يمد كفه مسلمًا عليَّ:

- مؤكد أنك «علي رشدي».

سلمت بحرارة مماثلة. ورد «عمرو» على عيني «قسمت» المستفهمتين عن علاقتنا:

- «طه» و«علي» كانا رفيقيَّ في لاظوغلي.

ثم أدار وجهه إلى «أحمد»:

- وأخي «أحمد» أيضًا.. آخر تشريفة كانت قبل شهر وخرج فقط قبل أسبوع.

قلت مازحًا:

- فهمت الآن سبب تأجيل مونتاج الفيلم.

كانت تلك أول مرة نرى وجه «عمرو عادل المندوه»، في لاظوغلي، الكل يكون معصوب العينين، وقد تدخل في صداقة قوية مع أحدهم من خلال صوته فقط.

زاد «أحمد» وهو يدير عينيه إلى «قسمت»:

– احترس. دائرة معارفك ازدادت خطرًا. الرجل لن يتحمل ما تفعلينه به.

من الرجل؟ وجاء الفهم سريعًا بعدما احتسينا الشاي ودعانا «أحمد» لمشاهدة الفيلم في غرفة بنهاية المر.

غرفة خافتة الإضاءة. والإضاءة نفسها متنوعة الألوان، بين الأحمر والأزرق والأصفر.. جلس ثلاثتنا على كراسي خشبية متفرقة ليدير «عمرو» جهاز العرض ثم يعود ليقعد جوار شقيقه على كنبة سوداء طويلة خلفنا. استمتعنا لمدة خمس وثلاثين دقيقة بمشاهدة زملاء يسردون قصص معاناة بابتسامة الخاسر في معركة لا رابح بها.

وعلى قدر ما تفوَّقت «قسمت» في إنجاز الفيلم، على مستوى الإعداد والإخراج، تألمت من أن تتحول مآسي الناس لمخزون في شريط سينمائي لن يزحزح في المآسي شيئًا.

قام «عمرو» ليضيء النور الأبيض الحاد، بينما لمحت في تتر ختام الفيلم ما مدد رعشة في أطرافي.

إعداد وإخراج: «قسمت العباد».

– هل لعائلتك علاقة بعائلة «العبّاد»؟

أجابت بهدوء عتيق:

- نعم.

قلت متمنيًا ألا تقول نعم الثانية:

- إذًا لك قرابة بـ«رأفت العباد»! !

نضح وجهها عن احمرار قائلة:

- نعم.. والدي.. «قسمت رأفت العباد».

* * *

المنارة. الأندلس. صراخ يهز الطابق الثاني ليربك الأول. الصمت المُصفًّى من كل ود. «بثينة عبد الكريم». الريحان وذبوله. الموت على حافة انتظار.

هي ابنة «رأفت العباد». لا بأس. لا جديد. إنه الدوام الرسمي للحياة.

لماذا يبتدي الجمال صافيًا ثم تداهمنا الشوائب على مهل؟

ولماذا هي «قسمت» ثم «قسمت رأفت العباد»؟

وهي فتحت أحاديث كثيرة عن مشاريع لأفلام مستقبلية تفكر في إعدادها. هل تحدثت عن مهرجان دولي تتمنى أن يعرض فيه فيلمها؟ ربما.

قفز أمامي كل ماضي بيت المنارة ينتعل حذاء فان جوخ محمولًا على عربة يجرها كلب، ومن بعيد كان «رأفت العباد» ينبح.

من أي جذر غير جذور الآباء تنبت مآسي الناس؟ ولماذا لا يوجد

قانون يعاقب الآباء على سوء تربيتهم لأبنائهم ولأنفسهم؟ ولِمَ أخسر كل شيء قبل أن أمتلكه؟

لا أدري كيف استأذنت للانصراف من الشركة وكيف تركت «طه» وحيدًا كعادتي معه. كان ينادي عليَّ، أو بالأحرى يستنجد بي، بينما أعبر شارع رمسيس من دون وجهة محددة.

مشيت من وسط البلد حتى العباسية، ثم مررتني الشوارع إلى مصر الجديدة. كان الناس يضحكون. يتجهمون. يسرعون المشية ويبطئون الخطى. يتسوَّقون ويتجاهلون المحلات. يشخط أحدهم في الآخر، ويربت رجل على كتف صديقه. يغازل رجل امرأة بشكل سخيف، وتتشبث واحدة بكف حبيبها، وينتظر أحدهم فتاته التي لا تجيء. وكأنهم أجمعوا على اللامبالاة تجاه حزني.

ولماذا أخفت عنَّا أباها؟

وتدريجيًّا صار سؤال ضخم يهز البنايات والأشجار والناس في مقلتي:

– لماذا أنا حزين على «قسمت»؟

(4) «طه».. لاظوغلي

كل شيء.. كل شيء عاد أمامي كفيلم قصير بديل لفيلم الآنسة «قسمت رأفت العباد».

«يسري» ولاظوغلي.. عاد كل شيء..

الظلام يرمد الأعين. إنهم يذهبون وراء الشمس، هل نحن وراء الشمس فعلًا؟ وهل ثمَّة وسيلة مواصلات تأخذنا من وراء الشمس إلى أي ثقب أسود آخر؟

سأل صوت خمنت أنه عن يميني:

– أين الله؟ أين انتقامه؟ أين رحمته؟

رد آخر متحفظًا:

– الله موجود، هو فقط يملي لهم ليزدادوا إثمًا.

– ليزدادوا إثمًا ونزداد كفرًا؟! لا عدل في هذه الحياة على أي حال.

همست أصوات مستغفرة:

– العدل في تمادي جرمهم ليثقل عقابهم في الآخرة.

– وهمٌ صنعناه لنتحمل هذا الظلم الكبير. لا يحدث شيء سوى أننا نصمت وننسحق ونموت.

- لقد كنت أحتجُّ من أجل إرساء دين الله في أرضه، لكن يبدو أن الله نفسه لا يريد هذا.

- أستغفرك ربي وأتوب إليك. انتبه يا أخي بهذا الكلام أنت تكفر بالله.

وبين الكلام والاستغفار ومشارف الكفر، كان صوتٌ ينادي على شاب يُدعى «خالد»، وكان «خالد» يرد بصوت ضعيف يضم حشرجة مخيفة بكلمة واحدة:

- موجود.

كان «خالد» ينزف من دبره حتى تكونت دائرة كبيرة من الدم حول جسده، وكان صديقه ينادي عليه كل فينة ليطمئن على بقائه بلا إغماء أو موت. ذهب «خالد» إلى حجرة التحقيق وعاد لنا هكذا. كانوا يُدخلون منفاخًا صغيرًا في دبره ثم يبدؤون في النفخ إلى أن يمتلئ بطنه، وعندما يتأكدون أنه على وشك الانفجار يقف أحدهم على بطنه لتفريغ الهواء الذي ملأ بطنه.

قال صوت يحتله العَجز:

- بينما نستعد نحن للموت القادم يستعد الناس لمباراة مصر وجنوب أفريقيا.

- أتوقع أن يفوز المنتخب، التشكيل جيد والروح المعنوية عالية

وأداؤنا ضد بوركينا فاسو كان رائعًا.

وقال الشاب الذي ينادي كل فينة على «خالد»:

- لا تنسَ أن الحكم في مباراة بوركينا فاسو كان دنماركيًّا، أما في هـذه فهو مغربي.

- متى ستقام المباراة؟

- لا أعرف، ربما لُعبت أصلًا.

- لا أظن.. أنا دخلت هنا يوم ثلاثاء وبقيت خمسة أيام، لا بل سـتة، لا أدري تحديدًا.

وتدخل صوت ليس عذبًا بالغناء:

- اطلق كلابك في الشوارع.. واقفل زنازينك علينا..

ويقل نومنا في المضاجع.. آدي إحنا نمنا ما اشتهينا..

واتقل علينا بالمواجع.. إحنا اتوجعنا واكتفينا..

وعرفنا مين سبب جراحنا.. وعرفنا روحنا والتقينا..

عمال وفلاحين وطلبة.. دقت ساعتنا وابتدينا..

نسلك طريق مالهوش راجع.. والنصر قرب من عنينا.

وتدريجيًّا بدأت أصوات تنضم لصوت المتفائل بلا سـبب ملمـوس سـوى هذيان المأساة.

وكان «علي رشدي» لا ينطق. منذ جلسة التحقيق الأخيرة لا يتحدث معي أو مع أحد.

وتردد في أذني ما قاله الضابط في جلسة التحقيق الأخيرة:

– أنت عضو فاسد داخل المجموع، وإما أن تنصلح وإما أن ترحل بفسادك إلى أرض أخرى تزرع فيها عطبك. والأسهل من هذا كله أن تموت.

كان يريد تستيف أوراق القضية باعتراف مني بكوني أحد أعضاء حركة «يسار حر» واشتراكي في أعمال تخريبية.

– خططت لحرق البرلمان ووزارة النقل؟

– هل أنا «سوبر مان» لأفعل هذا؟!

لكمني وقال إن الاستهزاء بكلامه يثبت التهمة عليَّ.

قلت تفاديًا للكمة أخرى:

– لم يحدث أن خططت لحرق البرلمان أو وزارة النقل.

– صاحبك «علي رشدي» اعترف بهذا. وعليك الاعتراف مثله وإلا ستضيِّع فرصة أخيرة للنجاة.

خفتت أصوات المغنين وعاد الصوت ينادي على «خالد». ولم يرد «خالد»، لأكثر من مرة لا يرد، تحسس المنادي طريقه المظلم إلى حيث دائرة الدم، وكان «خالد» قد مات. بوسع حناجرنا صرخنا وضرب بعضٌ منا باب

الزنزانة.

بعد ساعة تقريبًا، جاء عسكري صرخ فينا من شُرَّاعة باب الزنزانة ثم أغلقها بقوة ولم يلتفت لمسألة موت «خالد» وعاد بعد دقائق وفتح الباب وألقى جردلًا مليئًا بالبول على أجسادنا الممتلئة بالعرق والدم والألم.

ولوقتٍ لم أدرك مدته سكتنا جميعًا. وعرفنا، بعدها، أنه في الوقت الذي احتضر فيه «خالد» ومات، كانت مصر تضع أهدافها في مرمى جنوب أفريقيا، ولمَّا انتهت المباراة عاد العسكري مع زميل له وسحبا جثة الشاب على إيقاع نشيج صديقه، وكان صديقه هو «عمرو عادل المندوه».

في اليوم التالي، أطلقوا سراح «علي رشدي»، على الرغم من أنه المتهم الأساسي في القضية. تركني وحدي ألاطم الموت والألم وعبثية الإيمان بوطن كافر بنا.

(5) «قسمت».. ارتباك

كان الخدم في نشاط تام، يُعيدون تلميع التحف والنجف والمرايا ويزيلون الأتربة من الأسقف والأرضيات ويمسحون الأعمدة الرخامية بعناية شديدة.

وكان أبي مشغولاً في غرفة مكتبه بمكالمات تخص إقامة حفل ببيتنا يحضره شركاؤه في العمل، نهاية الأسبوع. لم يعتَد إقامة حفلات من هذا النوع في البيت. يعتبر سكننا مكانًا خاصًا لا يجوز تحويله لساحة عمل، على أي حال باتت تصرفاته كلها غريبة مذ تركنا بيت الزمالك. اتخذ قرار الانتقال إلى مدينة نصر ونفذه خلال أسبوع. سبعة أيام فقط للمنا فيها أيامًا وذكريات وبعض ملابس وأثاث. كان متعجلاً كما لو أن أحدًا اختاره من دون باقي الخلق ليكشف له نبوءة غرق جزيرة الزمالك خلال أيام.

صعدتُ إلى غرفتي، رميت جسدي وأفكاري على السرير. وددتُ لو أتصل بـ«علي» ولم أتصل. كيف يحمل اسمي الثلاثي كل هذا الارتباك في أعينهم؟ ما الفارق بين «قسمت» و«قسمت رأفت العباد»؟ وكيف لرجل يجلس بمكتبه ويجري مكالمات هاتفية أن يربك الناس لهذه الدرجة؟

امتقع وجه «طه» بعدما سمع اسمي الثلاثي، بينما ذاب «علي» كالملح من الشركة.

- أهناك شيء خاطئ يا «طه»؟

ازدرد ريقًا وأجاب بصوت شارد:

- لا أبدًا.

ثم ألقى سلامًا باهتًا ومشى وراء صاحبه.

وقال «عمرو» وهو يصطنع المزاح:

- لتقدّري تجاوزنا أنا و«أحمد» عن مسألة والدك بسلاسة.

«عمرو» وأخوه لم يتجاوزا مسألة والدي بسلاسة أو حتى من غير سلاسة. وضعا أبي حائلًا بيننا منذ أن تعرّفنا قبل أربع سنوات خلال مظاهرة ضد الغزو الأمريكي للعراق، كنت وقتها في السنة النهائية بالكلية وهما يحضران لافتتاح شركة الأفلام الوثائقية. تعرفنا وتجاذبنا الحديث، وبعدها بأيام عرفا أني ابنة «رأفت العباد»، كان رد فعلهما مشابهًا لـ«علي» و«طه».

يوم غرقت السفينة ومعها مئات الناس، قال «عمرو» وسط مناقشة ساخنة ضمت كثيرًا من الشباب في أحد مقاهي البورصة بوسط البلد:

- يعاملوننا كالكلاب. رجل مهم يمتلك سفينة لا تصلح للاستخدام فتغرق. لا يهم أن نموت. هم سلالة من القتلة وكل من حولهم قتلة.

ما كان يوجه حديثه لأحد غيري.

عدت إلى بيت الزمالك تغرقني الدموع، وسألت أحد أصحاب شركة النقل الملاحي التي تمتلك السفينة الغارقة، والذي هو أبي:

– هل أنت مسؤول عن غرق الناس؟

قال بهدوء يستوعب حالتي:

– لا طبعًا. الناس يموتون كل يوم لأسباب مختلفة وتافهة. ما ذنبي أنا في غرقهم؟! نحن ننفق كثيرًا على صيانة كل سفن الشركة، ما ذنبي في خطأ فني أو بشري تسبب فيه قبطان فاشل؟ هذا قضاء الله، وعمومًا الأمر متروك للقضاء، وأنا واثق من البراءة.

أنهى أبي مكالماته وخرج من غرفة المكتب وأعاد على مسامع الخدم تأكيدات الانضباط والتعاون مع طاقم الخدمة الذي سيأتي غدًا من أفخم فنادق القاهرة ليُشرف على الحفل.

صعد إلى غرفتي، وسألني من دون تحية:

– أين كنتِ طيلة النهار؟ ألم أؤكد عليك الاهتمام بترتيبات الحفل؟

– كنت أشاهد النسخة المنتجة من فيلمي الجديد.

– فعلًا سبب مهم جدًّا للانشغال وعدم متابعة ترتيبات الحفل مع الخدم.

– أرى أن الأمور تسير بشكل جيد. لا تقلق يا «بابي».

- ما دُمتِ غير قلقة فهذا سبب أدعى للقلق.

وابتسمتُ أمام هذا القلق الغامض. وهو قال إن الحفل سيحضره وزراء كثيرون.

- يا «بابي» أنت أهم من أي وزير.

- «قسمت».. سيحضر الحفل مَن هم أهم من أي وزير. لا أريد خروجًا من البيت يومها.

وتذكرت موعدًا مع «مهجة» صباح يوم الحفل لتشاهد فيلمي الجديد كي تكتب عنه مقالًا.

ضرب عصاه في الأرض بعصبية:

- كلامي يُنفَّذ بلا نقاش.

* * *

لأسبوع تقريبًا لم نلتقِ. اتصلت بهما مرات كثيرة، «علي» عبر هاتفه الخلوي و«طه» عبر تليفون الورشة التي يعمل بها.

وكان يوم جمعة، ومررت على «الأندلس» قبل زيارة «مهجة». وجدتهما في جلستهما المعتادة يراقبان الرصيف بلا هدف. ولمَّا سألتهما عن سبب الاختفاء رد «علي»:

- كنت مشغولًا بالتجهيز لامتحانات نهاية العام.

وقال «طه»:

- حسبنا أنك مشغولة في تسويق فيلمك الجديد. وأظنك حدثتِنا عن مهرجان ستشاركين فيه.

رددت على هذه الحجج:

- فعلاً مشغولة.. أفكر في عمل فيلم جديد.. عن حركة كفاية.

قهقه «طه» وعدل «علي» نظارته الطبية فوق أنفه ولم يضحك كما لم يعلق.

سألني «طه» بجدية بعد أن أفرغ قهقهته:

- لِمَ أخفيتِ عنا اسم والدك؟

- لم أُخفِه. ظننت صديقك يعرف. ألا تعرف يا «علي» أن «مهجة إدريس» من أصهار «رأفت العباد»؟

وأقسم إنه لم يكُن يعرف.

قلت:

- ما الفارق في أن أكون ابنة «رأفت العباد» أو غيره؟ وما المشكلة أصلاً في «رأفت العباد»؟ وهل عليّ أن أعلق بطاقتي الشخصية على كتفي ليعرف الناس من أكون؟

استمر «علي» في سكوته وردَّ «طه» على أسئلتي بسؤال يغيِّر به الموضوع:

- هل فعلًا تعدين فيلمًا عن حركة كفاية؟

- وهل في هذا مانع أيضًا؟

ثم:

- أظنكما قادرين على مساعدتي؟

فكَّ «علي» صمته بانفعال:

- أي مساعدة؟! لسنا أعضاء في كفاية، «عمرو عادل المندوه» كان عضوًا بها، يمكنكِ سؤاله.

- أنا أسعى إلى تناول الحركة من أكثر من مصدر وزاوية، وأنت كنت منخرطًا في الحراك الجامعي ومعتقلًا سابقًا و...

- هذا حوار عبثي لأبعد درجة.

رفع «طه» حاجبيه وهز كتفيه ليقول إنه لن يفيد هو الآخر، وقال إنه لا يعرف عن «كفاية» سوى أنها اسم جارة له.

- حقًّا لك جارة اسمها «كفاية»؟

- والدها أنجب من البنين ذكرًا واحدًا وهو بكرُه، ثم تبعه سبع إناث، وكانت «كفاية» هذه ثامنته، فقرر الرجل تسميتها «كفاية» رغبة في وقف نسله.

- وفعلًا لم ينجب بعدها؟

- وهل حركة «كفاية» كفت النظام عن استمراره؟

ثم قال:

- بعد «كفاية» أنجب الرجل ذكرين..

وتدخل «علي» ليُوقف حكي قصة «كفاية»، وقال بلا مبالاة شديدة:

- للأسف لا يمكن أن تستمر صداقتنا بك، هذا إن سمينا ما جرى في الأيام السابقة صداقة أصلًا.

(6) «علي».. بيت المنارة

لا أفهم إصرارها على مشاهدة تلك المسرحية!!

في الأمسيات القليلة التي تصادف دخولي البيت وتكون هي مستيقظة، لا تنفك عن التسمُّر أمام شاشة التلفاز، تسحب تنهيدات كلما علت السيدة أمينة رزق بنداء «يا أستاذ أبو الفضل».. إنه عين الاستفزاز أن يدور شريط مسرحية «إنها حقًّا عائلة محترمة» داخل حيز مكاني كبيتنا.

ألقيت سلامًا سريعًا. ارتقيت السلالم الخشبية إلى الطابق الثاني.

عبرت الممر إلى غرفتي.

كانت «قسمت» حاضرة في كل الغرفة، في قصاصات صور نجوم فريق المنتخب سنة 90، تفصل بين صورتي «عبد العزيز محمود» و«تشي جيفارا»، وتقف جوار عصا «المهاتما غاندي»، وتدير ظهرها لي مع «حنظلة». كانت مبتسمة على أغلفة كل الكتب الممددة على السرير والكومودينو، ولمحتها تقف في الشرفة تنتظر أن يضيء البيت منارته وأن يعود الريحان إلى نضرته.

لم يعارض «طه» قراري بقطع صداقتنا بـ«قسمت»، ربما لو كنت انتظرت دقائق لفعلها هو. وهي أخذت قرار القطيعة ورمت لنا «شكرًا»

وحساب قهوتها التي لم تشربها على الطاولة ومشيت.

وسألني «طه» بعدما غادرتنا:

– أكنا قاسيين؟

– أبدًا. القسوة هي أن نفعل ما يورِّطنا أكثر معها.

– لكنها طيبة و...

– الطيبة ليست سببًا جيدًا لنكمل هذا الزيف كله. وأنتَ تحديدًا يا «طه» لا يمكنك أن تُصادق ابنة «رأفت العباد». هل نسيت «يسري»؟! لا أحب أن أزايد عليك، ولكن كما ترى، الدنيا لا تفعل بنا أكثر من الطَّرْق فوق أدمغتنا بشكل رهيب.

طرقت السيدة «بثينة عبد الكريم» الباب طرقًا خفيفًا. كعادتها لم تدخل، واربت الباب بزاوية لا تُمكنني من رؤية وجهها بشكل واضح، قالت:

– بنت اسمها «ليلى» اتصلت بك أكثر من مرة على التليفون الأرضي. قالت إنها تريدك في مسألة مهمة. وأنت لا ترد على هاتفك المحمول.

أغلقتْ الباب. ولم أتصل بـ«ليلى». وبقيت «قسمت» تتجوَّل في الغرفة تفتش وسط الكتب وداخل الصور عن سبب مقنع لخروجها من حياتي بهذه الطريقة.

جلست على حافة السرير، خلعت «الشبشب» وارتديته مرة أخرى، حاولتُ أن أقف جوار «قسمت» في الشرفة وعدت وحدي خائبًا. حاولت أن أمسك يدها التي تفتش في الكتب لأقنعها أن الطاعون الذي أصاب علاقتنا هو عدوى خبيثة من «بثينة عبد الكريم»، لكنها لم تصدِّقني. حاولت النوم وظلت «قسمت» تحت جفوني، سحبت الوسادة من تحت رأسي فأحسست بدفء كلامها يغلف جمجمتي. وتصاعدت أبخرة أفكار مجنونة في ذهني، فكرت أن أرمي الكتب والوسادة من الشرفة وأمزق كل الصور ثم أهبط إلى المطبخ وأعد شايًا أضع فيه سُمًّا وأقدمه لـ«بثينة عبد الكريم»، وفكرت أن أتصل بها لتأتي وتأخذ نفسها من غرفتي بالذوق، وفكرت أني ربما أحب هذه الفتاة ولا أطيق بُعدها.

رن هاتفي. كانت «ليلى» تعاود اتصالها للمرة المئة تقريبًا منذ الصباح، رددت عليها.

جاء صوتها مسرعًا:

– ستضيع على «طه» فرصة العمل في شركة محترمة.

– أي عمل هذا الذي يظل شاغرًا هذه المدة كلها؟!

– أتوا بمهندس قريب أحد رؤساء الأقسام واكتشفوا ضعف مستواه فقرروا إقالته. أخبر «طه» بأن آخر موعد للتقدُّم للوظيفة غدًا. اتركه يقرر شيئًا واحدًا في حياته يا «علي». يكفي ما فعلته به. عليه أن يعود إلى جلسته

الحذرة على رصيف العالم، لا تضيع مستقبله مرتين.

أغلقت الهاتف قبل أن تحضر «ليلى» الماضي كله أمام «قسمت» التي تحتل غرفتي.

كانت «ليلى» زميلتي في الجامعة، كانت طالبة بكلية الآداب، تكبرني بعامين لكن رسوبها عامين متتاليين ألحقني دراسيًّا بها.

ولمَّا كنت ضيفًا دائمًا على الحرم الجامعي المطل على شارع الخليفة المأمون بعيدًا عن كليتي الكائنة بشارع السريات القريب من بيت المنارة، انتهزت حديثي يومًا مع زملاء حول تداعيات خبر مراجعات الجماعات الإسلامية على مستقبل الحالة الأمنية في البلاد. تدخّلت مؤمِّنة على رأيي مستدعية الحالة الأمنية في الجزائر وكيف يمكن أن تتحوَّل مصر إلى جزائر جديدة ما دامت كل مخصبات المرحلة موجودة، من تشدد ديني يقابله تورط النخبة الفكرية بشكل غير متكافئ في الرد على الإسلاميين، وهو ما تحتضنه السلطة من دون معالجة حقيقية لأسباب الصراع الذي بدأته هي بالأساس.

- علينا ألَّا نتصوَّر أن مراجعة القيادات لمنهجهم تعني أن تبلعها القواعد. وأظن أن محاسن المراجعات ستظهر على المدى القريب، أما مساوئها فتأخذ ربما عشر سنوات لتصبغ المشهد كله بالدم. ما يحدث ليس أكثر من كتم جرح بضمادة تنزف دمًا.

رد زميل من أسرة «نـور الإسـلام» موجهًـا نظراتـه لكـل الـزملاء عـدا «ليلى»:

– مـا يحـدث في الجزائـر لم تكـن بدايتـه تـشددًا دينيًـا، بـل رفـض جنرالات العسكر التجربة الديمقراطية. لم يصدقوا أن التيار الإسلامي لديه شعبية تمكِّنه من الوصول للحكم عـبر صـناديق الاقـتراع؛ لـذا فقـد صـبغوا المـشهد كلـه بالـدم، بمـساعدة المحتـل القـديم فرنـسا، والنخبـة الفكريـة علمانية الهوى، وطبيعي ألَّا يقدِّم تدخلها سوى مزيد من الفـشل. وأجـزم أن القواعد ستقبل المراجعات طالما رضيت بها القيادات.

ردت بابتسامة هادئة:

– أظن أن رؤيتك مبعثها أنك من هذه القواعد.

قال الشاب بعصبية مستمرًا في تحاشي النظر إليها:

– أخطأت بتحدثي مع سافرة مثلك.

قلت مهدئًا:

– لا داعي للدخول في أمور ليس لها محل في نقاشنا.

وانقسم الجمع بين مؤيد له ومؤيـد لهـا، ثـم انـسحب الـشاب وتبعـه مؤيـدوه وانفـض مؤيـدوها تـدريجيًا مـن حولنـا. صـافحتني وهـي تعـرفني بنفسها:

- «ليلى عبد التـواب»، زميلتـك في كليـة الآداب قـسم تـاريخ، وعـضو بحزب التجمع.

لم أمِلْ يومًا لأي حزب، لديَّ قناعة أن الأحـزاب في مـصر مثـل شـجر الريحان فوق سطح بيتنا، لم يعد له ثمَّة مكان. وهي كانت ذكية حد تجـاوز هذه الفجوة بيننا، كثرة قراءاتها يسَّرت فتح أحاديث كـثيرة بيننـا. كانـت تلتهم أي كتاب التهامًا، تحفظ جمله بأرقـام الـصفحات، وتعيـدها بمهـارة عجيبة. تقريبًا لم أقرأ كتابًا لم تقرأه. تقـول إن لـديها مكتبـة ضـخمة تـضم كتبًا في مختلف المجالات. ومـع الوقـت فهمـت أن كثـرة قراءاتـك لا تعـني بالـضرورة أن تكـون إنـسانًا جيـدًا، يمكنهـا فقـط أن تـساعدك علـى تـأخير اكتشاف الناس لمدى السوء الذي أنت عليه.

كانت «ليلى» أول فتاة تقتحم حياتي بهذا الـشكل، في الحقيقـة كانـت أول فتاة في حياتي عمومًا.

واعتـدتُ عليهـا، وعنـدما أيقنَـتْ مـن أنـي اعتـدتُ عليهـا قـررت أن تحـبني، وعنـدما اعتـدت علـى حبهـا قـررت أن تتركـني. هكـذا بـسلاسة عجيبة.

كنا أمام سينما أوديـون، أعيـد عليهـا آخـر كلمـات بطـل فـيلم «أرض الخوف» الذي شاهدناه لتوِّنا: «وتدريجيًّا، اكتشفت أنـني أحـن لحيـاتي في أرض الخوف بلا قدرة على العودة إليها».

ردت ببساطة على انبهاري بالفيلم:

- أنا أحبك.

وتدريجيًّا جذبتني إلى أرضها، أرض الخوف الكبير. داومَتْ على دعوتي لحضور ندوات ينظمها حزبها وحفلات موسيقية لفرق الشوارع، كنت أعتذر كثيرًا وأقبل رجاءها نادرًا، ولم تمل من ترتيب لقاءات تجمعني بزملائها في الحزب، كانوا مثقفين ثقافة مزعجة وقد عجبت لأناس تثير فيهم الثقافة فوضى تتطور إلى عدمية الرؤية وطيش التصرف وحب الحياة التي لا يرونها بشكل جيد.

- قلّما تجد من يجيدون الحياة ولا ينسون قضايا وطنهم يا «علي». وهم يجيدون الحياة ويجيدون الدفاع عن وطنهم.

- هؤلاء بلا حياة أصلًا ويصنعون من الوطن قضية يحاولون بها إحياء حياتهم الميتة. يقرؤون كتابين ويتقيؤونهما في وجه أي شخص يدخلون معه في نقاش. دائرة من الجهل خلفها الفراغ الكبير الذي يعيشونه.

- أنا لا أفهم كيف لشاب في مثل ثوريتك وحماسك ألّا يطيق الأحزاب أو حتى الجلوس مع هؤلاء الشباب الثوري؟!

وقدرتُ تمسكها برأيها فيهم.. كنت أعرف أن اهتزازهم في عينيها ما هو إلا اهتزاز ذاتها المؤمنة بوجودهم حولها، كل منهم يعلم جيدًا أن فكاكه عن الآخرين يعني ضياع مأمن الثقة في نفسه وفي المجموع من بعده.

كانت «ليلى» تعيش وحدها في شقة جدتها بمصر الجديدة. الأب في الكويت منذ عشرين عامًا والأم انفصلت وابنتها طفلة، وتزوجت وتعيش مع زوجها في كندا. عادت «ليلى» من الكويت قبل الالتحاق بالجامعة وعاشت مع جدتها التي تُوفيت في نهاية الفصل الدراسي الأول من السنة الجامعية الأولى للحفيدة. أي أن «ليلى» تقريبًا تعيش وحدها منذ أن عادت إلى مصر. تقول إن أباها يلح عليها في العودة للكويت وهي ترفض لأنها تحب مصر ولأنها ليس لديها استعداد لأن تضيع عشرين سنة من عمرها لهثًا وراء المال.

- لكنه والدك ويعيش وحده هناك!

- إذا أرادني فليعُد هو. الأصل أن يعود هو لا أن أسافر إليه.

- ولماذا لا يعود؟

- يقول مبررات كثيرة لا أصدقها، كما لا يصدقها هو أيضًا.

بحثت في ملف أسماء الهاتف عن اسم «محمد شوقي». هو جار «طه» الوحيد الذي يمتلك هاتفًا محمولًا. أظن أنه شقيق «ضي» التي انتحرت. كانت الساعة تقترب من التاسعة مساءً. لم يرد على اتصالي، عاودت في العاشرة والحادية عشرة ولم يأتِ رد. ضاعت فرصة الوظيفة. هذا قدره. لا، أنت من صنعت هذا القدر. الفرصة كانت متاحة منذ فترة. إلى متى ستظل تعامل الناس كإله تقرر لهم ما تراه لعنة عليهم؟ هل أنا إله ولعنة في الوقت

نفسه؟!

ظللت ساهرًا مع «قسمت» والماضي الذي لم تلحق «ليلى» أن تعيده كاملًا. حاولت الانشغال بكتاب فاختارت يدي «الغريب» لـ«ألبير كامو». بقدر امتلاء هذه القصة بالألم احتفى بها العالم. لماذا يحتفي الناس بالألم؟ يصفقون له ويمنحونه الجوائز ولا يفكر أحدهم أبدًا في طريقة للتخلص منه.

«توفيت أمي اليوم، أو ربما بالأمس، لا أدري. فقد تسلّمت البرقية التالية من الوطن: توفيت الوالدة. الجنازة غدًا. المخلص لكم...». هل كان «ألبير كامو» يشاطرني السكن ببيت المنارة ليفتتح روايته بتلك الحالة الفريدة من البلادة والألم؟

أطلق القاضي حكم الإعدام على «ميرسو»، بطل «الغريب»، في الثانية صباحًا، وفي الثانية والنصف دق هاتفي، جاء صوت غليظ من الطرف الآخر:

– هل تعرف صاحب هذا الرقم؟

– لا. أقصد نعم. هل تقصد «محمد شوقي»؟

رد بصوت حيادي:

– جثته في مشرحة زينهم. إن كنت من أهله فتعالَ لتسلُّمها.

أغلق الخط، وقلت لنفسي:

– كأن بشاعة النهايات قدر هؤلاء الناس.

(9) «طه».. روتينية الموت

كفَّ الناس ألسنتهم عن «ضي»، وظل الحزن والشتات عالقين بأسرتها. لم تقدر «كفاية» على العيش في عشة تضيق برائحة تفحُّم ابنتها، تركت جبل العرب لتستقر بجذورها في الدرب الأصفر، وصار زوجها يقضي نهاره في الشوارع والمقاهي، يشرب أردأ الخمور ولا يكلِّم أحدًا أبدًا، ويبيت ليله في مسجد الجبل بعد أن سمح له الشيخ «أبو ريشة».

وانشقت الأرض وبلعت «محمد» منذ ليلة العزاء المشؤوم، وعندما ظهر، ظهر كجثة مشوهة.

تعامل الجميع بروتينية مع خبر موت «محمد». اعتبروا موته الغامض نهاية طبيعية لحياته المريبة، بل إن وجود «علي رشدي» بعد الفجر بجبل العرب ليبلغنا بخبر موت «محمد» أدهشني أكثر من موت «محمد».

ربت على كتفي وسحب يدي لنبتعد عن الجمع المحتشد أمام مسجد الجبل:

– تعالَ معي إلى المعادي.

– ماذا سنفعل؟

– هناك فرصة عمل لك بشركة هندسية، وآخر موعد للتقديم اليوم.

– لا يصح أن أترك الجبل في هذه الظروف.

– فرصة قبولك مضمونة.. «ليلى» قالت هذا.

– «ليلى»؟! تقصد «ليلى عبد التواب»؟!

– أرجوك. لن تخسر شيئًا.

في المشرحة، تنتظر جثة «محمد شوقي» محروقة الوجه ومقطوعة الرجلين واليدين. و«شوقي» لم يبت تلك الليلة في المسجد ولا أحد يعرف له طريقًا ليبلغه الخبر. و«كفاية» ضحكت لما أبلغوها الخبر وقال الناس إنها جُنَّت، و«علي رشدي» يدعوني لعمل وفرته «ليلى عبد التواب» التي هي في نظره فتاة داعرة، و«قسمت» بعيدة بعد أن أبعدها «علي رشدي» عنا. ولو لم تكُن بعيدة، فما الذي كانت ستفعله ابنة الزمالك وسط الوحل الذي أنا فيه؟

وعرفنا أن جثة «محمد» عُثر عليها بطريق سور مجرى العيون ملقاة في صندوق قمامة وبملابسها عُثر على بطاقة «محمد» الشخصية.

وتبادل الناس الكلام:

– النيابة تحقق.

– سيستدعون كل معارفه.

– وهل هو مهم لهذه الدرجة؟!

- إنه مواطن. نحن لسنا في غابة.

- بل في غابة. انظر حولك. جميعنا حيوانات.

وتردد اسم «شماتة» كثيرًا. اتهمه البعض بقتل «محمد» أو على الأقل له علاقة بشكل أو بآخر، خاصة أن «شماتة» اختفى تمامًا منذ موت «محمد».

كان «شماتة» عاملًا في مقهى «سبع الناصح» بمنشأة ناصر. يستيقظ مبكرًا، يمسح المكان وينظفه، يعد طلبات الزبائن ويقدمها، ويبتاع ما تحتاج زوجة معلمه، ثم يبيت آخر الليل بالمقهى. كان يعمل بجد ولكنه يداوم التذمر من معاملة معلمه له. وللحق كان «سبع» رجلًا غليظ الأخلاق يضرب صبيه بسبب ومن دون، وربما كان السبب يكمن في كون «شماتة» بلا أهل يردون الرجل عمًّا يفعله.

عصر يوم ما، ذهب «شماتة» ليبتاع ما تحتاجه زوجة معلمه. تأخر في جلب طلباتها. غضب «سبع» وتعامل مع الأمر باعتباره تقصيرًا ولم يدرِ أحدٌ كيف تطور الأمر لأن أمسك الرجل ببراد المياه المغلية من فوق الموقد ليلقيه في وجه «شماتة».

صار بعين واحدة بعدما أتلفت المياه المغلية عينه اليسرى، كما تشوَّه نصف وجهه. كان وقتها لم يتم الثامنة عشرة. ليصبح في سن العشرين أحد أسطوات نابشي القبور. فبعد أن ترك المقهى تعرف على «مسعد كاشر».

و«كاشر» هو صبي «سيد أبو صنتة»، أكبر تاجر جثامين في مصر القديمة كلها.

جر «شماتة» صديقه «محمد شوقي» في طريق نبش القبور، فكان «محمد» يذهب لنبش الزبالة وفرزها نهارًا ويتخصص في نبش القبور ليلاً.

كان تخصصهم في مقابر الصدقة، ينتظرون حتى دفن الميت ثم يعيدون فتح المدفن ويأخذون ما يمكن أخذه من الجثث الطازجة، أما الهياكل العظمية فكانت تجارتها الأكثر رواجًا وربحًا، فتباع الجماجم إلى تجار المخدرات ليطحنوا أجزاء معينة تصير مخدرًا باهظ الثمن.

انخرط «شماتة» في تجارة ما بعد الموت حتى صار معلمًا يُحسب له الحساب بين الأحياء والأموات، وكان «محمد» تلميذه النجيب.

وحدث أن عُثر على جثة «سبع الناصح» في صحراء الدويقة مفقوءة العينين ولم يكُن صعبًا أن يفهم الناس ما جرى على أنه انتقام الصبي من معلمه. لكن لم تُثبت التحقيقات ارتكابه الحادث. «كانت جريمة كاملة».. هكذا قال الناس، أو ربما لم تجرِ تحقيقات جدية في الموضوع، على أي حال استراح الناس من «سبع» وقرفه.

وبلا سبب ملموس أو روحاني، قرر «شماتة» أن يترك كاره الذي أتقنه لسنوات. اختار أن يعمل تُربيًّا وأحيانًا كثيرة يقوم بدفن الناس في المقابر التي لم يعُد لها أهل أو كان أهلها مقلين في زيارة موتاهم نظير أجر

يعتبره قليلاً؛ فهو يقدم بذلك خدمة للحياة والموت معًا. أما «محمد» فبقي في كار نبش القبور يدر عليه مالاً وفيرًا يذهب كله لشراء المخدرات التي يتعاطاها.

وقبل معرفة خبر وفاته بيومين، ظهر «محمد» بعد اختفاء طويل برفقة «شماتة» قرب المدفن الذي يواري جثة «ضي»، كانا يتشاجران وكلاهما يستحلف للآخر، ولا أحد عرف لماذا بدأت المشاجرة ولا كيف انتهت!

الفصل الثالث

(1) «علي».. ما نحن سوى ماضي آبائنا

كان حر أغسطس يخنق العباسية. الشوارع تلفظ أي نسمة شاردة، والرطوبة تأكل البيوت، والناس سائرون بلا هدف، وبيت المنارة راقدًا في مكانه.

طرقت باب غرفتي. واربت الباب ماسكة بمقبضه، قالت ببساطة عجيبة:

– عقد قراني الخميس المقبل، سيكون جيدًا لو حضرت.

أغلقت الباب. سمعت صوت خطواتها واثقة وعائدة إلى غرفتها، هكذا ببساطة!!

خطواتها دومًا محسوبة بدقة. تفهم كيف تُدمر من حولها باحترافية دون أي نسبة للخطأ. كان بإمكانها الزواج بعد وفاة رشدي رؤوف. كان بإمكانها الزواج بعدما تركت لها البيت قبل عامين. لكنها رفضت أن تمرر الأمور بلا فضيحة أو مزيد من الألم.

بعد وفاة أبي، تركت بيت المنارة بلا أي ندم، أو تفكير في العودة. استقررت في شقة صغيرة بمدينة نصر. في البدء ادعت هي أن الأمر في

صالحها بالتخلص من سلالة رشدي رؤوف للأبد لكنها غيرت رأيها فجأة.

ذهبت بكامل أناقتها إلى كليتي. طلبت لقاء الدكتور فتحي شاكر، كان رئيس قسمي قبل أن يصير عميدًا للكلية، ساعة كاملة مكثتها في مكتبه، تحكي عن تلميذه المشاغب وابنها العاق الذي قرر تركها تعيش وحدها في أواخر أيامها.

عاشت دور المسنة، التي تشق عقدها الستين مع معاناة تنكّر ابنها الوحيد لها بعد فجيعة وفاة زوجها. أعجبها الدور، فتمادت بأن أغلقت بيت المنارة، وذهبت للعيش في دار للمسنين بمصر الجديدة. لم تترك أحدًا في دار المسنين إلا وحكت له عن ابنها الذي يسيء معاملتها ولا يتوانى عن شتمها، بل وضربها أحيانًا. كانت تتهمني بأشياء لم أفعلها أبدًا، أنا لم أفعل شيئًا معها سوى الصمت. قررت السكوت؛ لأن الكلام قد يقتل أحدنا أو كلينا. تمامًا كما فعل «رشدي رؤوف» طيلة حياته معها، حتى مات كمدًا.

عدت للبيت بعد أن استغل «فتحي شاكر» الموضوع في تصفية حسابات سياسية معي. قطع اجتماعًا مع طلاب أسرة «بداية»؛ ليلقي خطبة عن بر الوالدين اختتمها بسؤال: ماذا يفيد بر الوطن، والواحد عاقٌّ لأهله؟ وانتشرت في الجامعة حكاية المعيد، الذي يعقّ أمه بزيادة تفاصيل لم تحدث على الإطلاق في شكل «شماتة» ومواساة أيضًا.

لماذا يبقى الدولاب جانب الشرفة؟ قمت وحاولت أن أزحزحه؛ ليبقى على يمين باب الغرفة لا يسارها. غيرت مكان المنضدة ونقلت كثيرًا من الكتب من اليمين إلى الشمال، وفكرت أن أضع «الكومودينو» في الشرفة، لكني تراجعت عن الفكرة سريعًا. أغلقت مقبس النور وفتحته عدة مرات، ولم يعجبني مكان السرير، فأزحته قليلًا؛ ليلتصق بالجدار؛ لكن باب الغرفة لن ينفتح بهذا الشكل! ! أعدته مكانه، وجلست فوق السرير أفكر في طبيعة الرجل الذي قبل أن يُنهي حياته بالزواج من «بثينة عبد الكريم»، تأملت المزهرية التي فوق المنضدة، تبدو نشازًا هنا، قمت وسحبتها من مكانها ورميتها من الشرفة.

سحبت الهاتف من فوق رواية «الغريب» لألبير كامو. وددت الضغط على رقم «قسمت»؛ لكن الأمر آل إلى «ليلى».

- كنت سأتصل بك حالًا.. القلوب عند بعضها.

جاء صوت «ليلى» ضاحكًا وحانيًا عبر الهاتف.

- فاضية؟

- متى؟ وأين؟

- بعد نصف ساعة في «بريك».

- «بريك»! ! عمومًا أنا قريبة منه سأصل قبلك.

لا أحب «بريك». ملهى ليلي في شارع محمد فريد بوسط البلد، تداوم «ليلى» على ارتياده منذ أن كنا طلبة بالجامعة. أسعاره مناسبة وموقعه مناسب، هي تراه هكذا، وأنا أراه نموذجًا صارخًا لاصطناع الحرية، يجوز ذلك؛ لأن أغلب رواده شباب من محدثي الثقافة والسياسة، ومدعيها، والمغرورين بها. يتحدثون بصوت عالٍ عن «تولستوي»، و«فيكتور هوجو»، و«جيفارا»، «وماركس»، و«غاندي»، و«بوب ديلان»، وغيرهم، وهم يحتسون الخمور وينفثون التبغ، فيختلط التاريخ والأدب والفن والسياسة بدخان السكر. مساحته ضيقة، وتهويته رديئة، فتحسب أنه يُعتّق أنفاس زبائنه لا الخمر. فرقته الموسيقية مزعجة تتعمد تشويه أغانيَّ المفضلة، قائد الفرقة يعزف الجيتار، أو هكذا يبدو مقتنعًا، بل ويختار ألحانًا صعبة، وكأنه يتحدى الفشل، فيفشل عن اقتناع وصفاء نفس. هذا كله بخلاف القهوة، التي يقدمها بلا طعم أو رائحة.

حضرت «ليلى» قبلي. كانت ترتدي فستانًا قصيرًا من الجلد الأسود، ضيقًا، يبرز بأريحية وبشكل عادل كل قطعة في جسدها. تضع كثيرًا من مساحيق التجميل، خطت بالأسود أعلى الجفنين ونهته بما يشبه مثلثًا مشدود الأحرف على طريقة نساء الفراعنة، ولوّنت ثغرها بالأحمر الغامق، فمنحت شفتيها اكتنازًا مصطنعًا، وأكثرت من اللون الوردي على وجنتيها، فظهرت خجِلة، مع أن «ليلى» لا تخجل أبدًا.

على الرغم من صعوبة أن تعثر في «بريك» على زاوية تسمع فيها صوت الجالس جوارك وسط الضجيج، اختارت مكانًا سمح لنا بأن نتحدث دون أن نضطر للصراخ.

سألتني: لماذا اخترت مكانًا لا تحبه؛ لنلتقي فيه؟

– نوع من أنواع عقاب النفس.

– ما بك يا «علي»؟

– لا شيء.

– لا شيء!!

اقترب النادل. طلبت لها «بيرة» ولي القهوة.

– المكان صار ألطف. أظنك لم تدخله منذ آخر مرة لنا.

– نعم، هذه الأولى منذ آخر مرة، لكنه لم يكُن يومًا لطيفًا؛ ليصير ألطف.

غرقنا في صمت. هي تتابع الطاولات القريبة، بينما أتأمل شبابًا يرقصون على إيقاع أغنية شبابية تعزفها الفرقة الموسيقية بفشل مذهل. كان رقصًا بلا حركات منسجمة، أو جمالًا تخلقه الفوضى، كان مجرد تمرد من أجل التمرد لا أكثر. الأضواء الحمراء والخضراء التي تنعكس على أجسادهم المتمايلة بحركات غريبة جعلت منهم أشباحًا تثير الشفقة لا الرعب.

شقّت «ليلى» صمتنا، وقالت في وصف الشباب الراقص:

- رائعون.

احتسيت بعضًا من القهوة دون رد.

- كيف تقضي إجازة الصيف؟

- الإجازة قاربت على الانتهاء.

- إذًا، كيف قضيت إجازة الصيف؟

- تمام. عادي.

- و«طه»، ما أخباره؟

- بخير.

- أضعت عليه فرصة العمل بالشركة؟

ثم قالت:

- على أي حال الفرصة لا تزال موجودة.

- ما هذه الوظيفة الشاغرة للأبد؟!

نفثت بعض سيجارتها، ثم قالت:

- عادي. شركة كبيرة، وتحتاج إلى مهندسين باستمرار.

- شركة كبيرة!! أول مرة أسمع عنها كان منك أنتِ.

أعادت سؤالها الأول، ما بك يا «علي»؟

- ما بي؟!!

- عمومًا أنا سعيدة؛ لأنك اخترتني لأكون معك وقت ضيقك.

- ومن قال لك إنني في ضيق؟!

سكتت وأدارت رقبتها ناحية الفرقة الموسيقية، ثم عادت لي.

- لماذا لا تتزوج يا «علي»؟

أمعنت النظر في عينيها، متأكداً من أنني سألمح سخرية في سؤالها؛ لكني لم أجد أي سخرية.

- أنت لا تميل للعلاقات الطارئة، فلماذا لا تتزوج وتقيم علاقة دائمة؟

- الزواج له ناسه، وأنا لست منهم.

- لماذا؟ ثم ضحكت وهي تقول: هل المشكلة عضوية؟

- ولماذا أتزوج؟

- تزوج، كما يتزوج الناس. لتستقر. لتنشغل مثلًا بزوجة وأولاد، وتكف عن تأمل العالم الذي أتعبك.

- الناس يتزوجون بسبب اليأس والوهم والرغبة، وهذه أسباب غير كافية لي يا «ليلى».

- واضح أنك تزوجت النكد يا «علي».

لماذا لا أتزوج فعلًا؟ لماذا أضخّم المسألة؟ الناس يتزوجون كل يوم.

يجربون ويفشلون ويستمرون. لماذا لا أكون كبقية الناس؟ ما المشكلة في أن أضيف فشلًا جديدًا لحياتي، وأستمر فيه؟

قلت لها: ربما المشكلة في أنني لا أرى الزواج أكثر من كوب شاي به سم.

قالت بسخرية: الناس سينتهون على أي حال بالزواج أو الموت.

هربت من كلامها إلى الحمّام. انتظرت على رأس دهليز ضيق يؤدي إلى الحمّام، حتى انتهى شابان من قضاء حاجتهما، دخلت وأغلقت بابه. أجهشت بالبكاء. كتمت الصراخ. إن «بثينة عبد الكريم» ستتزوج. تكوّر جسدي أسفل حوض الوجه، كما كنت أفعل في طفولتي ومراهقتي.

يتردد صدى صوت «رشدي رؤوف»: ستطاردك العفاريت.. لا تبك في الحمّام.

استيقظ ذات ليلة ليقضي حاجته. ظل يدق باب الحمّام، وينادي «علي» بقلق. فتحت الباب، كان وجهي ينضح بالحمرة والبكاء. احتضنني وحذرني من العفاريت. بقيت فترة طويلة أتعمد البكاء في دورات المياه؛ كي تطاردني العفاريت بدلًا من الناس.

تمنيت أن أظل على جلستي تحت حوض حمام «بريك»، حتى تتزوج «بثينة عبد الكريم»، أو تموت، دقات مختلفة على الباب استعجلتني لغسل وجهي الدامع والخروج مسرعًا من المكان كله.

ولم أطق العودة لبيت المنارة. سرت بلا هدف من شارع «محمد فريد»، إلى «الموسكي»، ومنه إلى «العتبة»، ولم أعرف كيف وصلت إلى «العباسية». أخذتني قدماي إلى الشيخ «أسامة».

حجرة الشيخ ليست كبيرة، لكنها مريحة للنفس، جدرانها صفراء يتوسطها سرير يتسع لنوم فردين بلا ضيق، على اليمين أريكة توسَّدتها وسادة طويلة، عليها مفرش ذو ألوان عديدة، وعلى اليسار غطى البلاط حصيرة خضراء فوقها «طبلية». يضع الشيخ ملابسه في صندوق خشبي لصق السرير، وبجوار الباب رف خشبي على شكل مربع يحفظ فيه كتبًا للتفسير، وقصاصات ورق.

أعد الشيخ عشاءً ببراعة وخفة لم أرها في أبصر البصراء، أصر على أن آكل. أكلنا وصلى هو الفجر. تحدثنا عن أشياء لا تخص مشكلتي، ثم نام، وأغمضت عينيَّ على بيت المنارة.

* * *

بعد الظهر، اتصلت بـ«قسمت». تقابلنا في «الأندلس»، ثم مشينا إلى وسط البلد ومنها إلى «الدقي». كانت ودودة كعادتها. لم تسل عن تعاستي الظاهرة على ملامحي وكلامي، كما أنني قدرت لها جدًّا أنها لم تقترح عليّ مسألة الزواج، كما اقترحت «ليلى». اقترحت أن نزور خالتها «مهجة» في مكتبها لنُغير هواء العباسية ونناقشها في روايتها التي لم تكتمل بعد، والتي أعطتني «قسمت» نسخة منها.

من أي جذر في عائلتها ورثت هذا الود؟ هل سرطان السلطة لا يُحمل في الجينات الوراثية؟ لم يكن صعبًا أن تعود إنسانة كهذه للصداقة التي قطعتها. جاءتنا إلى «الأندلس»، وقالت إنها أحست بشيء كبير ينقصها وإنها لم تصادق أحدًا بصدق كما صادقتنا على الرغم من قصر مدة معرفتها بنا وإن العثور على إنسان جيد في هذا الزمن بات مسألة في غاية التعقيد. وقالت إنها افتقدت أحاديثنا وضحكنا واختلافاتنا أيضًا. والحقيقة أنها لم تكن في حاجة لقول ذلك كله؛ فما إن رأيتها تدخل «الأندلس» حتى انقشع عن قلبي كل الحقد ناحية عائلة «العباد»، وخيل لي أنني كائن مسالم لأبعد درجة، وأن الحياة لا تستحق كل هذا العناء. وتنحنح «طه» بعدما لمح في عينيّ الود،

ثم قال:

– طبعًا، نحن سعداء بعودتك. وافتقدناك أيضًا. وعلينا جميعًا أن ننسى.

أشارت إلى شارع صغير متفرع من شارع «التحرير» بـ«الدقي»

– هنا الجريدة التي تعمل بها «مهجة».

– نعم طبعًا. أعرفها. حضرت فيها ندوتين أو ثلاثًا.

احتسينا القهوة مع «مهجة». وتحدثنا في كل شيء عدا روايتها، وتأكدت أن «قسمت» ورثت الود عن خالتها، وربما أمها أيضًا.

وسألتها في طريق عودتنا: لماذا لم تحكِ لي عن أمك؟

- عادي. يعني. كانت ككل الأمهات. طيبة وجميلة. وكان أحلى ما فيها حبها الكبير لأبي.

- ليس شرطًا أن تكون كل الأمهات طيبات وجميلات.

- كل ابن يرى في أمه الطيبة والجمال مهما كانت شخصيتها مع باقي الناس.

- من قال هذا؟

- هذه بديهيات. وربما هناك استثناءات قليلة جدًا.

- ما دام هناك استثناء، فلا يوجد بديهية.

كان حوارًا بلا هدف. كنت ألف وأدور حول «بثينة عبد الكريم». حاولت أن تداري اندهاشها عندما قلت لها إن أمي ستتزوج.

- مؤكدٌ لديها أسبابها في هذا. وعليك أن ترضى بما ترتاح له والدتك.

- ولماذا عليّ أن أرضى؟

- لأنه ليس لك حق في ألا ترضى. هذه حياتها.

وطلبت أن تزور بيت المنارة وتتعرف على «بثينة عبد الكريم».

- لا تعرف كم وددت أن أدخل بيتكم.. ستحقق لي أمنية كبيرة فعلًا.

لماذا يريد الناس زيارة بيت المنارة؟ هل الناس ينجذبون إلى الغموض والأسى؟ هل يرغبون في الاطمئنان على الريحان الذي مات؟

(2) «طه».. ليلة سُرق فيها المسجد

كنت مشبعًا بخبر زواج والدة «علي». أخبرني بزواج أمه كأنه يعلمني بخبر شجب الجامعة العربية لمسألة تخص «فلسطين»، ثم قال بنفس الهدوء والحيادية إنه قرار الاستقالة من الجامعة.

آه.. تعالَ يا «يسري».. انظر ماذا يفعل أبناء العباسية عندما يغضبون قليلًا، إنهم يدمرون كل شيء.

قلت بحنق: أأنت مجنون؟

– وماذا يُضير الجنون في بلد مجنون؟!

وفي الجبل، تجمع الناس أمام المسجد في حلقات يأكلون بعضهم بالكلام كما الزومبي، كانت أصواتهم خفيضة، على الرغم من أن الجريمة كانت على قارعة الطريق.

هم عادة يجتمعون لصغائر الأمور وأتفهها، فما بالنا بهذه الكارثة.

تفاجأت بـ«زهرة» تنزوي قربهم بسوادها، متكئة على أحد عمودي واجهة المسجد. كان وجهها يغوص في حجرها، وكانت تسند رأسها بكفين مرتعشين. وخيل لي أنها تبكي، على الرغم من أنني لم أرَ من عينيها شيئًا.

وتطوع «عطية شفيق» للحكي، و«عطية» يعيش مع عائلته بالجبل، منذ أن ضرب الزلزال بيته بخان جعفر بالجمالية في أوائل التسعينات. مات له ابنان تحت الأنقاض. شكر الله على نجاة باقي أولاده. لملم ما عثر عليه بين رماد بيته؛ ليستقر معنا بالجبل، وبعد طول شدة، أكرمه الله ويستعد هذه الأيام للانتقال للعيش في الحلمية الجديدة بعدما فتح الله على ابنه «طاهر»، وعمل مدرسًا في «عمان» قبل أربعة أعوام.

حكى «عطية» أن الشيخ «مصباح أبو ريشة» دخل المسجد في حدود الثامنة صباحًا، وفوجئ بأن المسجد قد سُرق. ولم أفهم.. يعني كيف لمسجد أن يُسرق؟

– ما الذي سُرق يعني يا «عم عطية»؟

– المراوح وصنابير الحمام، وأظن الميكروفون.

وربتت "الست" ذات السبعين عامًا بكفها المرتعش على كتفي، وقالت:

– خير إن شاء الله. «عبد ربه» طيب. وربنا سيزيح عنه.

وما لم يقله «عطية» أن الشيخ «أبو ريشة» إتصل بالشرطة، وحضرت قوة من قسم شرطة منشأة ناصر، وجرجروا «عبد ربه طه» بتهمة سرقة المسجد.

آه يا «يسري»، وآه يا «ضي»، أنا فعلًا أحسدكما على أنكما بعيدان

الآن. إن الموت راحة كبيرة من هذا الجنون.

يبدو «علي» محقًا فعلًا، ماذا يضير الجنون في بلد مجنون؟ لماذا يسرق «عبد ربه»؟ هل استيقظ فجأة، وقرر أن يذهب للنعيم الذي لم يذقه منذ ولادته بأن يسرق مراوح وصنابير؟! ولا شيء جد على بؤسنا، ليقرر السرقة؟ لا زواج يريد أن يتمه لابنته، كما نسمع في الحكايات أو يطارده دَين مثلما تنشر الصحف كل يوم!!

استقرت «زُهرة» في جلستها الباكية كأنها ستحجزها لنفسها باقي العمر، والناس من حولها منقسمون. واحد يتذكر محاميًا وصفه بالـ«عُقر»، وآخر يتأسف على أحوال الدنيا، وتوقع أحدهم عقوبة لن تقل عن ثلاث سنوات على «عبد ربه»، وانغمس آخرون في إضافة تفاصيل جديدة لما جرى بطريقة المكتشفين لقانون جاذبية السرقة.

– حتى المصاحف لم تسلم من السرقة.

– والمواسير الجديدة أيضًا.

– طول عمر المواسير صدئة. اتقوا الله.

– ألم يخف الله؟

– ومن عاد يخاف الله في هذا البلد؟

كيف يتحول الناس من النقيض إلى النقيض بلا شرط أو وخزة ضمير، أو حتى مكسب يذكر؟ لم يترك «عبد ربه» عائلته في الجبل بلا معروف أو

وصل ود. لم يعهدوا عليه سوى عفاف اليد واللسان.

وتملص أحدهم من كيل الاتهامات:

- لكن، لم ير أحدنا السارق.

- «مصباح أبو ريشة» أدلى بشهادته في محضر التحقيق، اعترف على «عبد ربه».

«مصباح أبو ريشة»!! «مصباح»!! الشيخ الذي يسرق كلام الله ويدسه في عبّه، ثم يخرجه وفق تعليمات من عينوه ممثلًا لدينهم!! أي مهزلة تلك التي تجعل من «مصباح» شيخًا، ومن «عبد ربه» لصًّا؟!

ونحن لا نعرف لـ«مصباح» لقبًا غير «أبو ريشة». وفي سر اللقب ينقسم الناس، منهم من يرجعه لخفة لسانه في الإطراء على السلطة في خطبه الدينية وضلاعته في تحويل كل الحق إلى ضلال، ويقول آخرون إنه كان يعمل في شبابه حمّالًا في محطة مصر، ولقب بـ«أبي ريشة»؛ لأنه كان خفيف المشية يتحمل أوزان الحقائب مهما بلغ ثقلها، على الرغم من العرج الذي يعطب ساقه، وكان هذا قبل أن يلتحق بمعهد إعداد الدعاة، ويصبح إمام مسجدنا وهناك من يؤكد أن قدمي الرجل لم تطآ معهدًا للدعاة أو الطهاة. ولا تخيب الترجيحات أنه غير معين في الأوقاف أصلًا، وأنه يخطب بنظام مؤقت فيأخذ على كل خطبة عشرة جنيهات، وأن لقبه أخذه من فضيحة قديمة ارتكبها في شبابه.

قاطعت «زُهرة» نيران أفكاري، قالت بصوت مبهوت من خنق الدموع:

– لنذهب لأبيك.

وفي قسم الشرطة، قيل لنا انتظرا؛ فانتظرنا. وهناك كان الصمت سيد الألسنة والدموع عبيد محبوسة تحت الجفون.

انتظارنا طال أكثر من ثلاث ساعات. خرجت قوة مع ضابط الشرطة في مأمورية. وبقي أمين شرطة واحد في القسم، غارقًا في جرائم الناس. كان أمين الشرطة يرتدي نظارة شمسية وهو جالس على مكتبه الذي لا تطوله الشمس وكان يمسح على شاربه الرفيع ببطء كل فينة، وكان يصرخ في الناس بلا سبب وهو يمرر كفه على بطنه المكدس بالشحوم. كان القسم مليئًا بالهموم، مواطن بائس نشل عشرين جنيهًا من جيب مواطن آخر أكثر بؤسًا. سيدة تشتكي رجلًا قالت إنه تحرش بها في أوتوبيس نقل عام، وعندما طلب منها أمين الشرطة أن تشرح طبيعة التحرش، الذي جرى بشكل دقيق، خجلت ورفضت، فاتهمها أمين الشرطة بالعهر ورفض كتابة محضر بالواقعة. سيدة متورمة العينين تريد أن تحرر محضرًا لزوجها الذي ضربها، ورجل قتل أبناءه الثلاثة، وبدا مبتسمًا لنا ولجريمته، كما كان هناك الكثير من البلطجية إلا أنهم غير متهمين بأي جرم.

كانت «زُهرة» تلتحف بزاوية قريبة من أمين الشرطة، وتتابع الناس

بعينين باهتتين ودموع صامتة ونفس مكتوم، وكان الناس لا يشاركونها حزنها أو حتى يلحظون وجودها.

جاءنا الحاج «صادق» بمشاعر صادقة في الحزن على «عبد ربه». طرح اسم محامٍ، قال إنه يفهم جيدًا في هذا النوع من القضايا. تركنا «زُهرة» تنتظر رؤية «عبد ربه»، التي لم تحدث، ورحت مع الحاج للمحامي.

* * *

لفَّت «زُهرة» جسدها بوضعية الجنين وساعدها في هذا نحالة جسدها. التحفت بغطاء ثقيل على الرغم من حر أغسطس. لم تنطق بكلمة واحدة منذ أن كنا في القسم.

ولمَّا أفقت من غفوة سريعة، كانت الساعة في حدود الثالثة صباحًا، ولم أجد «زُهرة» في العشة.

وبينما كنت أُقلب قلقي أمام العشة سمعت حركة خفيفة في عشة «شوقي» و«كفاية» المهجورة. طرقت بابها. لم يأت رد. ناديت على «شوقي»، ثم «كفاية»، ثم «محمد»، بالنتيجة نفسها، وفكرت أن أنادي على «ضي»، ربما هبطت من السماء؛ لتفتش في كتبها عن رسائلها القديمة، هي تريد أن تمزق الرسائل الآن. إن الرجل الذي أحبته نسيها تمامًا بعد أشهر قليلة من انتحارها، ولكن كما ترين يا «ضي».. الحياة لا تعطني فرصة لمواساة الموت.

عدت إلى انتظاري، وبعد دقائق فُتح باب العشة ببطء ليخرج جسد ضخم لم أستبين ملامح جسده في الظلام. اقتربت منه..

* * *

لا أتذكر شيئًا مما حدث. أفقت على يد «زُهرة»، وهي تضع ضمادة ثقيلة من القماش على جبهتي ووجوه كثيرة تحملق إليَّ، متمنية الشفاء مع دعاء على «ابن الحرام» الذي ضربني.

- مَن ابن الحرام الذي ضربك؟

- هل وجهه مألوف في المنطقة؟

- كيف ضربك؟ هل كانت مشاجرة؟

- لِمَ لم تُوقظ أحدنا؟

قالت «زُهرة» إنها راحت لدورة المياه، ولمَّا عادت وجدتني في إغماء. لم تفلح ضمادتها في وقف نزيف جرح غائر في جبهتي. وأشار الجيران بالذهاب إلى مستوصف منشأة ناصر. وتوفيرًا للوقت رحت إلى المستوصف، وراحت أمي إلى قسم الشرطة.

* * *

ذهبت إلى قسم الشرطة ملفوف الجبهة بدائرة من الشاش مبطنة بالقطن. قال الطبيب إن الجرح غائر، وإنه سيحتاج وقتًا ليلتئم، وربما يترك أثرًا بسيطًا.

كانت «زُهرة» وبجوارها «عبد ربه» واقفين أمام القسم في حرية تامة.

ولم أفهم لماذا اتهموا «عبد ربه» بالسرقة، ثم لماذا أسقطوا عنه التهمة؟

قلت مخففاً عنه:

– ربما استكثروا عليك لقب سارق، وهو الذي يُمنح لأعلى الدرجات الوظيفية هذه الأيام.

وسألني عن إصابتي، فطمأنته ودعا لي بالخير والصحة وراحة البال.

استمرت «زُهرة» سابحة في صمتها وحزنها طيلة الطريق إلى الجبل، حتى لم تسألني عما قاله الطبيب.

وأمام المسجد تجمّع الناس مرة أخرى. يهنئون أبي بالبراءة.

– لم نشك لحظة في براءتك؟

– حمدًا لله على سلامتك يا «أبا يسري».

– جزى الله أولاد الحرام.

– مؤكد «شوقي» ابن الحرام هو الذي سرق. هو يبيت في المسجد كل يوم. مؤكد هو الذي فعلها.

وقال «أبو ريشة»، وهو يصعد سلالم المسجد دون أن يلقي سلامًا.

– ليست براءة. إخلاء سبيل فقط على ذمة التحقيقات.

– أي تحقيقات يا شيخ.. هو لم يُعرض على النيابة أصلًا؟! وربما لم يكُن هناك محضر من الأساس.

صعد السلالم، ثم أغلق وراءه باب المسجد.

قال «عطية شفيق»: كما لو كان جامع أمه.

وانفض الناس بعدما قال كل منهم ما فيه النصيب بحق الشيخ و«عبد ربه» و«شوقي»، الذي صار في نظرهم هو السارق.

وأخيرًا، أفرجت «زُهرة» عن كلام.

– لم تتناولا طعامًا منذ أمس.

لم تضع لقمة في فمها. بدا أبي مرتبكًا إزاء صمتها. قال بمرارة المضطر لإثبات براءته أمام زوجه.

– رويت لأمين الشرطة كيف فتحت المسجد قبل صلاة الفجر، وكان «شوقي» غير موجود، وكان كل شيء في مكانه. ولم يأت «أبو ريشة» للصلاة، فأذّنت وأقمت الصلاة وانتظرت حوالي ساعة في المسجد، ثم أغلقته، وذهبت إلى السيدة عائشة، وعندما عدت وجدت «أبو ريشة»، ومعه كثير من أهل الجبل متجمعين داخل المسجد. كانت هناك نافذة مهشمة الزجاج في دورة المياه. مؤكد أن الحرامي دخل، ثم خرج منها.

تقريبًا لم يشفع لعبد ربه ما قاله. حمدت «زُهرة» الله على طعام لم تذقه، ثم قالت بفتور:

– حمدًا لله على سلامتك يا «أبا يسري».

(3) «قسمت».. أرشفة الألم

كان بإمكان «طه» ألا يحكي بضمانة أن أحدًا لن يحكي، كان كلامه ينضح ألمًا، لكن صوته لم يكُن متألمًا أبدًا، أذهلني إيمانه بوالده وببراءته، وآلمني عدم إيماني ببراءة أبي وتأثري بكلام «عمرو»، و«أحمد» عن تورطه في غرق السفينة والناس.

مد بصره إلى لوحة الحذاء والكلب، وقال:

– أتدرين يا «قسمت»، كان بودّي أن أكون من أولئك السارحين في ملكوت الألم، الذين يصرخون بألمهم إلى آخر قطرة وجع، الذين يطلقون قرارات متسرعة بلا حساب لمستقبلها. لقد باتت لديَّ مقدرة على أرشفة الألم في حينه، والتعامل معه باعتباره ماضيًا لا أكثر.

– هذا دليل على قوتك.

– لا قوة ولا يحزنون. الفقر يا «قسمت» يجعلنا واقعيين جدًّا، وتعيسين جدًّا، وصامتين للأبد.

– صدقني، هناك أغنياء تعيسون جدًّا. ومكمن تعاستهم أنهم يجهلون أنهم تعساء أصلًا.

– يجهلون! ! أرجوكِ، لا تتحدثي عن الجهل. أتعرفين ما الذي

يصبّر الفقراء على فقرهم؟ الجهل وحده يا «قسمت». نحن نجهل الحياة، لا نعرف غير الشقاء.

بدت بشرته الخمرية شمسًا ملتهبة تضيء مقهى الأندلس، وكانت عيناه الخضراوان تضفيان شيئًا جميلًا على هذه الشمس، على الرغم من الحزن الذي يقطر منهما. وعجبت من الحزن الذي يزيد من الوسامة. وأحسست أنني أرى «طه» لأول مرة، وأتعرف على ملامحه وقلبه من جديد، وأحسست بارتياح لهذا، ارتياح شديد. ولأول مرة أتعجب من مصادقة «علي» و«طه». إنهما مختلفان تمامًا. «علي» غارق في الانفعال و«طه» يمارس الحياد ببراعة. كيف استمرت صداقتهما طيلة عشر سنوات بهذا الهدوء؟ ومن أي قناعة يأتي «طه» بهذا الثبات مع كل هذا الألم؟

قلت:

– عمومًا، التعاسة في مصر باتت مناخًا عامًا يجب قياسه في النشرات الجوية كل مساء.

– لولا الفقر ما اتهم أبي بهذه التهمة.

– إنه الظلم لا الفقر، ويد الظلم طائشة تمتد إلى كل الناس دون تمييز.

سكت قليلًا، ثم قال:

– نفس كلام «علي رشدي».

- ليس كلامًا. إنه الواقع.

وسألته عن أحوال «علي رشدي» الغائب منذ أيام.

- سارح في ملكوت الألم، يأخذ قرارات متسرعة بلا حساب لمستقبلها.

وقلت بلا مناسبة:

- عمومًا، أنا أفضل الحياد والثبات على الانفعال.

* * *

أبريل 1988م

فك العسكري الكلابشات عن «يحيى»، وتركنا وحدنا في حجرة المأمور، وقال إنه سيعود بعد عشر دقائق.

قال «يحيى»: آسف على وضعك في هذا الموقف.

- حقًّا!! وما الذي استفدته بهذه المشاعر الملائكية؟

عرفت من مأمور قسم شرطة الهرم أن مشاجرة وقعت في شارع الطالبية بين عائلتين بسبب خلاف على قطعة أرض في منطقة المريوطية، وكعادته تدخل «يحيى» مأجورًا للدفاع عن أحد الطرفين. أصاب واحدًا بجرح غائر في الرأس تكلف عشر غرز وكسرًا في ضلعين وساق. حُرر محضر بالواقعة، وشهد شهود من عائلة الضحية ضد «يحيى».

- لم أقصد إيذاءه؛ لكنه استفزني.

- استفزك!! هل يعقل أن نقتل الناس؛ لأنهم استفزونا؟

وكأنه يزيل عن نفسه التهمة، قال:

- لم أقتله، فقط علّمته الأدب.

- الأدب.. أي أدب في هذه القصة!! ومن أي داهية أتتك الثقة في أن إصابة الرجل منحته أدبًا؟ هل يُمنح الأدب بغرز في الرأس؟ هل سيخرج الرجل من المستشفى؛ ليوقع على شهادة تقدير لمجهوداتك في تعليمه الأدب؟! أنت تسعى جاهدًا لفراقنا يا «يحيى».

ببرود وثقة، قال:

- أنا واثق من كوني علمته الأدب.

وسكتنا، تراجعت خطوتين لأجلس على أريكة تتوسط الحجرة تعلوها صورة للرئيس غير تلك التي تعلو مكتب المأمور.

تراجع ليجلس جانبي. أمسك كفي بين كفيه، كانت رائحته مزيجًا من الدم والعرق والحب، وقال:

- أقسم لك أنني لم أتقاض مليمًا عن هذه المشاجرة. تدخلت بدافع الشهامة لا أكثر. أنا لم أخلف وعدي لك.. أنا صادق وأحبك.

بت أمام خيارين، إما الإيمان بأن «يحيى» مواطن مناسب تمامًا لهذا البلد، أو أن أنسحب من حياته.

لو كانت الحياة بها قدر قليل من العدل، لرجحت عائلتي كفة «يحيى» على كفة زوج أختي الضابط الكبير في أمن الدولة. كان ارتباط أختي بلا حب. قالت إن الحب جاء على مهله بعد الزواج حتى صار عشقاً. كانت العائلة سعيدة بسلطته، وينبهرون بقصص بطولته في حماية الوطن، على الرغم من صرامته التي يغلب عليها القسوة وتحكماته التي لا تقبل نقاشًا حتى على كبار العائلة بمن فيهم جدتي لأبي. وهو أيضًا من أتى بتاريخ «يحيى» كاملاً أمام عائلتي حتى خُيل لي أنه عرف سر غياب والد «يحيى» في العراق.

دون كل اعتراضات العائلة على ارتباطي بـ«يحيى»، كان حديثه مليئًا بعفونة تفوح من وظيفته الأمنية.

– هل يكون نسيبي بلطجيًا؟ وماذا عليّ أن أفعل إذا صادفته في خناقة؟ أخذه بالحضن، أم أقبض عليه؟ هذه فضيحة لي لن أقبل بها مهما جرى. هذه فضيحة للوطن نفسه كيف يصاهر حماة الوطن جرابيع الوطن المجرمين؟ بشرفي لو لم تنته هذه المهزلة الآن، فسألقيه وراء الشمس بلا رجعة.

وكان حامي الوطن الخائف من جرابيع الوطن آنذاك يتباهى في جلساته معنا ببدء تجارته الخاصة في مزارع للدجاج تحقن بمواد لتسريع النمو ثبت أنها تصيب بالسرطان. كان ينبه علينا ألا نشتريها حماية

لصحتنا.

- وباقي الناس؟

يقهقه، فيهتز كرشه- إنهم يأكلون الزلط من دون شكوى.

حُكم على «يحيى» بالسجن بثلاثة أعوام بتهمة إحداث عاهة مستديمة بالرجل الذي استفزه.

في أولى زيارتي له بالسجن، قال إنه لم يتوقع مجيئي، واعتذر عما فعله، بل واعتذر عن وجوده في حياتي.

- لا بأس. المهم كيف حالك هنا؟

قال إن الوضع مريح.

- حبسوني في عنبر كله شيوخ طيبون.

ثم قال مبتسمًا:

تصوري يوقظونني في عز الليل للصلاة. طيبين.

- أحضرت لك بامية ومحشي وبطة وفاكهة وعصائر.

- أتعبت نفسك.

- أقول لك حتى تطلبهم كاملين، ولا يسرق العساكر منهم شيئًا.

- تتحدثين كمحترفة سجون.

- تنسى دائمًا أنني محررة بقسم الحوادث.

– أريد أن أنسى لا أكثر.. عمومًا حتى لو سرقوا الأكل، لا حيلة بيدي.

– إذا حدث قل لي، وسأبلغ مأمور السجن.

ترك أمر الطعام، قائلًا: هل ستأتين المرة المقبلة؟

في الزيارة التالية، نبت ذقن «يحيى» وصارت لحية كاملة بعد شهرين.

وتابعت تدريجيًا كيف يتحول الإنسان من النقيض للنقيض؟

– هل ستصبح شيخًا؟

– لست شيخًا، ولن أكون. الناس طيبون، يُفهمونني أمور الدين بسماحة وطيب خلق. هل يضرك فهم أمور ديني؟!

– لكني أخاف عليك من الغلو.

– الخوف يصير مع التهاون لا الغلو.

ودون مراجعته، سألت مأمور السجن نقل «يحيى» من عنبره.

قال بانفعال شديد في الزيارة التالية: لا أصدق ما تفعلينه. تتعاملين كما لو أنني طفل تبعدينه عن أطفال أشرار.

– هذا لمصلحتك. ستحسب عليهم حتى ولو لم تنجر لأفعالهم.

– تتحدثين كما لو كانوا خطرًا.

– لماذا هم سجناء إذًا؟

– لأن النظام يخاف منهم. ألا ترين شعبيتهم؟!

– شعبيتهم!! إنهم قتلة يا حبيبي.

لم يكن نقل «يحيى» وسيلة لإبعاده عنهم بقدر ما زاد من استمراره معهم. وللحق هو راجح العقل. ينفر تلقائيًا مما يحسه تشددًا زائدًا، يضير النفس لا يطهرها، وينجذب لما يزيل ما علق بماضيه. وعلى هذا صنع «يحيى» توليفة البلطجي المتدين بعد توليفة البلطجي المفكر.

وخرج من السجن بهيبة زائدة، فالحبس في عالم البلطجة يزيد من وزن الناس لا ينقص منهم.

– نتزوج؟!

– الوقت غير مناسب. ننتظر حتى تجد عملاً.

لم يترك «يحيى» البلطجة؛ لكنه صار كما قلت بلطجي متدين. كف عن زيارة الكباريهات وصارت علاقته سطحية بأصحاب التاريخ الأسود في المخدرات والدعارة ما ضيق من أعماله؛ لكنه اكتسب ثقة فئات جديدة.

– الشيخ «سيد حفني» أرسل لي أمس أحد تابعيه. يريدني حارسًا خاصًا له.

كان الشيخ «سيد حفني» نجمًا دينيًا ساطعًا، له آلاف المريدين في مصر

كلها، خاصة إمبابة التي يسكنها، وعشرات الكتب وشرائط الكاسيت، وعلى قدر حب جمهوره له كانت حوله دائرة حمراء كبيرة لدى الجهات الأمنية بحكم أن بعض مريديه متورطون في العنف الحاصل في البلد.

– لا أصدق ما يحدث.

– ما المشكلة؟! الرجل سمع عني خيرًا، فأرادني للعمل عنده.

– وهل سأقدمك لأهلي باعتبارك حارس «الشيخ حفني»، أم بلطجي الهرم الشهير؟ أنا لا أقبل بهذا حتى يقبل به أهلي.

– سأتقدم باعتباري حبيبك.

وزارنا بالبيت..

قال عمي: أفكرت جيدًا قبل مجيئك؟

– في الحقيقة. لا. لو كنت فكرت ما تقدمت؛ لكني أحب ابنتكم وهي تحبني.

– حسنًا سأعتبرك لم تأت أصلًا؛ لأن مجيئك هنا إهانة لنا وشرف لك لا تستحقه.

ظل «يحيى» عامين يحاول إقناع أهلي ولمَّا فشل، قررنا الزواج دون موافقتهم. انتظرني في الإسكندرية لنتزوج ونقضي شهر العسل هناك، لم أذهب في اليوم المحدد للسفر، رحت محطة القطار وعدت مرة أخرى، ظللت مترددة أسبوعًا، ثم سافرت وتزوجنا.

(4) «علي».. فن أن تكون وقحًا

قبل الزفاف بأيام، علقت مصابيح وزينة على واجهة البيت، كما لو كانت صبية تزف بكارتها. عزمت كثيرًا من معارفها، كانت تنذرهم بدعابة إذا لم يلبوا الدعوة. وعرفت بالمصادفة أنها ستتزوج من رجل في الستين كان زميلًا لها بالعمل القديم، وأحيل للمعاش تقريبًا في نفس عام إحالتها للمعاش. وعرفت بالمصادفة أيضًا أنها ستعيش مع زوج المعاش في بيت المنارة.

إتخذتُ قرار الرحيل عن بيت المنارة للمرة الثانية، ولكن هذه المرة، ليس كالسابقة، بلا رجعة. وبدأت في البحث عن شقة صغيرة بإيجار مناسب، وفكرت أن أنتقل إلى أي «بنسيون» صبيحة يوم الزفاف إذا لم يتيسر أمر الشقة حتى هذا الموعد.

وجاءت هي بسيدتين لتنظيف البيت قبل الزفاف.

فتحت السيدتان غرفة أبي بناءً على تعليماتها. نقلوا مكتبته ودولاب ملابسه إلى البدروم ونزعوا صوره عن الحائط. كوّموها في ركن بالصالة لحين نقلها أيضًا إلى البدروم.

عدت من الجامعة، لأجد صور «رشدي رؤوف» ملقاة في الصالة وغرفته خالية من أثاثها وبها آخر جديد. كان عليّ أن أقتل هذه السيدة أو

آخذ نفسًا عميقًا وأرحل.

ولم تكن هي في البيت.

- ذهبت للحلواني للتأكيد على طلبات يوم الخميس.

قالت إحدى السيدتين، وهي تُمسك بكرسي ضخم، كانت تنقله من يمين الغرفة إلى يسارها.

حزمت حقيبتي. ووضعت ملابس أبي -التي كانت رمتها في البدروم- في حقيبة أخرى. رائحته عالقة بكل قطعة. هذا قميصه الذي ضاق عليه قبل وفاته بعامين. ألح «عليّ» أكثر من مرة أن أرتديه.

- خذه. قماشته مريحة. على الموضة. أنت لا تملك أي ذوق في اختيار الملابس يا «علي».

وهذا بنطاله الذي كان يفضله. به حرق غير ظاهر أسفل السوستة. حرقته وأنا أكويه قبل سنوات. لم يلمني. قال إنه المسؤول؛ لأنه استعجلني في الكي ليلحق بأصدقائه في «الأندلس».

عادت هي من مشاويرها ولحقتني إلى البدروم.

قالت باستفزاز:

- «علي».. لا تنس أن تعزم «طه»، آه و«الشيخ أسامة».

- اترك هذه الملابس ستتولى أمرها «أم محمد».

لم أرد، وأخذت نفسًا عميقًا. ومشيت.

لم تكن لديَّ وجهه محددة. وأخذتني قدماي كما العادة إلى «الشيخ أسامة».

* * *

سألتني «قسمت»:

- لِمَ قررت السفر؟

- لا خيارات أخرى أمامي.

- كنت تخاف الغربة.

- أحيانًا يمنحنا طول الخوف مناعة مما نخافه.

- أنت تهرب لا أكثر.

بدت نظرات «قسمت» خليطًا من الحنان والحزن، وكم آلمني أن تصاحب هذه النظرات كلامًا عن الرحيل. لماذا لا نجلس ونتحدث عن قصص الحب في روايات شكسبير مثلًا؟ لا يمكن لجولييت أن تمتلك تلك النظرات التي تجيدها «قسمت». إن «روميو» عليه أن يحسدني على الآنسة التي تجلس أمامي، وليس بيننا سوى نظرات حانية وكلام عن الرحيل، وعليّ أن أحسده على تركه -مع حبيبته- هذا العالم الهزلي.

ثم قالت:

- دعها تفعل ما يجعل حياتها بلا وحدة، نحن لسنا أوصياء على آبائنا.

– فعلاً نحن لسنا أوصياء على آبائنا.. نحن لسنا سوى ماضي آبائنا.

وسألتني بصوت متهدج – والبلد؟ وأحلامك؟ والتغيير؟

– البلد له أصحاب يتصرفون فيه كما يحلو لهم وأحلامي لا مكان لتحقيقها هنا والتغيير ربما يصنعه غيري.

عقدت ذراعيها ومدت بصرها ناحية الرصيف المقابل لمقهى الأندلس، وكان المذياع يبث أغنية لا أعرف مغنيها، لكن مقطعًا منها كان مناسبًا لما نحن عليه.

كان ليا شجرة على تلة

يا ما طيور منها طلوا

والخل لما يفوت خله

يرميه حزين.. من غير جناحين

وقطعت الأغنية بسؤالها:

– ولكن.. أليس هنا أي شيء يستدعي بقاءك؟ أي شيء؟

وددت لو أطرح همي وهواجسي جانبًا وأقول لها كم هي جميلة اليوم، وكم ستكون الدنيا منصفة لو التقينا في زمان آخر لا يخنقه كل هذا الجنون. لو أنك لست ابنة «رأفت العباد»، وأنا ابن «بثينة عبد الكريم»، لو أننا نتنفس قليلاً من العدل، لو أن قلبي به قليلاً من الإيمان بالحب لأحببتك يا

«قسمت».

وأجبتها: البقاء في هذا البلد يعني الموت أو الجنون.. صدقيني سأفتقدك.

استمر هروب عينيها إلى الرصيف.

- أنا لا أفهم علاقة زواج والدتك بقرار سفرك؟ أنت لك حياة وعمل لم تتخل عنهما بهذه البساطة؟

قلت معتقدًا إن الحديث سينتهي عند تلك النقطة تحديدًا.

- «قسمت».. أنا استقلت من الجامعة.

الاستقالة من الجامعة لم تكن رد فعل أحمق ومتهورًا كما قالت «قسمت» وقبلها «طه»، بل قرار تأخر إتخاذه ست سنوات حتى تضخم واستفحل كتشوه العباسية كلها.

- ومتى قدمت الاستقالة؟

- أمس.

- هل هناك فرصة لسحبها؟

- حتى لو هناك، فلن أفعلها.

* * *

كان يجلس متسترًا بمكتبه الضخم ودخان سيجارته وبعض أوراق متراكمة أمامه.

ألقيت تحية ولم ألب دعوته للجلوس. مددت ورقة أخرجتها من ملف كنت أحمله.

أمسك الدكتور «فتحي شاكر» الورقة. فحصها من خلف نظارته الزجاجية سميكة الإطار، ثم تنحنح وهو يعود بظهره إلى ظهر الكرسي، متسائلًا: لِمَ الاستقالة يا «علي»؟

- لا أرغب في الاستمرار بمهنة التدريس.

دعك بقايا سيجارته في منفضة أمامه، ثم نفث آخر دخانه في ورقة الاستقالة، وسألني بملامح جادة لا يظهر بها سخرية.

- وهل قصّرنا في شيء معك؟ أنت تُدرس وتثور في الجامعة؟ ما الذي ينقصك؟

قلت لأقطع أي رد متوقع:

- جئتك باعتبارك عميد الكلية؛ لأن رئيس القسم رفض تسلم الاستقالة ولو ستحذو حذوه فسأتقدم بها إلى رئيس الجامعة.

قام عن كرسيه وخطى قليلًا بقرب نافذة خلف مكتبه.

- خسارة.. سنفقد عضوًا مهمًّا في نظامنا.

- أي خسارة؟ الجامعة مليئة بالأساتذة والخير في الطلاب.

أزاح سوء فهمي لجملته.

- أنا لا أقصد الجامعة بنظامنا. أنا أقصد النظام نفسه. الدولة يا «علي».

تداعت في ذهني أسوأ الأفكار التي يمكن تحويلها لواقع يخدم النظام.

هل كانت «بثينة عبد الكريم» تتجسس عليّ؟ هل حنّت لماضيها وقررت أن تعيده مع ابنها الوحيد؟ لماذا لا يصنع لها زوجها الجديد كوبًا من الشاي القديم ونخلص؟

وللحق لم يتركني الرجل كثيرًا في الوحل مع السيدة «بثينة»، فقال:

- هل ترى أنك غير مفيد للنظام؟! أنت ترس يا «علي» في الآلة الكبيرة. تمنح الطلاب بعض تنفيس في حدود ما نريده لضمان استمرار دوران كل التروس بانتظام. تنظم وقفات احتجاجية، تدعو لمظاهرات، تطبع مجلات، وفي النهاية لا يحدث سوى ما نريده. ذكرني بشيء ما أحدثتموه رغمًا عنا، هل لويتم ذراعنا يومًا ما؟

شعرت برغبته في إجابة معينة تورطني في شيء ما، فمن غير الطبيعي أن يقول كلامًا كهذا بمناسبة استقالتي.

وكأنه يقرأ أفكاري، أردف:

- لا أريد توريطك في شيء. أنت موحول يا «علي».. أتذكر مجلة بولوتيكا؟ لو كنا لا نريدها ما كانت. نفذتها وطبعتها ووزعتها، ثم ما الذي حدث؟ لا شيء سوى ما نريده. النظام هو الدولة، وأنت جزء من الدولة،

إذًا أنت جزء من النظام.

من حق «فتحي شاكر» أن يضيف نون الجمع في حديثه عن الدولة والنظام باعتباره أحد الأعضاء اللامعين بالحزب الحاكم وأحد مهندسي الانتخابات البرلمانية الأخيرة، بل إن بعض مجاذيبه يقولون إنه صاحب فكرة منح جماعة الإخوان المسلمين عددًا لائقًا من مقاعد البرلمان مقابل بلعهم التعديلات الدستورية دون إزعاج للنظام.

وأكمل:

- أنت شاب ذكي؛ لكنك في أمور بعينها لا تكون على درجة الذكاء نفسها. عمومًا إذا لم يكُن أمامك عمل خارج الجامعة، فشركة شقيقي مؤكد ستكون في انتظارك وبمرتب أظن أنه لن يُعرض عليك في أي مكان آخر.

هه.. إنه يعرض علي العمل في شركة شقيقه، أو شركته التي كتب عقود تأسيسها باسم شقيقه، هربًا من مسألة قانونية لن تحدث، ولكن كعادته يحب التلفع بسلامة وضعه القانوني تحسبًا لأشياء تدور في رأسه فقط.

حقًّا، الحماقة تعمي أحيانًا عن اكتشاف أشياء مذهلة.

أين قرأت هذه الجملة. آه.. في رواية «مهجة».

شكرته، وقلت:

– لديَّ تدابيري الخاصة فيما يخص العمل، أما فيما يخص أنني جزء من النظام، فحتى لو كان مجهودي يذهب عن آخره في مصلحة النظام كما تقول، فثق تمامًا أنني في نهاية اليوم أتوسد بضميري وأنام في سلام لا في بركة دم، كما أنتم.

ضحك حتى بات وجهه في مواجهة مع السقف، فلمحت ضرسًا فضيًّا بصف ضروسه العلوي، ثم قال بعينين تنضحان غيظًا:

– لا أظن يا «علي»، تحياتي الحارة لوالدتك، أرجو أن تكون الأمور بينكما على ما يرام الآن.

إن أسوأ ما يمكن أن يفعله القدر بك هو أن يجعلك غير راضٍ عن جذورك.

(5) «قسمت».. الحزن

ارتجف قلبي. وشعرت بأن مقهى «الأندلس» بناسه يكتم أنفاسي، أيادي الزبائن تجمعت كلها في يد واحدة ضخمة إلتفت حول رقبتي، إنها تخنقني و«علي» لا يتحرك لينقذني، إنه يلملم حقيبته ويرحل. وشعرت لأول مرة بأن «علي رشدي» ليس صديقاً. إنه شيء أكبر. شيء كبير يضيع مني. وأحسست بأني ربما أحب هذا الرجل فعلًا، هذا الرجل الجالس قبالتي ويحدثني عن الرحيل. أهذا هو الحب؟ أن نتألم؟!

لم يسلك الحب طريقاً إلى قلبي يومًا، لم تحدث قصة تصلح للحكي في حياتي. لم أجد ابن الجيران، لم يكُن هناك حب أول. إن الحب الذي عشته طيلة خمس وعشرين سنة كان بين صفحات الروايات. لم يتسلل خارج أغلفة الكتب. مجرد حكايات يقصها كُتّاب لا أعرفهم عن أناس غير موجودين. لا تصدق «مهجة» أن فتاة تعيش على هذا الكوكب، ولم تجرب الحب أو على الأقل تعجب برجل؛ لكن هذا ما حدث معي وأظنه يتغير الآن.

كيف يأخذ قرار الاستقالة والسفر دون إلتفاتة ولو قصيرة إليّ؟ إنه يحطم حياته انتقامًا من أمه التي تبني حياة جديدة لها!!

قالها بسرعة وهو يعدل نظارته الطبية «سأفتقدك». حقًا سيفتقدني؟

كيف يتألم الناس من الفقد ومع هذا يرحلون؟

ورحت لـ«مهجة». وسألتها: ما الحب؟

- الحب هو أن نتشارك الألم.. نتشارك البحث عن الحقيقة.

- إذًا الحب هو المشاركة.

- ليس بالمعنى المطلق للمشاركة.. هناك مشاركة تخنق، تلتف على رقاب العاشقين فيلفظ الحب أنفاسه الأخيرة.

- ولماذا الألم والحقيقة بالذات؟

- لأن الألم ابن الحقيقة، وكلاهما يصعب على المرء مشاركته.

لم يكُن صعبًا أن تستشف «مهجة» شيئًا ما وسألتني: أهذه أسئلة تمهيدية لقصة حب؟

كان يمكن أن أقول نعم بسهولة، كما كان يمكن أن أقول لا، لكن نعم ولا.. لا يصلحان كإجابة دقيقة لما هو بداخلي. إن «لا» عندي لا تنفي ما بداخلي تجاه «علي»، كما أن «نعم» بها الكثير مما لا أحسه ناحيته.

لو كنت رجلًا ما تمنيت أن أكون أحدًا غير «علي رشدي»، أنا بدأت أقلده في أشياء كثيرة في تصرفاته وطريقة كلامه، ما يحبه وما يكرهه. آراءه وقراءاته. إنه صار ترمومتر ضميري.

وقطع حديثنا إتصال من أبي يستعجل عودتي للبيت.

* * *

كان أبي يتحدث في الهاتف بود زائد لم أعهده عنه، وأنهى المكالمة باشًا الوجه.

نهض من جلسته خلف المكتب كاشفًا عن ابتسامة أكبر. قال وهو يقترب مني ليحتضني:

- مبروك يا حبيبتي.

- مبروك!!

لم تكن الصفقة التي أقام لها «رأفت العباد» حفلًا تحت إشرافي سوى أنا.

- واثق من أنه سيحقق لك السعادة.

- أي سعادة؟ ومن الذي سيحققها؟

- «ضياء المنيري».. انبهر بك يوم الحفل؛ لكن ظروف عمله وانشغالات والده أجلت فتح الموضوع لكنه فاتحني اليوم. أنا سعيد جدًا. إنه شاب ممتاز مبروك يا حبيبتي. آه الخطبة آخر الشهر يعني بعد ثلاثة أسابيع، جهزي نفسك.

- أنا فعلًا لا أستوعب ما يحدث. والحقيقة أنني لا أريد استيعاب أي شيء. أنا أرفض كل ما قلته تمامًا. أنا آسفة.

عاد إلى مكتبه. أشعل سيجارًا. وقال وهو يعدل بروازًا لصورة والدتي

الذي على شمال جلسته:

- أنا لا أستشيرك يا «قسمت»، أنا أقول لك من باب العلم بالشيء. الموضوع منتهٍ أصلًا.

- منتهٍ! ! هذه حياتي التي تطلعني عليها من باب العلم بالشيء.

- أنا أدرك تمامًا إدارة حياتك بشكل سليم.

- أرفض هذا تمامًا.

- أنت لست في موقع الرفض أو القبول من الأساس.

رن هاتفه، وانشغل بالحديث حول أمور بدت تافهة أمام حياتي الجديدة.

(6) «طه».. تقلبات الدنيا

بدت الأمور تسير بمنحنى جنوني. استقال «علي» من الجامعة، ولم يعد له دخل شهري يمكنّه من تأجير شقة. لا يعرف ابن العباسية الادخار، جيوبه مخرومة على أسرة «بداية» التي يشرف عليها وعلى مساعدة الطلبة الفقراء، ثم تأتي متأخرة مصاريفه الشخصية. وعلى ذلك بقي ضيفًا لديَّ الشيخ «أسامة» حتى يتسنى له السفر.

وأمام هذا التدهور في حياته، كانت أموري تسير في تحسن، قُبلت في شركة الاستشارات الهندسية التي تعمل بها «ليلى» براتب مجزٍ.

ساعدتني «ليلى» كثيرًا في أول أيام العمل. أثنت عليّ لدى رؤسائي وعرّفتني أجواء العمل وفتحت لي مجالًا جيدًا مع الزملاء. والحقيقة أنني لمت نفسي على ما كنت أبطنه ناحية هذه الفتاة. في بداية أيام العمل طوّقتني نظرات استغراب وأحيانًا نفور من أثر الجرح الذي في جبهتي، لكن الاعتياد يصيب كل شيء بالألفة.

وخففت عودتي للهندسة صمت «زُهرة» الذي طال منذ حادثة سرقة المسجد، ولمحتها تبتسم أكثر من مرة، وانشرح قلب «عبد ربه». وسُر أهل الجبل عدا «أبو ريشة» وزوجته. وبدأ كبار الجبل ينادوني بالباشمهندس كما صغاره. وكم تمنيت لو أن «ضي» بيننا، لتراني مهندسًا كما كانت

تناديني في رسائلها اليائسة من حبي لها.

إثبات كفاءتي في العمل الجديد احتاج مجهودًا مضاعفًا خاصة مع ابتعادي عن تخصصي لسنوات، فعدت مرة أخرى طالبًا أراجع الكتب، ولكن هذه المرة دون «علي رشدي» أو المظاهرات أو لاظوغلي.

اشتريت بأول راتب عباءة زرقاء لـ«زهرة» وجلباب أبيض لـ«عبد ربه» ورابطة عنق لـ«علي». سعد أبي بالثوب الجديد وارتداه فورًا، أما «زُهرة» فشكرتني بعينين باردتين، وقالت بحزم إنها لن تخلع الأسود بعد «يسري».

وابتعت هاتفًا محمولًا مستعملًا من شارع عبد العزيز، سعره رخيص وإمكاناته جيدة، وأول مكالمة أجريتها كانت لـ«علي».

هنأني – مبارك عليك العمل والهاتف.

وتابع راميًا على انشغالي عنه خلال الفترة الماضية.

– أتمنى فعلًا ألا أتعب في الوصول إليك بعد الآن.

– أنا آسف يا «علي»، فعلًا كنت منشغلًا بالعمل، سأمر عليك الليلة في الأندلس.

ولم أنس أن أؤكد عليه أن يتصل بـ«قسمت» لنجتمع نحن الثلاثة.

كان وجهه شاحبًا، وشعره غير مرتب، وذهنه شاردًا. هل يفعل زواج الأم هذا كله؟ أم أن الموضوع له علاقة بفواتير قديمة يسددها «علي رشدي»

دفعة واحدة؟

قدمت له هديته، فقبلها ببرود، حتى إنه لم يفتحها.

كررتُ أسفي لانشغالي عنه. زم شفتيه، ارتشف بعضًا من قهوته.

قال:

– لا داعي للأسف. أقدر انشغالك. أنا أسعد منك بعملك.

– أعرف يا «علي». إذًا افتح الهدية.

وفتحها وقال إن ذوقها رقيق وتناسب الكثير من ملابسه، وتمنى أن يجد مناسبات ليرتديها خلالها.

حكيت له عن مشاق العمل ومتعة ممارسة ما درسته ولم أنس أن أشير إلى مساعدات «ليلى».

– غريبة. لم تستلطفها يومًا.

– فعلًا، ولكن كأني أكتشفها من جديد. أندهش من قدرة الإنسان على مساعدة الغير، في حين أنه لا يقدر على مساعدة نفسه.

– «ليلى» لا ترى في حياتها عيبًا يحتاج مساعدة لإصلاحه.

– لكنها غدرت بك. وغدرت بغيرك.

– إنها تغير الرجال كما تغير ملابسها. بت أشفق عليها.

– وعلى الرغم من هذا لا تنساك. ربما أحبتك بصدق!!

- هي لا تحب أحدًا. كل ما في الأمر أنها تشتاق أحيانًا للتقليب في دفاترها القديمة تمامًا، كما نشتاق لفتح ألبوم صورنا القديم نراجع ملامحنا في الصغر ونتحسر على ابتسامة قديمة صافية، ثم نغلقه بسرعة لوقف نزيف مقارنة مؤلمة بين نحن في الماضي ونحن الآن.

- بت متسامحاً مع الحياة يا صديقي. سكنك مع الشيخ «أسامة» غيّرك.

- كل ما في الأمر أنني لم أعد آخذ هذه الدنيا بشيء من الجدية.

- ومن المحتمل أنك ما زلت تحبها!!

- هههه.. أحبها!! أنا أكره نفسي التي أحبتها يومًا.

- ولو حنين لماضيك معها على الأقل؟

- حنين!! لو أن هناك فرصة للعودة إلى الماضي، فسيكون للبصق عليه لا أكثر.

- أتعرف هي فعلًا تعيسة وجميلة كما كنت تقول عنها.

- هذا ما يفعله الحب بالناس التعاسة والجمال.

- غريب.. قلت لتوك إنها لا تعرف الحب.

- هي لا تحب أحدًا، لكنها دائمة البحث عن الحب. تفشل مرات وربما تصيب مرة وفي المرة التي تصيب فيها تعود للفشل طواعية وهكذا هذه

هي حياة «ليلى». قلبها عبارة عن ساقية من الرجال تدور لتروي قلبها الجاف الذي لا يُروى.

جاء صوت «قسمت» مقاطعًا حديثنا، ومشرقًا من خلف جلستنا.

قالت موجهة عتابها إليَّ: غاضبة منك. كل هذه المدة؟!

وكنت أشتاق صوتها وضحكتها وحكاياتها، وكنت سعيدًا أكثر أنني ألتقيها وأنا مهندس، شعرت بأن بعضًا من الثلج ذاب بيننا.

وأشارت إلى رابطة العنق، قائلة: لمن هذه؟

وقال «علي» إنني أحضرتها له بمناسبة بدء عملي الجديد.

سألت بلطف: وأنا؟

ارتبكت. قدمت عذرًا بعدم خبرتي في هدايا النساء، ووعدتها أن أحضر لها هدية المرة المقبلة. والحقيقة أن صورة «قسمت» كانت حاضرة عند شرائي ثوب «زُهرة» وجلباب «عبد ربه» ورابطة عنق «علي»، لكن الصورة كانت تتلاشى تمامًا كلما فكرت في هدية تناسب «قسمت رأفت العباد».

وقالت بسرعة:

- ها.. لن أنتظر لقاءً مقبلًا. صرنا نعثر عليك بالمحايلة. ستشتريها الآن. هل تبقى من راتبك شيء؟!

تركنا «الأندلس» وسرنا إلى وسط البلد. كان «علي» يمشي بلا مبالاة

واضعًا يديه في جيبي بنطاله، وأنا أمسك هواء سبتمبر براحتي وأستمتع بحديث «قسمت» عن أغنية من الفلكلور العراقي:

شلشل علي يا الرمان نومي فِزعلي..

هذا الحلو ما أريده ودوني لأهلي..

ياما لا تنظري بطلي النطارة..

اللي أريده يصير ماكو كل جارة.

- الأغنية تتحدث عن العراقيين وقت الحرب العالمية الأولى. شلشل علي يا الرمان يعني وقع علي الرمان، والرمان هنا رمز للعثمانيين الذين اشتهروا بارتداء الطرابيش الحمراء، نومي فزعلي يعني الليمون أنقذني ويقصد بالليمون البريطانيين ذوي الشعر الأصفر، أي أن البريطانيين جاءوا ليحتلوا العراق بدلًا من الاحتلال العثماني. هذا الحلو ما أريده يعني لا أريد هذه الفاكهة الحلوة أريد أبناء بلدي...

قلت:

- رائع. أين سمعتِها؟

- إحدى شخصيات رواية «مهجة» كان يعمل بالعراق وكل رسائله لزوجته كان يختمها بهذه الأغنية. شدتني. بحثت عنها عبر الإنترنت وسمعتها.

قلت ساخرًا - أكان ثائرًا؟

- إنسان عادي يعرف أن شقاءه وغربته صنعهما محتل قديم في كل مكان.

ولم يكُن «علي» يبادلنا الحديث، وقال أخيرًا:

- دمي ثقيل هذه الليلة وسأفسدها. سأنتظركما هنا.

وأشار إلى مقهى صغير بلا سقف بين عقارين في شارع عدلي.

قالت ضاحكة: نحن تحملنا هذا الثقل طيلة الطريق، لن تأتي على دقائق في المحل.

اجتاز هو الطريق إلى المقهى، ومشينا حتى بداية شارع قصر النيل، وكانت هي تحكي عن رواية خالتها وعما يفعله الحب بالمجرمين والمتدينين.

وسألتها بلا تفكير: وماذا يفعل الحب بالفقراء؟

ضمت حاجبيها مع ابتسامتها الصافية وقالت:

- يفعل ما يفعله بالأغنياء.. لا فرق.

- لا أظن.. النهايات تختلف، والتفاصيل أيضًا.

وصاحت: هاهو المحل.

كان محل خردوات يبيع أدوات الحياكة. دلفنا إليه. أشارت «قسمت» إلى رف طويل ممتلئ بأنواع مختلفة الألوان والأشكال من الأزرار.

- ها هي. اختر لي على ذوقك أزرارًا لفستان رمادي اللون يكسو

صدره دانتيل أبيض.

- أتمزحين؟ هديتك أزرار ! !

اقتربت مني حتى تلامس كتفانا.

تورد وجهها وهي تقول: أزرار على ذوقك. تفرق يا «طه».

لو أن العالم يأخذ غفوة طويلة ويتركنا بلا تلصص، لو أن الوقت يتسمر بلا تزحزح، لو تجمد كل شيء عدا عينيها وقلبي. لو أن ما بداخلي الآن لـ«قسمت» كان يومًا في قلب «ضي» لي؛ فعلي أن أقيم لـ«ضي» عزاءً خاصًا في قلبي. وانطلق في رأسي خاطر مجنون أن أهيم في الشوارع لأقبل جبين كل من يُحِب ولا يُحَب. لم أفكر يومًا في «قسمت» كفتاة حتى من قبل أن أعرف أنها ابنة «رأفت العباد». غناها وعملي بالورشة منعاني تلقائيًّا من حتى التفكير أو الإحساس بها، ولكن يبدو أن قلبي انفتح على الحياة بمفتاح عملي الجديد.

وتراجعت هي قليلًا للوراء، لتتفادي كتفي فالتصقت بصف الأزرار ووقع بعضًا منها.

وجاءت صاحبة المحل مسرعة لتتدخل وتنقذ الأزرار وتنقذني من قسمت رأفت العباد.

هل يمكن أن يحب المقتول قاتله؟ أنا آسف، آسف جدًّا يا يسري.

* * *

وقف «عبد ربه» مشدوهًا أمام البحر، بينما كنت مشغولًا ببائع قبعات صوفية يحفزني على ابتياع خمس قبعات بسعر أربع.

- فرصة يا أستاذ ستقدر خسارتها بعد قليل. البرد هنا يأكل المخ. والقعدة ستطول.

أربكني يقينه بأن بقاءنا سيطول، وفعلا بقاؤنا طال.

وكان كثير من الناس يمضغون كثيرًا من الكلام.

- يقولون إن المركب انحرف عن مساره وسيصل ميناء العين السخنة بدلًا من سفاجا.

- لا.. هناك عاصفة عطلت المركب.

- أليس هناك أي وسيلة اتصال بهم؟

- تحدثت مع ابن عمي قبل ساعة. لم يكُن شيئًا غريبًا يحدث.

- هواتف الركاب كلها غير متاحة.

انضم إلينا أربعة رجال تبدو لهجتهم وملابسهم آتية من الصعيد. وكان على أحد الواقفين معنا أن يعيد كل ما جرى خلال الساعتين الفائتتين على مسامعهم. المركب تأخر عن موعده. هواتف المسافرين عليه لا تعمل. حركة غريبة في صفوف عساكر الأمن المرابطة بميناء سفاجا.

كان البرد يأكل الناس، ثم يُكمل عليهم الانتظار. وعلى هذا بقينا

خمس ساعات. أبي يُصبر نفسه بالصمت وأنا أفكر في حال «يسري»، الذي يخاف البحر، لكنه اضطر لركوبه لأنه أرخص وسيلة انتقال من السعودية إلى مصر.

قال لي يوم وداعه على رصيف الميناء نفسه:

– أخاف البحر يا «طه». لا أتصور أن أموت غريقاً.

ابتسمت بود: يا أخي مالك وسيرة الموت؟! ألم تقل لك زهرة.. لا تخف منه حتى لا يُخيفك.

واحتضني وبكى بحرقة ورحل.

كان «يسري» طالبًا متفوقًا، دومًا كان الأول على صفه في المدرسة الابتدائية بمنشأة ناصر، لم يدم تفوقه طويلاً؛ قرر أبونا أن يُوقف مشوارنا التعليمي، فهو لا يتحمل مصاريف دراسة نفرين. ثم من في الجبل يُعلم أولاده أصلاً؟ بكى «يسري» وتوسل أن أبقى أنا في المدرسة.. وترك الدراسة وعمل بورشة حدادة «الأسطى مصطفى» في السيدة عائشة.

ظل يعمل في ورشة الحدادة إلى أن جاء يوم ظن فيه أن الدنيا فتحت ذراعيها له أخيرًا. الأسطى مصطفى سيسافر السعودية للعمل بمصنع كبير والمصنع يحتاج صنايعية مهرة والأسطى اختار «يسري».

– العرج سيمنعه. لن يفلت من الكشف الطبي؟

- سنُدبر الأمور لا تقلق.

وسافر.

وأتتنا خطاباته تباعًا تطمئننا على كامل عافيته وتسألنا عن أحوالنا كما تتابعت تحويلاته النقدية التي عرفنا من خلالها أن أجره ليس كبيرًا كما تخيل قبل سفره. تحسنت الأحوال وكفت أمي بيع الخضار واشترينا التليفزيون.

وبعد عامين حمل لنا آخر خطاب له بشارة عودته في إجازة.

فرحت «زُهرة» أيم فرحة، وجددت العشة. اشترت سجادة وملاءة وموقدًا وكنبة، وفي يوم مجيئه ابتاعت أنواعًا مختلفة من الأسماك التي يحبها ابنها الغائب، فشوت وقلت وابتهجت، كذا فتحت سيرة البحث عن عروس له.

سألت أبي: تُرى ما الذي يخفيه رجال الأمن؟

رد دون أن يدير وجهه عن البحر: هؤلاء لا يُبطنون سوى كل سوء.

وبقيت الأسئلة تفتّت أدمغتنا وأجوبة البحر موج مالح يتقلب أمامنا ويسلمنا زبده ثم يرحل، حتى عقدت خيوط الفجر أول عقد الحقيقة، المركب غرق بكل من فيه. و«يسري»؟

تخطينا خبر الموت إلى أخبار العثور على الجثث.. مئات الجثث. بدا المشهد في أقصى درجات الهزل والعبثية والجنون، فكنا نهنئ من يعثر

على جثة فقيده، ثم نعزيه بعدها بلحظة.

كان رجال الإنقاذ يأتون كل ساعة بجثث يلقونها على الرصيف ليتزاحم الناس على الموتى فيدهسون الموتى والأحياء. وتفتق عن ذهن مسؤول ما تصوير الجثامين وجمع الأهالي في أحد مخازن الميناء لتعرض عليهم عبر شاشة تليفزيونية كبيرة. كثير من الأهالي شاهدوا صور أبنائهم عبر الشاشة إلا أنهم لم يتسلموها، كانت الجثث تظهر وتختفي، حسب رغبة رجال الأمن.

صرخ أحدهم: الله أعاد لي جثة ابني من البحر والحكومة أضاعتها.

ظللنا ثلاثة أيام بين الشاشات ورصيف الميناء ومخزن الجثث دون أثر لـ«يسري». وكان أكثر ما سمعناه وعود المسؤولين بأن كل شيء سيكون على ما يرام. ولم يفهم أحدهم أن أخي يخاف البحر ولا يعرف السباحة ويعاني عرجًا بساقه، فكيف يتركونه هكذا ثلاثة أيام؟

في اليوم الثالث تحول رصيف الميناء إلى ساحة حرب. جثة مشوهة الوجه وصلت قبل قليل ولمّا حاول كثيرون إثبات أنها لذويهم نشبت خناقة كبيرة أوقعت مصابين وتدخلت قوات الأمن بالقنابل المسيلة للدموع، قبل أن يرمي أحدهم الجثة في البحر مرة أخرى انتقامًا من الجميع.

ورأى «عبد ربه طه» أن الأسلم أن يبقى هو في انتظار ابنه الغائب، على أن يعود الابن الثاني إلى الجبل.

عـدت إلى القـاهرة. كـان النـاس لا يتحـدثون عـن «يـسري»، كـانوا يتجادلون حول فرص المنتخب القومي في تحقيق الفوز بالمبـاراة النهائيـة في بطولة الأمم الأفريقية. وكانت نشرات الأخبـار بهـا مرونـة لدرجـة إذاعـة خبر العثور على جثث جديدة يتلوه خبر عن زيارة نجل الرئيس للمنتخـب خلال تدريباته استعدادًا للمباراة النهائية. كان النـاس في منتهـى التنـاقض والبؤس.

عاد أبي بعد أسبوع من دون «يسري»، وأحرزنا بطولة الأمم الأفريقيـة ورفع اللاعبون كـأس أفريقيـا بابتـسامات عظيمـة وسـواعد ملفوفـة بـشرائط سوداء حدادًا على موتى الغرق، كما احتفل جبل العرب بالفوز.

أما «زُهرة»، فحرمت علينا أكل الأسماك، حتمًا في أمعاء واحـدة جـزء من ابنـها.

عاش «يسري عبد ربه طه» كائنًا هامشيًّا في هذا العـالم، دون أي شـيء وبلا أي محاولة لإزعاج أحد، وحتى جثته اعتبروها أمرًا هامشيًّا في حادثـة موته. والقصاص من قاتله؟! القصاص من «رأفت العباد» صـاحب الـسفينة؟! السفينة المتهالكة التي سيّرها في البحر، على الرغم من أنها لا تصلح ليزيـد من ربحه. كان القصاص أمرًا هامشيًّا أيضًا. يكفي أنني أشـتري أزرارًا لابنـة قاتله.

* * *

لا يفوت «عبد ربه» زيارة قبر «ضي» كل جمعة بعد صلاة العصر؛ يسقي صبارًا اشتراه من صديق يعمل أجيرًا في مشتل بالمقطم، وزرعه بمدفنها في «قصاري بلاستيكية». يقضي طيلة العصرية يقرأ القرآن ويترحم على الأموات. ولم يكُن خفيًا على أحد أنه يفعل شيئًا لم يتمكن منه مع ابنه «يسري».

صار اهتمامه بالصبار حاضرًا في أحاديثه معنا.

– بدأ في الازدهار.

– يقولون إن هناك أنواعًا منه تنبت زهورًا. لو زرعت النوع الذي يطرح التين، فيصير كل الصبار مطمعًا للصوص.

– سرقت قصريتان هذا الأسبوع، وعليّ شراء بديل لهما.

– الشمس تأكل القصاري البلاستيكية أفكر في نقلها بأخرى فخارية متينة.

– سمعت أن مادة ما نضيفها مع مياه الري تزيد ريعانه.

– أفكر في زراعة الريحان.

وسألني مرة:

– لماذا لا تأتي معي وتقرأ الفاتحة لها؟

– لا أقتنع بهذا الكلام.

- أي كلام بالضبط؟

- زيارة القبور. أقرأ لها الفاتحة في كل مكان ومؤكد تصلها.

سكت قليلاً، ثم قال بانفعال:

- كم أعجب من الذين لا يقدرون على فعل الشيء، فينكرونـه تمامًـا، ليرتاحوا.

(8) «علي».. في طريق العمى

قال الشيخ «أسامة»: اليأس جبن يضعف صاحبه ويجعله ميتًا بلا كفن.

قلت:

– على العكس، اليأس إدراك عاقل للواقع المزري الذي نعيشه.

– عليك بالأمل والحلم وإلا صرت في مهب النسيان.

– يا شيخ من الجنون أن نحلم وعيوننا مفتوحة خوفًا من الجوع أو الموت. ولو على النسيان فكم أتمنى أن أُنسى.

قال بوده المعهود: إذا كنت تود أن تنسى، فصدقني لن تنسى أبدًا.

– كم أنت جميل يا شيخ في زمن عز فيه كل جميل.

– يا «علي» الجمال حولك في كل مكان، لكنك تتعمد ألا تراه. أمعن النظر في الناس وستجد فيهم الكثير من الخير.

– الناس صاروا بلا نخوة كما العاهرة يلتصقون بمن يشمون في جسده رائحة المنفعة.

ابتسم وهو يتحسس كوب شاي الذي كان أمامه: يا ساتر يا رب. لا تُضخم الأمور هكذا. علينا استيعاب واقعنا حتى لا نموت أو نجن.

– وكيف نستوعب هذا الواقع؟

- بالإيمان. عليك أن تؤمن بأن هناك إلهًا له حكمته في عدل الكون وقلبه. وهذا لا يعني أن نقف كالمتفرجين فعلام نحاسب إذًا يوم القيامة؟ الله يختبر خير الإنسان وشروره فيما يحدث، الإنسان خُلق في كبد ولا راحة لنا في هذه الدنيا.

ثم قال:

- أتعرف ما مشكلتك يا «علي»؟ مشكلتك أنك تفتش عن الله في لوحة قديمة وبقايا حبيبة وبلد ميت بأكمله.

- وأين أجد الله؟

- في قلبك.

- قلبي ممتلئ باللوحة القديمة وبقايا الحبيبة والبلد الميت. أنا لا أشعر به في قلبي.

- لأنك لا تريد هذا.

أنعم الله علي بالشيخ أسامة. منذ أن انتقلت للعيش معه، تفرغ للعمل على راحتي.

اعتدت حياته. أحببتها حتى اعتدتها. يستيقظ قبل الفجر بنصف ساعة يتحسس طريقه إلى حمام صغير في الناحية الخلفية من الحجرة يمين السطح. يتوضأ ويصلي على الحبيب بصوت خافت وهو يرتدي جبته وقفطانه، ثم يتوجه بخفته المعهودة إلى مسجد القبة الفداوية. يصلي ويقرأ

ما تيسر من القرآن وفي طريق عودته يشتري ما يتيسر للإفطار، يوقظني وهو يُعد الشاي لنفطر معًا. بعدها يفتح الراديو أولًا على إذاعة القرآن الكريم، ثم يدير المؤشر إلى صوت العرب. يحكي عن أهل العباسية ويزودني بقصص في الدين والأثر. هو حقًّا موسوعة دينية تمشي على قدمين. وصوت الشيخ حلو ويحب أن يغني لأم كلثوم وهو يسقي شجيرات الفل والياسمين المرصوصة بشكل أنيق على سور السطح.

يسألني كل صباح:

- كيف شكل الزهور اليوم؟

- جميلة مثلك يا شيخنا.

وأيضًا الشيخ يطهو، دون بهارات أو تدقيق في نسب مكونات الطهي، لكنه في النهاية يصنع طعامًا طيبًا لم أذق مثل حلاوته طيلة حياتي.

وكان الشيخ يدعوني للمواظبة على الصلاة منذ أن عرفته قبل سنوات بسماحة لا تحرج ولا تخنق أما وقد انتقلت للعيش معه توقف تمامًا عن الدعوة، وفهمت أنه يخشى مقايضة الأمور.

وسارت الأيام ينغصها الفراغ والتفكير في زواج «بثينة عبد الكريم» وانتظار فرصة للسفر إلى أن جاء خطاب للشيخ.

امتقع وجهه عندما قرأت له اسم الراسل «ناجي صبحي».

لم يفتحه، ووضعه على رف بمكتبة صغيرة معلقة جوار باب

الحجرة. ظل أيامًا هكذا، حتى سألته عن سبب إهماله لخطاب من خطابات بلدته الحبيبة. قال إن الخطابات دومًا لا تحمل أخبارًا سعيدة. كان تجاهله غريبًا وتداعت في ذهني ريبة «طه» من الشيخ.

ولأنني بلا شغل، فبالوقت صار شغلي الشاغل ما يحمله الخطاب. وزاد في توتري موقعه أمام عيني على رف المكتبة الصغيرة، كان يطاردني أينما رحت وجئت. وكم تألمت من أن يصير خطاب مجهول النسب سببًا لشكي في الشيخ. وجاء قرار قراءته دون علم صاحبه بعد أيام من مداولات النفس والخشية والجموح والإصرار والتردد. اخترت وقت صلاة المغرب حيث يصلي الشيخ بالمسجد ويغرق في التسبيح حتى أذان العشاء. سحبت الخطاب من مكانه. جلست على السرير. أخرجته من جبته..

بسم الله الرحمن الرحيم

تحية لشيخنا، أعز الله قدرك

نتمنى أن تكون بخير والأمور تسير بشكل جيد..

أردنا إخبارك بأن صحة عمك ساءت بشدة في الأيام الأخيرة، يريد رؤيتك قبل أن يعاجله الأجل. تعال وانس ما فات. عمره صار أقصر من أن تعاقبه بالقطيعة. لم نعهدك قاسي القلب وتذكر ما فعله من أجلك.

دمت طيبًا..

أخوك المحب، «ناجي»

لم يقل لي قط إن له عمًّا أو أخًا. كثير من الحكايات حكاها عن أمه وأبيه اللذين توفيا وهو في سن مبكرة وكيف تنقل بين الأقارب حتى استقل بحياته. ثم ما سبب القطيعة؟

طويت الخطاب في جبته. وضعته مكانه على الرف. عدت إلى السرير أقلب نومتي وأفكاري في انتظار عودته.

تأخر الشيخ قليلًا على غير عادته. عاد في حدود التاسعة. أعددنا العشاء. غرقت في صمت وهو يتحدث عن «رسلان» تاجر أدوات الصرف الصحي في شارع «أحمد سعيد»، تزوج للمرة الثالثة دون علم زوجتيه. دخلت زوجته الأولى المسجد بعد صلاة المغرب وطوقت رقبة زوجها من الخلف بذراعيها بعدما سلم الصلاة وأقسمت أنها لن تتركها حتى يلقي عليها يمين الطلاق.

- يا رجل يا ناقص. سكت على الجوازة التانية، تقوم تتزوج الثالثة.

تدخل الشيخ «أسامة» وبعض المصلين لتخليص رقبة «رسلان»، لكن الرجل لم يتوان عن إطلاق يمين الطلاق على السيدة التي كانت ستخنقه قبل قليل. أطلقت صرخة عالية، ثم أمسكت بذراعه وعضته. وخلّصوا ذراعه من بين فكيها بصعوبة. أما الزوجة الثانية فحضرت بعد صلاة العشاء تجر في ذيل ثوبها أربعة أطفال. تركت الأطفال لأبيهم وقالت:

- خذهم. الثالثة تربيهم.

ومشيت.

وظل الشيخ مع «رسلان» يفكر في حل للمشكلة، والحقيقة أنه لم يجد لها حلًا سوى استرضاء الزوجتين والإحجام عن الزيجة الثالثة، لكن الرجل رفض وأمعن في العند.

- ما رأيك يا «علي»؟

كان رأسي ممتلئًا بالأفكار والخطاب ولا أجد جوابًا مناسبًا لحل مشكلة «رسلان»، فقلت:

- الحقيقة كل إنسان أدرى بحل مشاكله.

ثم سألته مصطنعًا لا مبالاة:

- صحيح يا شيخ، لماذا لا تفتح الخطاب الذي جاءك قبل أيام؟ ربما يحمل أخبارًا مهمة.

- أتظن هذا؟

- ربما..

- كيف الظن، ولديك اليقين؟

عُقد لساني. كيف عرف؟ وقفزت إلى ذهني ريبة «طه» وسخرية البعض من أن الشيخ يدعي العمى وأنه بصير مثلنا تمامًا.

أكمل ليزيد حيرتي: عمومًا.. لن أذهب.

جمعت بعضًا من إدراك الموقف واعتذرت له، وقلت إن إهماله للخطاب أثار في نفسي الفضول والحيرة والشك أيضًا. وخفت أن يكون به أمرًا لا يستوعب مدى أهميته، ففتحته من باب مساعدته لا خيانة الأمانة.

وقلت:

- ولك حق الغضب، لأن الأمر في النهاية يخصك من أوله لآخره وأعترف تمامًا بأن ما فعلته تعدٍّ على خصوصيتك. اعذرني، وأرجو أن تتفهم دوافعي.

تجاهل تأسفي، وقال:

- جاءني مريض في المنام يسبح سريره في ماء عكر إلى أن غرق، ولمَّا وصل الجواب قبل أيام فهمت أنه إما مات أو يستعد للموت.

- لم أعهدك قاسي القلب.. صحيح من هو «ناجي»؟ هل هو أخوك.

- نعم..

- لم تقل لي يومًا إن لك أخًا!!

- لأنه لم يعد أخًا.

وحكى الشيخ قصته:

توفى أبي وأنا في الخامسة من عمري ولحقته أمي بعد عام. انتقلت مع أخي «ناجي» للعيش ببيت عمي الذي كان يجهز نفسه وقتها لعمادة قريتنا

«أخطاب».

لم يبخل علينا عمي الحاج «يوسف الفاتح» بالمال الذي كان لديه منه الكثير، أما الاهتمام فتركه لزوجته وكانت عاقرًا فصرنا أولادها. ولمَّا كان والدها الشيخ «شافعي»، إمام مسجد القرية، فقد حفظت القرآن على يديه في غضون عام واحد فقط، أما «ناجي» والذي كان يكبرني بعامين فكان بليدًا يتململ من دروسه حتى هجرها تدريجيًّا. كان الشيخ «شافعي»، رحمة الله عليه، طيبًا يحنو عليَّ ولا ينس حزم التربية، وتمامًا كانت ابنته.

تأثرت به بشدة، حتى صار قدوتي.

– ماذا تريد أن تصبح عندما تكبر يا «أسامة»؟

– أريد أن أصبح الشيخ «شافعي».

وعلى ذلك التحقت بالتعليم الأزهري. وكنت متفوقًا على عكس «ناجي»، الذي تكرر رسوبه في الإعدادية، حتى قرر عمي أن يترك أخي التعليم ليساعده في الإدارة والإشراف على أطيانه بأخطاب وما حولها. فرح «ناجي» بترك المدرسة أحس وقتئذ أن عمه يمنحه صك الرجولة، صار يتحدث، مثل عمي في أمور العمل، حتى إنه كان يقلد صوته وجلسته ومشيته. وتلبية لإلحاحه فصّلت له زوجة عمي جلابيب من لون ونوع القماش نفسه الذي يرتديه زوجها. وبدا «ناجي» يتحول لمسخ كبير سعيد بإطلالته التي تثير العجب والخوف والشفقة.

وفرح البيت كله بتفوقي في الثانوية الأزهرية. حصلت على مجموع كبير يؤهلني لدخول كلية الطب لكن رغبتي في السير على خطى الشيخ «شافعي» دفعتني للالتحاق بكلية أصول الدين.

جئت القاهرة محملاً بمال منحه لي عمي لتدبير أمور السكن والعيش اليسير ونصائح الشيخ «شافعي» ودعوات زوجة عمي بالتوفيق، بكت كثيرًا وهي تودعني، قالت وهي تحتضني:

- لا تنس أمك يا «أسامة».

- كيف أنساك؟! ولِم الوداع؟! سآتي كل أسبوعين. لا أتحمل الابتعاد عنك أكثر من هذا.

كان «ناجي» متأثرًا جدًّا بانتقالي للقاهرة. حقيقة لم أتوقع منه هذا، فكان العمل شاغله لدرجة كبيرة. كنت لا أراه باليومين والثلاثة من كثرة انشغاله، كما أن طباعه التي اكتسبها من عمي وضعت مسافة بيننا. ولمحت دموعًا في عينيه وهو يودعني وقال إن شعور اليتم تجدد في قلبه بفراقي.

ووصاني الشيخ «شافعي» بألا أتخلى عن أخلاق القرية التي عشت فيها:

- تذكر أنك ستعود لـ«أخطاب» مرة أخرى. لا تنسِك الغربة طبائعك وما تربيت عليه. واعلم أنك لو حاولت أن تصير كأهل مصر، فستفشل وستصير غريبًا عنهم وعنا.

سكنت في مدينة نصر. بشقة جديدة مجهزة بكل شيء. كان معي زميلان أحدهما من الإسكندرية يدرس الطب والثاني من المنيا ويدرس الصيدلة.

استمر تفوقي بالجامعة. الأول على دفعتي لثلاث سنوات، وتنبأ لي شيوخي بأن أصير زميلًا لهم بعضوية هيئة تدريس الكلية.

وتحاشيت مصادقة أهل القاهرة خوفًا مما أخافني منه الشيخ «شافعي»، ولم أبذل مجهودًا كبيرًا في هذا، فالحق كانت الغالبية إن لم يكُن كل طلاب جامعة الأزهر كانوا من الأقاليم، وكنت أستغرب هذه المسألة، لماذا لا يتعلم أهل المدينة الدين؟

أجابني مرة زميل: تعلّم الدين ليس موضة هذه الأيام. تركوه للفلاحين، أما أهل المدينة فيتعلمون أمورًا تخص الدنيا.

كنت أرى جامعة الأزهر قرية صغيرة داخل المدينة الكبيرة. كنا طلاب الأزهر نحتمي بقروية بعضنا البعض أمام تمدن العاصمة المخيف. نراقب سلوكيات بعضنا ليس من باب التلصص بقدر الخوف من أن يقع أحدنا تحت أقدام القاهرة، فإن تشبه أحدنا بأهل المدينة في الملبس أو الكلام نخاف عليه ونخافه وينطلق سيل النصائح والإرشاد والهجوم أيضًا وإن حضر أحدنا سهرة أو حفلة صارت واقعة تتناقلها الألسن بالتضخيم لأيام.

وعمومًا كانت الأمور تسير بشكل جيد، كما رسمتها لنفسي، وكما

أوصتني عائلتي، حتى انقلب كل شيء ذات محاضرة للشيخ «صابر الأسيوطي».

كان الشيخ «صابر الأسيوطي»، أستاذ مادة التفسير عالمًا كبيرًا له من المحبة في نفوس الطلاب والأساتذة الكثير. وكان له جمهور كبير من العامة الذين تأثروا بإنتاجه الغزير من الكتب الدينية في تخصصه.

وكنا في أوائل يناير، المطر يغسل البيوت والشوارع وينسى غسل قلوب الناس، والشيخ بسماحته، على الرغم من بدء الامتحانات، خصص لنا محاضرة مراجعة شاملة قبل امتحان مادته في اليوم التالي.

استكان الشيخ الأسيوطي في جلسته أمام محراب المسجد، وشكلنا نحن الطلاب دائرة حوله.

استكمال تفسير سورة يوسف، واستطرد في الشرح، ثم قال:

– وخرج «يوسف» من السجن بمشيئة الله، وليس كما اليوم بمشيئة الحاكم.

سرى بيننا هدير تذمر وتعجب واستغفار وتأييد.

استغفر الشيخ، ثم سأل: ألم تكن مشيئتهم في قتل «سليمان خاطر»؟

كان «سليمان» قرويًا مثلنا يؤدي الخدمة العسكرية في جنوب سيناء. أثناء خدمته تخطى إسرائيليون –سيقولون في الجرائد إنهم سياح– حدودًا محظورًا التجول بها. نادى عليهم للتنبيه من دون استجابة، أطلق عيارات

تحذيرية ولم يتوقفوا، أطلق الرصاص صوبهم طبقًا لما تقضيه الأوامر عسكرية لكن هذا لم يعجب من وضعوا تلك الأوامر.

الصحف القومية قالت إن سليمان خاطر مختل عقليًا، وقال أطباء إنه يعاني فوبيا الأماكن المظلمة، وهي تجعله يتخيل أمورًا خرافية كأشباح، وكانت الأشباح وطنه الكبير الذي جعل من وطنيته جريمة تستوجب العقاب ومرضًا نفسيًا يستلزم العلاج. حكم عليه بالسجن المؤبد 25 سنة، وبعد صدور الحكم بأيام أعلنت الصحف انتحاره.

تركنا المحاضرة وراء الشيخ، لننظم وقفة احتجاجية. كان الشيخ يهتف كما لو كان ابنه الذي قُتل.

لا أدري كيف تحولت الوقف الاحتجاجية الصامتة إلى مظاهرة كبيرة جابت أروقة الجامعة انضم لها المئات. هتفنا: «عسكري سينا مش مجنون.. عسكري سينا ما قدرش يخون.. أنتم قولوا ده مجنون واحنا نقول ما قدرش يخون». حاولنا تجاوز أسوار الحرم الجامعي، وتصدت لنا قوات الأمن المرابطة أمام البوابة الرئيسية للجامعة. أصيب طلاب وألقي القبض على آخرين. لم أصب كما فلت بأعجوبة من بين أيدي الأمن، فقط تحطمت نظارتي الطبية تحت قدم أحد العساكر.

جريت مع من جروا ناحية ميدان رابعة العدوية. دخلت شارع الطيران، ومنه إلى شارع عباس العقاد حيث الشقة التي أقيم فيها، وظننت

أن الأمر قد انتهى.

فجر اليوم التالي، دق باب الشقة بضربات عنيفة. كنت مستيقظًا لأداء الصلاة أما زميلاي فكانا غارقين في النوم. فتحت الباب بحذر، فدفعوه في وجهي..

– أنت «أسامة محمد صبحي الفاتح».

– نعم، أنا.

لف رجل ضخم ذراعي للخلف وألصق جسدي بأقرب جدار، واقتحم زملاؤه الشقة قلبوها رأسًا على عقب. قبضوا عليَّ وسحبوا زميلي أيضًا.

ستة أيام في مبنى أمن الدولة بلاظوغلي دون تهمة أو تحقيقات و دون نظارتي الطبية. معصوب العينين مكبل اليدين. أستأنس بحكايات غرباء عن التعذيب والقمع والظلم والحب أيضًا.

وفي اليوم السابع حققوا معي.

– ما صلتك بـ«أحمد شعبان»؟

– لا أعرفه.

– و«أحمد عبده»؟

– زميلي بالكلية.

– زمالة فقط، أم أنك عضو معه في التنظيم؟

- أي تنظيم؟

لكمني أحدهم، فأحسست برأسي يُرج.

- هنا.. لا أحد يسأل غيرنا؟

- والله لا أعرف أي تنظيم..

- ما حكم تارك الصلاة؟

- مذنب.

- مذنب، أم كافر؟

- مذنب، وله التوبة.

- مَن شيخك؟

- كل أساتذتي في الكلية شيوخي.

تلقيت لكمة أخرى.

- هل تحضر دروسًا للشيخ «جودة عطية».

- لا ، أحضر دروسًا خارج الجامعة.

- بشكل عام، ما رأيك فيه؟

- لا أحضر له دروسًا، ولا أقرأ كتبه ولا أسمع شرائطه.

- طالب في السنة النهائية بأصول الدين، ولم يسمع لـ«جودة عطية»!!

- لست مضطرًا لمتابعة كل الشيوخ، خاصة أنه غير أزهري.

- و«حامد النادي»؟

- قرأت له كتابين. فكره متشدد، خاصة ما يخص أحكام المرأة.

- النقاب فرض؟

- اختلف العلماء.

- وأنت؟

- أراه فضيلة يعز بها الله المؤمنات الزاهدات، وإن كانت أيامنا هذه تحض على ارتدائه.

- وما اعتراضك على هذه الأيام؟

أربع ساعات من الأسئلة شملت تقريبًا كل شيوخ الساحة، وأحكامًا دينية، ورأيي في الرئيس والحكومة، والغريب أنهم لم يتطرقوا من قريب أو بعيد لقضية سليمان خاطر، التي اعتقلوني بسببها. وفي اليوم التالي أفرجوا عن زميلي بالشقة، وحُولت إلى النيابة العامة لتوجه إليَّ مع باقي المحبوسين تهمتي قلب نظام الحكم وعداء إسرائيل، وأفرجوا عني بضمان محل إقامتي.

ذهبت إلى شقة مدينة نصر. كانت حقائبي وكتبي ملقاة أمام بابها. طرقت الباب. فتح أحد زميليَّ.

- كل ما يخصك في الحقائب. لا مكان لك معنا. كفانا ما جرى لنا

بسببك.

وأغلق الباب، وقدرت موقفهما؛ ومشيت.

كان صعبًا أن أجد بديلًا، ونحن في نهايات الفصل الدراسي. حملت حقائبي وكتبي بلا هدف. مشيت بصعوبة حتى مسجد في شارع مكرم عبيد، كنت مرهقًا والحقائب ثقيلة، وعيناي تؤلمانني. دلفت إلى المسجد وصليت العصر. ارتكنت إلى أحد أعمدة الجامع التي تتوسطه، أقلب مصير الأيام المقبلة. فاتني امتحانا التفسير والفلسفة الإسلامية، وضاع حلم التعيين في الجامعة. أي بلد هذا الذي يقتل فيك الحلم لمجرد أنك تعترض على شيء ما به؟!

انتزعت عيني بمشقة عن التفكير؛ لأرى الصوت الذي يدنو مني.

- «أسامة الفاتح».. متى خرجت؟

- اليوم بمشيئة الله.

كان صوت «محمد عبده» شقيق «أحمد عبده»، رئيس لجنة الطلبة بحزب العمل. تقريبًا لا يقام فعل احتجاجي في جامعة الأزهر إلا بإشرافه أو إدارته أو علمه على الأقل، أما «محمد» فليس له أي نشاط طلابي سوى المذاكرة.

نظر إلى الحقائب مليًّا ثم قال:

- هل ستعود للبلد؟

- لا.

لا يحتاج المشهد إلى ذكاء خارق؛ ليفهم «محمد عبده» ما جرى؛ فعرض عليَّ مكانًا شاغرًا في شقتهم.

شكرته، وادعيت تدبير مكان آخر عن طريق زميل بكلية الدراسات الإسلامية.

- لا تقلق يا «أسامة»، «أحمد» لا يقيم معنا.

وقبل أن نذهب للشقة، ذهبنا إلى محل للنظارات؛ لأشتري نظارة بدل التي كُسرت، ثم رحنا الشقة وفهمت حينئذ لماذا لا يقيم «أحمد» مع شقيقه، فالشقة أشبه بالبنسيون بها أربع غرف ويقيم بها 12 طالبًا، كل ثلاثة في غرفة. ولم يكُن لـ«محمد» أو «أحمد» قسوة أو شجاعة تعريض كل هؤلاء للمساءلة، وربما الاعتقال في أي وقت بسبب وجود «أحمد» بينهم.

تقاسمت غرفة مع طالبين بكلية الصيدلة، وهما «شاكر المحلاوي» من محافظة الجيزة و«موسى نور الدين» من محافظة الغربية. ومال ودي لـ«شاكر المحلاوي». كان بشوش الوجه، يفهم معنى الخصوصية لا يسأل عن أي شيء طالما لم تفتح سيرته معه. وقد حاول التخفيف عني بأن ضرب لي أمثلة كثيرة عن خريجين رفضوا التعيين معيدين بجامعة الأزهر، وصار لهم شأن عظيم بعد ذلك في الدعوة.

- ربما يا أخي أراد الله هذا؛ ليفيد علمك الناس أجمعين، وليس

الطلبة فقط.

قلت بصوت مهزوم: أتمنى أن أفيد نفسي بهذا العلم وكفى.

وأديت باقي الامتحانات بنفس مغمومة وعقل شريد وبصر في غاية الضعف.

وبعد آخر امتحان دعاني «شاكر» لزيارة منزله في إمبابة بمحافظة الجيزة. ولعل تلك الزيارة أزالت عني استغراب إقامة «شاكر» في شقة غريبة، على الرغم من أنه من أبناء الجيزة الجارة الملاصقة للقاهرة. استغرق الطريق من مدينة نصر إلى إمبابة نحو ساعة ونصف الساعة.

أسرته ودودة مثله رحبوا بي، واستقبلوني بأحسن ما عندهم من ضيافة، والحقيقة أن الحي كله كان لطيفًا دافئًا، مثل باقي الأحياء الشعبية، وإن كثرت لِحى الرجال وارتداء النساء النقاب.

وبعد الغداء قال «شاكر» إنه من الضروري أن أتعرف على الشيخ «سيد حفني»، والشيخ «سيد حفني» له في قلوب أهل إمبابة الكثير من الإجلال والتسليم بما يقوله مهما بلغ شططه عما ورد بالسلف.

وذهبنا إلى مسجد المرابطين القريب من كورنيش إمبابة حيث درس الشيخ «سيد حفني»، قبّل شاكر يد شيخه، أما أنا فلم أفعل. وكزني «شاكر» باسمًا لأفعل مثله، فلم أفعل. حدجني الشيخ بنظرة تفحص، وسحب يده إلى جيب جلبابه.

كان «سيد حفني» يستعد لخوض الانتخابات البرلمانية، مستندًا إلى شعبيته الجارفة في إمبابة منطقته التي ولد بها. صحيح أنه سافر إلى السعودية لعشر سنوات جنى خلالها الكثير من الأموال التي استغلها في بناء مسجد وجمعية خيرية؛ لكنه في النهاية ابن المنطقة التي لا تنقطع عن باله أو ينسى أهلها قط.

شكلنا دائرة كبيرة حول الشيخ ليتحدث عن نظام الحكم في الإسلام، وكيف أن البلد الذي لا يقيم حدود الله لا يمكن المثول لقوانينه باعتبار ذلك وضعية تخالف الشريعة.

قال بحزم: لن ينصلح حال المسلمين حتى تطبق شرائع الله في أرضه. الله غائب عن نظام الدول. وانهيار الخلافة الإسلامية بدأ بالاعوجاج عن الطريق الذي سلكه الخلفاء الأربعة. وعلينا إعادة ما كان حتى نبني أمة قادرة على مواجهة كفار الخارج بعد القضاء على كفار الداخل.

أمّن الجالسون على حديث الشيخ، غير أن «شاكر» تدخل على غير توقع مني على الأقل:

- يا شيخنا لا يمكن تكفير أحد. هذا حق الله وحده.

وجم الشيخ، وسأل مستنكرًا: وكيف إذاً نطبق شريعة قتل المرتد الكافر، إذا لم يكُن لنا الحكم بكفره؟

زاد «شاكر» في إصراره:

المرتد يجهر بكفره. يقول إنه كفر. وعليه فليس نحن من حكمنا عليه، بل هو من حكم على نفسه.

واستطرد صديقي في شرح فكرته ودب لغط بين الجالسين. وأدهشني «شاكر» بحديثه الطلق وسلامة حججه وسلاسة أسلوبه.

وتدخلت: لا أفهم يا شيخ كيف ترفض القوانين الوضعية للبلد وأنت ستخوض الانتخابات البرلمانية وفق هذه القوانين؟

اكتفى الشيخ بنظرة خاطفة لي ردًّا على سؤالي، ثم أكمل حديثه عن كيفية مواجهة كفار الخارج. وقبل «شاكر» يد شيخه، قبل أن نغادر المسجد، قائلاً:

– إن اختلافي في بعض النقاط مع الشيخ لا يعني أبدًا نقصان احترامي له، أنا أجله وأعتبره قدوة.

– كيف تعتبره قدوة وتختلف معه؟

– يشاع أن القدوة من الانقياد وراء الشخص وهذا غير صحيح. الأفضل ألا نسلم تسليمًا مطلقًا بالمرء. ثم إن الشيخ يسعد بهذه الاختلافات.

– لا أظن، ألم تلحظ وجومه حين اختلفت معه؟

– هذا وجوم المفكر لا الغاضب.

صمت، ثم قلت:

- ستكون ذا شأن يا «شاكر». أنت أفضل من «سيد حفني» و«عطية جودة» و«حامد النادي».

قال باستهانة: العبرة بالخواتيم. لا أحد يظل على حاله ربما كان «عطية جودة» على تفكيري نفسه في مثل سني. الدنيا تغير الناس بشكل لا تتخيل مدى انحرافه، من يؤيدون اليمين قد يصيرون بعد سنوات في أقصى اليسار، واليساريون ربما يصبحون قادة اليمين.

وعدت إلى أخطاب. سعدت زوجة عمي بالإجازة التي ستطول لأسبوعين. لم يتطرق أحد منهم لأمر اعتقالي وإن كان الغيظ يطفح على وجه عمي الذي صار عمدة أخطاب. وكان الشيخ «شافعي» أكثر من جالستهم خلال الإجازة، وقال لي فيما قال:

- أخطأت يا «أسامة». هل تتصور أن البلد سينصلح بهتافك ضد الظلم؟ الظلم سيزول عن الناس عندما يعرفون الله.

- وكيف سيعرف الناس الله وسط كل هذا الكفر؟

- أستغفر الله. هذا ليس كفرًا، هذا ضلال وطريقه إلى زوال. العدل مقبل على أي حال.

- تأخر العدل ظلم يا شيخ.

وسرعان ما انتهت الإجازة. عدت إلى الجامعة. وما إن انقضى أسبوعان على بدء الدراسة حتى اهتزت العاصمة بأحداث الأمن المركزي.

خرج عساكر محتجون ضد تمديد مدة خدمتهم الإجبارية لأربع سنوات بدلًا من ثلاث. خرجوا من معسكراتهم يحطمون ما يلقونه أمامهم. وقد شد الأمن البلد بحزام الاعتقالات. وكنت من بين المعتقلين دون أي سبب، يعني لا أنا مجند ولم أشارك في المظاهرات. كنت في المسجد عندما جاءني «موسى نور الدين» مهرولًا في خطوته وحديثه.

- جاءوا الشقة يبحثون عنك اهرب يا «أسامة».

وهربت إلى أخطاب. رحت للشيخ «شافعي»، ورأى أن الأسلم أن أبقى عنده، لأنهم حتمًا سيبحثون عني في بيت عمي.

ذهب الشيخ «شافعي» إلى عمي وحكى له ما جرى. وعاد الشيخ واجمًا تخالط ملامحه الكآبة.

وفي اليوم التالي. حضر الأمن لبيت الشيخ، واقتادوني إلى قسم شرطة المركز، ثم إلى لاظوغلي.

وطالت مدة الاعتقال هذه المرة، شهران غيرا مجرى حياتي كلها.

لن أطيل عليك يا «علي» فيما جرى خلال تعذيبي. كنت ضعيف النظر، أعاني مشكلة في قرنية عيني كادت في طفولتي تفقدني نورها للأبد. وكانت عيناي تأثرتا بشدة في اعتقالي الأول، ثم تأثرتا أكثر في اعتقالي الثاني بعدما كسروا نظارتي في مركز الشرطة. كانوا يغرقون رأسي في مياه بها مادة غريبة لأعترف بجرائم لم أرتكبها، ولا أعلم بوقوعها أصلًا،

تورمت عيناي وصار بياضهما بلون الدم، وعفن الزنزانة التي احتجزوني بها زاد من سوء حالة عينيّ.

ولم تفلح محاولات الأطباء بعد خروجي من المعتقل في إنقاذ بصيص نور، وهكذا.. صرت أعمى.

تركت الجامعة. وقررت العودة إلى «أخطاب»، غير أن زيارة الشيخ «شافعي» لي بشقة مدينة نصر استبقتني في القاهرة للأبد.

قال الشيخ «شافعي» إن عمي «يوسف الفاتح» عمدة «أخطاب» هو من أبلغ عني الشرطة.

– رأى أن القاهرة أفسدتك وأنك صرت خطرًا على منصبه. ولم تفلح توسلات زوجته، كما لم يقبل بوجودك عندي باعتباري حماه، أي من عائلته، فما سيقال في النهاية إن العمدة كان يؤوي مجرمًا. هددني بأنه سيبلغ عنك. لكني لم أتصور قط أنه سيفعلها.

– و«ناجي»؟!

– تعرف «ناجي». لا يهمه في الحياة سوى رضا عمه عنه.

وهكذا فقدت نظري وعائلتي ودراستي في أيام معدودة.

كان التواصل الوحيد مع زوجة عمي. ترسل لي خطابات بشكل أسبوعي. وكم تألمت من أن تتلخص علاقتي بها في ورق يروح ويجيء بصناديق البريد.

وكانت ترسل لي كل شهر حوالة بريدية بها مبلغ يكفي كـل نفقـاتي. رفضت في البدايـة؛ لكـن ضيق الحـال ومـا كتبتـه في خطـاب تـال أقـنعني. «عادت إليَّ الحوالة. أود أن تعلم يا «أسامة» أن هذا المال حقك ولـك منـه مـا يزيد. لا تنس أن عمك يدير ثلاثة أفدنة لأبيك منذ رحيله رحمة الله عليـه. لا تكن ساذجًا. الله لا يرضى أن ترفض حقك في مال أبيك. لا تكن مثاليًـا مـع بشر ليسوا مثاليين».

وانتقلت للعيش في إمبابة جارًا لـ«شاكر»، وظللـت بهـا حتـى انتقلـت إلى العباسية أواخر التسعينات.

الفصل الرابع

(1) «طه».. دموع الزواج

تراءى في عيني وميض ابتسامة «ضي» ويأس رسائلها، بينما تخبرنا «قسمت» بخبر خطبتها. «ضي» التهمتها نيران الفقر والجهل و«قسمت» تلتهمها السلطة والثروة. نهايات تليق بجبل العرب والزمالك.

لماذا لا يترك هذا البلد نساءه لحال سبيلهن؟ هكذا ستمضي «قسمت» عنا، لماذا لا تنتظر قليلا؟ أيمكن أن يكون ليسري دخل بخطبة «قسمت»؟ يجوز أنه لم يقبل اعتذاري عن التفكير في «قسمت» كفتاة تصلح للحب، قرر أن يثنيني عن مشاعري المتهورة تجاهها، أيمكن للأموات أن يتوسطوا عند الله لأداء خدمة معينة؟ لو صح فمؤكد أن «يسري» توسط عند الله كي تُخطب «قسمت» وأبتعد عنها. واضح أنك جُننت يا طه.

اختصر «علي رشدي» التعليق على خبر خطبة «قسمت» بسؤالها عن العريس المنتظر..

أجابت: ضياء المنيري. طلب يدي منذ ثلاثة أسابيع.

– ابن أحمد المنيري؟

– نعم. هو..

قلت بينما أتأمل رصيف المقهى: إنهم عائلة واحدة تتزوج من بعضها حتى لا يخرج إرث السلطة عنهم.

حدجتني «قسمت» بنظرة لوم، ثم قالت إنها ترفض الزواج بهذه الطريقة وإنها ستقلب الطاولة على الجميع يوم الخطبة.

– ولماذا لا تقلبيها الآن؟ هل قلب الطاولات يحتاج مواعيد محددة في عالمكم؟

– عالمنا ! ! هل نحن كائنات فضائية؟

– وارد جدًّا.

وقالت «قسمت» إنها مصدومة من برودنا تجاه مشكلتها، وإنها كانت تنتظر وقوفنا إلى جانبها وإنها ستحل الأمر بمعرفتها.

وأنا ضحكت. ضحكت من قلبي فعلا. يعني هل يعقل أن أنتفض لأحل مشكلة خطبة ابنة «رأفت العباد» بطريقة تقليدية، في حين أن «رأفت العباد» نفسه قتل أخي ولم أنتفض لحل مشكلة ثأري معه..

قلت: أي مشكلة يمكن حلها ما دام أطرافها لم يرحلوا بعد.

وقال «علي»: الغريب أنك تعرفين بمسألة الخطبة منذ فترة ولم تخبرينا سوى الآن لنبحث لك عن حل ! !

وقالت إنها لم تصدق أن أباها سينفذ ما قاله، فهي رفضته في حينها. لكن الأمور تسير بجدية تامة في شقة مدينة نصر، الخطبة بعد يومين.

والحقيقة أن جزءًا ما انشرح في قلبي بخبر ارتباط «قسمت»، كأن ارتباطها حل عقدة اختفاء «يسري» وفك صمت «زُهرة» وأعاد لـ«عبد ربه» حقه من أبو ريشة. ووددت لو أطير إلى «زُهرة» و«عبد ربه» لأخبرهما أن «قسمت» التي لا يعرفانها ستتزوج «ضياء المنيري» الذي لا يعرفانه. إن ارتباطها يزيح عني إثم تحرك مشاعري تجاهها. يزيح عني خطيئة خيانة «يسري».

وكان جزء آخر في قلبي يحترق. «قسمت» لا تستحق أن تكون ضمن صفقة بين حفنة من البشر لا يجيدون سوى إبرام الصفقات. هي رقيقة ورائقة وعلى الجميع أن يفهم هذا.

وقالت «قسمت» وهي فاقدة التعاطف مع مشكلتها: عمومًا سيحدث يومًا ما أن تتعرضا لمشكلة وسأبادلكما نفس البرود الحاصل الآن منكما.

ورد «علي» بسخرية: عزيزتي نحن في هذا «اليوم ما» فلتبدئي انتقامك.

* * *

كادت مسألة خطبة «قسمت» تهز الجبل في عيني، كما كادت ترسخه في أعماقي أكثر. وكان أبي يجالس جمعًا من الناس أمام عشتنا. كانت الجلسة تشبه العزاء.

وكثر كلام المواساة، والمواساة هنا كانت لـ«عبد ربه» في ابنه «يسري».

وما جرى أن القضاء برأ السيد «رأفت العباد» من تورطه في غرق السفينة وغرق «يسري». عظيم جدًا، في بيت «رأفت العباد» خطبة وبراءة في أسبوع واحد. وتطيرت بسؤال مر أمام جلسة المواساة.. لماذا اختارت «قسمت» يوم براءة أبيها لتخبرنا بخطبتها؟

كانت «زُهرة» تتابع باستسلام تام خبر براءة قاتل ابنها. لم تعلق ولم تبك، سكتت.

قال «عبد ربه»: إن الله لا يرضى بما يجري وإن العدل سيحققه الله يومًا ما.

وقال الحاج صادق: أنا لم أر في حياتي كلها عدلا تحقق. هل سننتظر كثيرًا على هذا الحال؟ ما رأيك يا باشمهندس؟

وقلت: الحقيقة إن إدانة رأفت العباد كانت ستكون هي المفاجأة لا تبرئته.

وقالت «الست»: والله «يسري» ارتاح من هذا القرف.

وقال عطيه شفيق وهو يمسح على رأسه: صلوا على النبي.

(2) «علي».. مشاعر معقدة

«بثينة» تزوجت.. و«قسمت» ستتزوج.. و«ليلى» تنصحني بالزواج. يبدو أن هذا البلد يحل مشاكله بممارسة الجنس على سنة الله ورسوله.

وددت لو أحتضنها وأملس على شعرها وأطمئنها أن كل ما تخاف منه لن يحدث، وأنني أقف بجانبها حتى النهاية، وأن مشاعري ناحيتها ليست مجرد صداقة وأنني سأخطبها غدًا من والدها، لكنني قدمت لها التهنئة وسألتها ببرود عن اسم عريسها المنتظر.

و«قسمت» غضبت. ما الذي «عليّ» فعله؟ بعيدًا حتى عن مسألة أنها ابنة «العباد».. ما الذي يمكن أن أقدمه لها؟ أنا لم أفعل شيئًا أوقف به مهزلة زواج امرأة في الستين تسكن في بيت المنارة، فكيف أقدم لهذه الفتاة مساعدة؟ يمكنك يا عزيزتي أن تأتي معي بيت المنارة ونصعد إلى غرفتي ونغير سويا مكان الدولاب والسرير ونمزق الصور المعلقة على الحائط ونلقي المزهرية من الشرفة، هذا كل ما أستطيع تغييره. أقولك لك، أنا حتى لا أستطيع اصطحابك إلى بيت المنارة، ربما رمت «بثينة عبد الكريم» مع زوجها السرير والدولاب والكتب والصور وراء المزهرية؛ فإذا ذهبنا ما وجدنا سوى صينية عليها كوب شاي به سم.

ونفضت للشيخ كل هواجسي..

وسألته: كيف يكون الحب الصادق يا شيخ؟

- الحب الصادق هو أن تجيد البقاء مع حبيبك مهما جرى منه ومن الناس.

- هل أنا أحبها؟

- لا تسل غير قلبك.

- قلبي ينشرح بوجودها قربه ويتألم في البعد. وضميري يتألم بقربها ويستريح في البعد.

- وما الذي فرّق بين القلب والضمير؟

- عقبات أمامنا لا حيلة لي أو لها بها.

- لو كان حبًّا ما رأيت أي عقبة أمامك.

- إذن أنا لا أحبها؟!

- النضج سيكفك عن هذه الحيرة.

- وهل أنا لم أنضج بعد؟

- ستنضج حينما تكف عن الحنق على والديك، وتستوعب البلاء بالحمد وتقبل أعذار الحياة بسماحة تُدهش غير الناضجين.

- معنى ذلك ..أن أنتظر؟!

- العمر أقصر من انتظار اللحظات المناسبة لتقديم مشاعرنا تجاه

الآخرين.

أوقعني الشيخ في حيرة أكبر، وهو قام ليصلي العشاء، ورحت الأندلس. كان المقهى يلفظ زبائنه مع قرب منتصف الليل.

وسألت دغش عن الحب وهو ضحك ثم قال: الحب يا باشمهندس قضاء وقدر.

- يعني لا دخل لنا به؟

- طبعًا.

- وكيف يُعرف الحب؟

- عندما لا تفكر في جسد التي تحبها.

- أنا لم أفكر في جسد أي امرأة قابلتها في حياتي، معني هذا أنني أحب كل النساء اللاتي قابلتهن في حياتي!!

قهقه دغش: هذه معضلة تحتاج لطبيب وليس لكلام في الحب.

وفي الطريق إلى الشيخ «أسامة» حاولت أن أفكر في «قسمت» كجسد وفشلت تمامًا وحاولت مع «ليلى» وفشلت أيضًا. وفي اليوم التالي دخل دغش في نوبة ضحك حتى التصقت بطنه بفخذيه..

- يا باشمهندس هذه المسألة تحتاج لسرير وليس لطريق، ثم بالله عليك هل شوارع هذا الحي تستدعي أي رغبة جنسية؟ إنها لا تستدعي سوى البوليس.

– التحرش يملأ الشوارع يا معلم.

وضع ساقًا فوق أخرى وتكلم كخبير نفسي: هذا صراخ الأجساد بعـدما قُطعت الألسنة يا باشمهندس.

(3) «قسمت».. لا فائدة

خرجت «مهجة» من مكتب أبي ممتقعة الوجه مسرعة المشية. جاءته لتقنعه بالعدول عن قرار خطبتي إلى ابن «المنيري» فقدم لها أخطاءها على طبق من ماضٍ.

قال لها: «مهجة».. المسألة منتهية تمامًا.

– هي ابنتك الوحيدة ولا يصح أبدًا أن تُزوجها رغمًا عنها.

– لأنها ابنتي الوحيدة فأنا أصنع لها مستقبلا ستشكرني عليه فيما بعد.

– ومن قال لك إنها ستشكرك؟ ربما تلعنك.

– تلعنني؟! لماذا ستلعنني يا «مهجة»؟ هل سأزوجها لإرهابي مثلا؟ بلطجي؟ أنت آخر من يقدم نصائح حول الزواج. ماضيك يمشي على قدمين أو بالأحرى مسجون في سجن وادي النطرون.

– لن تتغير.. فعلًا أشفق عليك. في المجتمعات المتحضرة أمثالك يُعالجون نفسيا ثم يقدمون للمحاكمة بتهمة قتل الناس.

ضحك أبي: فعلا!! قتل الناس.. أظن أن هذه التهمة تليق بشخص آخر.

* * *

نوفمبر 1991م

لحيته تمنحه وسامة ووقارًا لكنها تخفي غمازتين تزيدان ابتسامته إشراقًا.

ارتشف بعضًا من عصير البرتقال الذي طلبه قبل نصف ساعة، ولمسه حين نبهته، كان «يحيى» شاردًا يعصر كفيه بلا هدف. يتأمل النيل والبنايات التي على ضفته الأخرى وزبائن الكافيتريا التي اعتادت لقاءاتنا.

ظل عالقًا بين خيوط شروده ليقول بلا مقدمات إن صديقه «محمد بسيوني» اعتقل..

- متهم في حادثة الاغتيال الأخيرة.

وسألته عن مدى تورط صديقه في محاولة اغتيال رئيس الوزراء فلم يعطني ردًا يصلح كإجابة..

قال: كل يوم يموت شاب في المعتقل ولا يدير البلد له عنقه، ويكمل مسيرته العادية في قتل الناس، وعندما يموت كهل لا يفيد الدنيا بشيء تنقلب الدنيا ولا تقعد.

قلت بهدوء: وهل قرر صديقك قتل الكهل الذي لا ينفع الدنيا بشيء؟

توتر من حياديتي تجاه الطرفين وفتوري حيال القضية كلها. ومن أين يأتي الحماس؟ هذا البلد لم يعد فيه أي وجاهة أو هيبة للموت. بات عاديا ومتوقعا.

حــدجني بنظــرة عاتبــة، وخطــر ببــالي هــاجس فــسألته بــسرعة:

«يحيى».. هل لك علاقة بالاغتيال؟

وأقسم أنه ليست له علاقة بالموضوع وأنه لا يتورط في الدم أبدًا.

(4) «طه».. «محمد» يعود للحياة

انتفض جبل العرب وكان هذا على يد «عبد ربه».

استرد «عبد ربه» جريان الحياة، ولمَّا لم يعد له شغل؛ فشغل وقته بزيارة أضرحة أولياء الله الصالحين ومجالسة أهل الجزيرة وأحيانًا الفرجة على التلفزيون وبخاصة برامج التوك شو..

– القيامة ستقوم. إنهم ينتقدون الرئيس في التلفزيون.

– الزمن لا يبقى على حال يا أبي.

– لكن الزمن لا يقترب من الرؤساء يا بني.

واستمرت زياراته لـ«ضي».. يقرأ ما تيسر من القرآن. ويحكي لها عما تفعله الدنيا بالجبل والناس ثم يسقي الصبّار ويدعو لها ولموتى المسلمين، ويمشي. وذات مرة كان عائدا من زيارتها، رأى كشكًا جديدًا يبيع قصاري فخارية فآثر الشراء منه والعودة بـ«شروته» مرة أخرى إلى مدفن «ضي» لينقل الصبار فيها.

كانت القصاري ثقيلة ففكر أن يحملها في أكثر من مرة، في المرة الثانية ترك باب المدفن مفتوحًا وراح ليأتي بباقي الفخار، وبينما كان عائدًا لمح ظلاً يقف بين المقابر، ثم اختفى الظل بهوادة داخل حوش قبر «ضي».

اقترب «عبد ربه» بهدوء. سمع صوتًا ينشج بالبكاء.

كان «محمد شوقي» يجلس مقرفصًا أمام قبر «ضي» ويبكي بحرقة. دلف «عبد ربه» إلى الحوش. ربت على كتف «محمد» فارتعد الاثنان. لوى «محمد» عنقه ناحية «عبد ربه» ثم قال بصوت مهزوز بالدموع: كلنا قتلناها يا عم عبد ربه.

– هون عليك وعلينا. هي الآن عند ملك حق. والعدل هناك لا هنا.

– ولماذا لا يوجد عدل هنا؟ لماذا عليّ أن أنتظر الموت لكي أرى عدل الله في الآخرة؟

جلس «عبد ربه» جواره وسأله بهدوء

– أين كنت يا «محمد»؟

وعاد «عبد ربه» حاملاً ما قاله «محمد». وكان حملاً ثقيلاً أوقعه بين مطرقة الخوف من كتم الحق وسندان الإساءة لسمعة ميتة. ولمَّا كان «شوقي» اختفى من دون أثر له بعد حادثة سرقة المسجد؛ فقرر البوح لأن الكتمان يترك المجرم حرًا طليقًا وربما صعاليك الجبل وهم كُثر يعثرون على أثره يومًا ما فيمسكونه ويسلمونه للبوليس.

حكى «عبد ربه» ما عرفه. «شوقي» داوم على مضاجعة ابنته لسنوات. لم تكشف «ضي» مصيبتها لأحد لكن «محمد» عرف بطريقته أو أعطاه القدر الفرصة، هو لم يقل أكثر من ذلك.

تحول قلبي البارد أمام حب «ضي» إلى كرة من اللهب تريد أن تحرق

كل أعشاش جبل العرب. لماذا سكتِ يا «ضي»؟ لماذا لم تصرخي؟ أخفتِ أن تعودي خائبة كما عادت رسائلك؟ أنا شريك «شوقي» في الجريمة، كلانا تواطأ عليها، هو على جسدها وأنا على قلبها. هل تعودين لنعيد ترتيب كل شيء من جديد؟ سأكتب لك رسائل الحب حتى ولو كان حبًا كاذبًا، وسأمنع عنك كل الكتب التي كُتبت منذ أن عُرف الحبر والورق، وسأتزوجك عندما تخرج «زُهرة» من حزنها.

يوم أن أحرق «محمد» كتب «ضي» كان عرف بما يفعله أبوه بأخته. قرر بعشوائية واهتزاز معاقبة الضحية. حرق كتبها. ربما ظن أن المعرفة قد تزيد من مأساتها فحرق الكتب؟!

وأُلبست «ضي» صمتًا لا تخرج منه.

قال «شفيق الشق»، الذي كان يكن غيظًا لـ«ضي» ولأخيها انتقامًا، في اشمئزاز: رجل ناقص. الله يجحمه.

وقال الحاج صادق: رحمها الله. ارتاحت من هذا العالم. عوضنا على الله في ضياع المروءة.

وقالت «حميدة» زوجة الشيخ مصباح: حتى لا تنخدعوا مرة أخرى في الناس. لا تصدقوا من يصدرون لنا وجه المساكين.

ودعت «الست» على الظالمين جميعًا. أما «زُهرة» فاستمرت في صمتها وشحوبها وبدا الإعياء واضحًا على وجهها.

وسرعان ما مُط خيط حكاية عائلة «شوقي» ليصل إلى الدويقة ومنشأة ناصر كلها. وعلى قدر ما كانت الألسن تتناقل القصة كانت العيون تدور بحثًا عن «شوقي» النذل. وأقسم «زينهم» الحلاق أن زبونًا ما قرأ وهو يحلق له ذقنه خبر الجريمة في جريدة «الأهرام».

كتبوا اسم الضحية «ض. ش». ولم يكتبوا كم كانت جميلة وكم يكون هذا العالم قذرًا..

– أنت تكذب يا زينهم؛ سيكتبون عن حادثة لم يبلغ عنها أحد ولم يعثروا على الجاني؟

وعرفنا أن «كفاية» حررت محضرًا في الشرطة ضد زوجها «شوقي» باغتصاب ابنته ما دفعها للانتحار.

انشغل الناس بدناءة «شوقي» ونسوا «محمد». وما إن انقشع انفطار القلوب على «ضي» عاد الناس للسؤال: إذن أشلاء من التي دفناها طالما أن «محمد» حي يرزق؟

وعكس الناس الحكاية وقالوا: إن «محمد» هو الذي قتل معلمه «شماتة» لخلاف لا يعلمه غيرهما.

وأعيد التحقيق في واقعة قتل «محمد شوقي» التي لم تحدث. وحفظ التحقيق من دون أن نعلم من الذي قُتل وما سبب القتل؟

وبعد أن هدأت الأمور زار «محمد» الجبل وقال إنه عرف أشلاء من

التي دفنوها على أنها أشلاؤه. وقال إنها لـ«شوقي» أبيه. ولم يصدقه أحد، ومن صدقه في نهاية الكلام مال إلى أن «محمد» نفسه هو من قتل أباه، ولم يستزد الناس في البحث عن الحقيقة ربما لأنهم آمنوا أنها ستكون مزعجة وغير مجدية بالمرة.

(5) «علي».. لا مُستقر

كان الخريف يلف حباله على جذوع الشجر فيسقط أوراقه. وكنت استكملت أوراق السفر. قبلتني أخيرًا جامعة بكندا لاستكمال الماجستير بها.

اشتريت كبابًا وكفتة من عبده الحاتي الذي يفضله الشيخ أسامة؛ احتفالاً بإنهاء إجراءات السفر. وكنت إتفقت مع «طه» أن يشاركنا العشاء.

أما «العباسية» فرفضت الاحتفال.

غيم جمع غفير مدخل العمارة التي يسكنها الشيخ «أسامة» ومن قريب وقفت سيارتا إسعاف وشرطة.

«عطوة» هناك يستغفر الله و«عبده دغش» تلمع عيناه ببكاء مكتوم.

لمحني «عطوة». هرول ناحيتي وهو يمسك بطرف جلبابه..

قال بتقطع حزين وعيونه تملأها الفراغ:

– وجدوا الشيخ «أسامة» مذبوحًا في حجرته. معدومو الضمير. من يقتله؟ رجل كان يتحط على الجرح يطيب. ربنا يرحمه ويجحم الظالمين.

ارتعدت. المؤمن الوحيد في هذا البلد مات مذبوحًا. ربما عليّ الانتحار لأوقف مهزلة الموت الفجائي هذا. رفعت نظري إلى السماء مستسمحًا إياها أن تُمطر أو تأخذني. ومن الذي يقتل الشيخ؟

خرج الشيخ من بين الجمع المتكدس في مدخل العمارة نائمًا بوده المعهود محمولاً على ترولي وفوقه قطعة قماش بيضاء مصبوغة بدوائر الدم. دُفع إلى داخل عربة الإسعاف.. أين ستذهب يا شيخ؟ قم من هذا الدم، وأعدك أن أبحث عن الله في قلبي وفي كل مكان.

أحد رواد مقهى الأندلس الدائمين كان يتحدث إلى ضابط شرطة ويشير إليّ. تقدما ناحيتي.

قال الضابط بصوت رخيم أو هكذا سمعته: هل كنت تقيم مع القتيل؟

هبطت كل الكلمات عن ذهني: أي قتيل يا هذا؟ إن الشيخ ينتظر العشاء.. ثم أين «طه» لقد تأخر والكباب سيبرد؟

- هل كنت تقيم مع القتيل؟ ألا تسمعني؟

بتردد: نعم.

- سؤال كهذا يحتاج كل هذا التفكير؟

إلتفت الضابط إلى رجاله المرابطين إلى جوار سيارة الشرطة وجاء اثنان منهم مسرعين وسحبوني إلى قسم الشرطة.

بعد تحقيق طويل، أنقذتني استعلامات السفارة الكندية وشهادة الحاج «عبده» الحاتي اللتان أكدتا غيابي عن حجرة الشيخ وقت وقوع الجريمة.

(6) «طه».. أضغاث سُكر

الخامسة صباحًا، «بريك» شبه خال. رواده انسحبوا للنـوم في بيـوتهم أو في بيوت غريبة. أما «علي» فبقي. مدد سـاقيه علـى كرسـي خـشبي لاويًـا جذعه وعاقدًا ذراعيه فوق طاولة عليها زجاجة خمر فارغة وكأس به بعـض خمر، وهو ليس من عادته الشرب.

سحبت كرسيًا وجلست جواره. وغاب عن لساني كل كلام المواسـاة. أي مواساة في هذا العالم؟ ولمن نقدمها؟ «يـسري» غـرق في البحـر الـذي يخافـه، و«ضي» اغتصبها أبوها وانتحرت، و«محمد شوقي» المـدمن ندفنـه أشـلاء ثـم يعود بسلاسة غريبة للحياة، والأغرب أن يتقبله الناس بشكل عادي جـدًا، والشيخ «أسامة» العـائش في رحـاب الـسماحة يمـوت مـذبوحًا. تُـرى كيـف ستكون نهايتي؟

– رحم الله الشيخ. لم يكُن له أعداء. تُرى من قتله؟

قال «علي» بصوت مبحوح وهو يدس رأسه بين ذراعيه: أنا.

– أنت سكرت؟

– بل أنا قُتلت.

– ربنا يرحمه. الصدمة كبيرة. لا يعـيش الطيبـون في هـذا الـزمن. إن

شاء الله في الجنة.

قال بثقل السُكر: لم تحبه يومًا. لا تدعي الحزن.

– لا أدعي شيئًا يا «علي». الموت يفرض الحزن مهما كان الميت. وأنا لم أر سيئا من الشيخ. كنت أرتاب فقط من حياته. وها هي نهايته مريبة أيضًا. عمومًا هو بين يدي أرحم الرحمين.

– كيف كانت الجنازة؟

– لا يزال الجثمان في المشرحة. بعض من أهله حضروا أمس. وستقام الجنازة في قريته «أخطاب». لم أكن أعرف أن للشيخ أخًا.

– أين رأيته؟

– في قسم الشرطة، وصلينا العشاء في مسجد النور.

ربت على كتفه مترحماً على الشيخ وسألته: شمعوا حجرة الشيخ.. أين ستقيم لحين موعد سفرك؟

(7) «علي».. أنا أسكن الجبل

رفض «طه» في البداية، قال إن جبل العرب لأهله، ولا يمكنني قضاء ليلة واحدة في مشقته، فما بالنا بأسبوعين حتى ميعاد السفر. وطرح أسماء كثير من زملاء الهندسة للمكوث معهم حتى السفر. أصررت وهو قبل.

استقبلني أهل الجبل بشيء كبير من الترحيب والاحترام، وكانوا هم من يبادرون بالتعارف وفتح الأحاديث والتأكيد على وصل الود في مستقبل غير متأكدين من مجيئه.

ولم ينغص الحياة بالجبل سوى مسألة المياه. في نهاية كل ممر يوجد حمام أو مكان يسمونه حمام بلا صنابير، به فتحة محددة بالإسمنت لفضلات الناس موصولة بمواسير إلى بطن الجبل، وقوارير ممتلئة بالمياه تعوض مسألة غياب الصنابير هذه.

أول أيامي بالجبل، جاءتني سيدة سبعينية تحمل جسدها بعصا في يدها اليمنى، وبتوازن كبير تحمل فوق رأسها صينية بطاطس.

- عمايل ستك «الست».

شكرتها، ربتت على يدي ودلفت إلى العشة. وضعت الصينية على طبلية بعدما عدلتها على الأرض. كانت تلهث وتسعل في الوقت نفسه.

قالت وهي تعيد ترتيب طرحتها إلى الوراء وتسند جلستها على

- أنت خوجة في الجامعة؟

ابتسمت وقلت: نعم. خوجة في الجامعة.

- حاكم أنا متعلمة. رحت الكتاب والشيخ قال مخها حلو وتنفع في المدارس. أخذت الابتدائية وأمي الله يرحمها قالت كفاية. خافت المدارس تأخذني وأعنس.. وتزوجت سيدك أبو إسماعيل الله يرحمه.. عندك عيش؟

جلست جوارها قلت إني أحب أكل البطاطس بلا عيش أو أرز. ضربت كفيها

- أُمَّال انتوا مخسعين من شوية!! الله يمسيه بالخير سيدك أبو إسماعيل كان في شبابه يفطر بصينية بطاطس ياكلها بست أرغفة وطبق رز.. كان يشقى طول النهار. كان زبال قد الدنيا.

ابتسمت وسألتها: اسمك «الست» فعلاً؟

- خالي الله يرحمه سماني «الست». قال إنه سماني «الست» كي لا أنسى أبدًا أني ست.

وعرفت منها أنها استقرت بالجبل مع زوجها أبو إسماعيل في السبعينات. الدنيا ضاقت بهما في بولاق وتراكمت عليهما الديون فتركا الديون وبولاق وجاءا الجبل ووراءهما خمسة أطفال، جميعهم اشتغلوا مع أبيهم في فرز الزبالة.

على الرغم من ضعف سمعها وندرة بصرها تعرف كل صغيرة وكبيرة تجري في جبل العرب. أمست شغلتها بعد ثقل الحركة أن تلم الحكايات وتدسها في صدرها، تعيد تدويرها وتيسرها من عبها بسلاسة وتشويق.

حكت لي عن الشيخ مصباح وسر تسميته بأبو ريشة.

– في شبابه كان دِني. اللهم احفظ بناتنا، لقوه مع واحدة في أوضة نومها. نط من بلكونة الأوضة كانت في الدور التالت ولم يصب، فسموه «أبو ريشة».

وتزوج «أبو ريشة» من «حميدة» في ظروف غامضة أيضًا. فجأة جاء بها إلى الجبل وقال إنه تزوجها على سنة الله ورسوله. والكثيرون تناولوا سيرة «حميدة» بالسيئ وقالوا إنها لقيطة وتزوجها الشيخ لأسباب تخص حسابات لا يعلمها غيره.

وحكت عن «عُرابي» بائع الهيروين.

– الله يجحمه. كان عايش في الجبل لكن الهيروين فتح له بيت كبير في السيدة عائشة. مسرح عيال صغيرة تبيع الداء ويعطيهم ملاليم.. رجل مفتري. تسمع عن «شماتة» كان شغال في المخدرات لكن زهق فبطل مثلك كدا يا أستاذ.

– أنا؟

– مش قلت لي إنك تركت الجامعة.

وحكت «الست» عن جلسة الحشاشين. وحدث أن دعاني لها الحاج «صادق» في يوم تالي.

جلسة الحشاشين تبدأ منتصف الليل وتنتهي قبل الفجر. يفرشون على قمة الجبل حصيرة ويشعلون النار في عيدان ونشارة خشب محاطة بدائرة رملية كبيرة. يشربون الشاي المغلي بالنار الرملية كافتتاح للجلسة ثم يأتي دور النرجيلة. يضع أحدهم الفحم في فم النرجيلة ومع احمراره يضعون قطعة حشيش فيتناوبون عليها بعدل تام وبشاشة مفرطة.

– شرفتنا..

قال الحاج «صادق» وهو يناولني كأس الشاي.

و«صادق» أشهر حاج في الدويقة كلها. أدى «صادق» الحج بطريقة يراها عادية. كان يعمل نشالاً في محطة مصر، لكن الله فتح عليه وأتته الفرصة التي انتظرها وسعى لها لأعوام وهي السفر إلى السعودية لنشل الحجيج أثناء موسم الحج. يصف أيام سرقته في الأراضي المقدسة بأحلى الأيام..

– كنا نسافر كعمال نظافة أو خدام للحجاج. بشرفي لم أسرق يومًا حجاج فقراء. حرام طبعًا.. كنت أركز على الأغنياء.

– وسرقة الأغنياء حلال؟

– الأغنياء لا بُدَّ أن يُسرقوا يا باشمهندس. هؤلاء يذهبون للحج لنفاق

الله ثم يعودون ليظلموا فقراء الله.

والحاج تاب لله عن النشل، بعد الخمسين قرر التقاعد، يده صارت ثقيلة، الزمن لم يترك له صحة يحتاجها النشل، الآن يعمل سماك ويساعده ابنه طارق.

ضحك عطيه ملمع الأحذية وقال بعد أن طرد أنفاس النرجيلة على مهل: الحاج صادق حج بيت الله لكن لا يصلي ولا يصوم ولا يؤدي من الفرائض شيئًا.

تجشأ صادق ثم قال بثقة

- سيسامحني الله على الصلاة. والصوم مفروض أصلًا للأغنياء ليشعروا بجوع الفقراء. نصوم ازاي شهر رمضان ونحن جوعى طيلة السنة؟

ضحك عطيه على وقع قرقرة الحاج: دين أمك هذا يا حاج؟!

وضحك الجياع وضحكت معهم واعتذرت عن دوري في مناوبة النرجيلة. وسأل عطية: حشيش الجبل لا يليق؟

وقال رجل لا أعرفه: مؤكد حشيش «العباسية» أفضل.

واعتذرت بأني لا أشرب الحشيش كله، سواء في الجبل أو العباسية، وهم اندهشوا، وقال الحاج: تعيش بلا حشيش! ! أنت أسطورة يا جدع.

وسألتهم لماذا يرضون بالجوع ولماذا لا يفعلون شيئًا ضد من تسبب في

فقرهم؟

انخرطوا جميعهم في نوبة ضحك وصلت لطريقة هستيرية مع حلاق الجبل. ما اسمه؟ نسيته.

وبعد أن انفض الضحك، قال أحدهم بعدما أطلق كحة كأنه في النزع الأخير وبرزت عروق رقبته بطريقة خطرة:

- هذا البلد خازوق كبير.

- ماخور من فضلك.

وقلت إن مطالبتهم بالحرية والديمقراطية ستضمن لهم زوال الجوع، وضحكوا مرة أخرى.

وقال باسم، وهو شاب أظنه في أوائل العشرينات، وهو بين السطل ورؤى الحقيقة: يا أستاذ.. أنا لا أحلم بالحرية والديمقراطية وهذا الكلام الكبير. أنا أحلم فقط بأن لا اضطر لبيع كليتي لأنفق على علاج أمي من السرطان الذي يأكل كبدها.

- الحرية ستضمن علاجًا لأمك. ستضمن لكم جميعًا حياة كريمة.

وسكتوا جميعًا ولم يبق سوى قرقرة النرجيلة.

(8) «طه».. طلاق

لم يشغل خبر طلاق «بثينة عبد الكريم» بال «علي رشدي» مطلقًا. قال ببرود وهو يُدق رجل الطبلية بمسمار كنجار محترف: تثبيته يحتاج مسمارًا آخر وجاكوشًا أعرض من هذا.

– يا أخي والدتك طُلقت. أتسمعني؟

– وماذا فعلت بعد طلاقها؟

– لا شيء. اشترت كلبا وزرعت ريحان فوق سطح البيت وصارت سعيدة جدًّا.

– أقالت لك هذا؟

– نعم..

– رجل معجزة فقط من يستطيع الاستمرار مع هذه السيدة.

– لكن والدك استمر.

حدجني بنظرة عتاب وأكمل دق الطبلية بمهارة.

قلت: طيب. ألا تريد أن تعرف لم وقع الطلاق؟

رد باستهانة: لم؟

– قالت إنها رأت والدك في الحلم يرتدي بدلة عرسه وهو يربت على كتفها ويملس على شعرها وطلب منها أن تترك زوجها حتى يستطيع أن

يتزوجها في الآخرة.

وقع الجاكوش من يد «علي» من فرط اهتزاز كفه ضحكًا. كان ضحكًا هستيريًا وقد لمحت دموعًا في عينيه.

– ما المضحك فيما قلته؟ ألا تصدق أنها رأت والدك في الحلم؟!

– لا أصدق أنها تحلم أصلًا كباقي الناس. ثم من أين جاءت بإيمان أنها ستتزوج أحدًا في الآخرة؟

– عمومًا هي اتصلت بي وتريد مقابلتك.

– أخبرتها عن سفري؟!

– لا. فضلت أن تأت منك.

فاجأني تأقلم «علي» في جبل العرب. يتعامل مع أهله كما لو أنه تربى بينهم، بل إنه أحيانًا ما يصعد إلى قمة الجبل ليجالس الحشاشين. «علي رشدي» صار صديق الحشاشين، لا بل ونقل نشاطه الثوري من الجامعة إلى هنا، إنه يحرّض الناس على التحرك ضد الظلم الذي سبّب فقرهم!!

– فعلًا الثورة التي تتحدث عنها لا تناسب سوى الحشاشين.

– صاروا حشاشين بسبب الأوضاع المؤسفة. إنه استسلام لا أكثر.

والأغرب ترحيب أهل الجبل به. إنهم يكشفون له أسرارهم كأنه واحد منهم على غير عادتهم المتوجسة من كل غريب.

أقام «علي» في عشة «كفاية» و«شوقي». زارت «زُهرة» الدرب الأصفر وطلبت من «كفاية» أن يقيم «علي» في عشتهم لحين ميعاد السفر القريب، وافقت وقالت إن بإمكان أي أحد أن يأخذ العشة أو أن يحرقها أو أن يفعل بها ما يشاء وهي لن تعترض في أي حال..

وسألت نفسي، كيف يقيم «علي رشدي» في مكان شهد على وساخات «شوقي» مع ابنته وحرقت فيه «ضي» نفسها واحتضنت مشروع تاجر مخدرات كـ«محمد» وبلادة كفاية؟ ثمَّة تناقضات تصنع مسارًا يبدو متسقًا وصحيحًا.

(9) «علي».. السيدة «بثينة عبد الكريم»

بدت تقاطيعها أكبر وبخطوط عجز لا منتهية. هـل يـشيخ الإنـسان في عدة شهور؟!

استقبلتني في الصالون. كانت ترتـدي عبـاءة قرمزيـة مطـرزة بخطـوط ذهبية طولية تبدأ من الرقبة حتى أسفل الصدر. وتضع حجابًا أبيض شـيفون على بعض رأسها فيظهر من شعرها أكثر مما يخفي. تضع ساقًا فـوق أخـرى وتنتعل شبشبًا أبيض.

وضعت أمامها طقطوقة رخامية صغيرة عليها منفضة ممتلئـة بأعقـاب سجائر.

سألتني: ستسافر؟

عاتبت «طه» في سري وقلت: نعم. أيضيرك الأمر؟

- هل عِرفت بخبر طلاقي؟

ابتسمت: هل تظنين أن سفري له علاقة بزواجك من عدمه؟ أنـتِ أقـل من أن أتخذ قرار السفر بسببك.

- أنت تكذب يا «علي». كل قراراتك كانت بسببي.

ازدردت ريقا تكور تحت لساني طوقني عن النطق.

تابعتْ: أفهمك أكثر من نفسك.

- ومع هذا لم يحرك الفهم شيئًا في قلبك. ربما لأنك بلا قلب.

فكت عقدة ساقيها وقالت بحدة: احترم أمك.

- أنت آخر شخص يتحدث عن الاحترام. لو احترمتِ نفسك لكنت احترمتك. دمرت حياته وحياتي.

- تسمي حماية الوطن تدميرًا لحياتك وحياة أبيك. أنت مثله غبي. لعن الله الغباء والأغبياء.

لو أن «رشدي رؤوف» غبي في شيء فهو استمراره معها.

كانت طالبة في كلية الحقوق في أوائل السبعينات. فتاة عادية ليست متفوقة دراسيًا ولا تمارس نشاطًا طلابيًا سياسيًا أو اجتماعيًا لتُعرف بين الطلاب والأساتذة، ولم تكن فائقة الجمال لتصير هدفًا أمام الشباب الباحث عن الحب والتسلية، ومع ذلك كانت أحد مشاهير الجامعة. بذكائها الحاد كونت شبكة علاقات قوية بين صفوف الطلاب، صحيح لم يكُن لها دور طلابي لكنها كانت حريصة على حضور كل الفعاليات الجامعية، ندوة، مؤتمر، حلقة نقاشية، عرض مسرحي، رحلة ترفيهية. تجلس، تستمع، تجاري مناقشات، لا تقول رأيًا صريحاً أبدًا في أي قضية. غير أنها كانت تُخزن كل ما يُقال حولها بذاكرتها القوية لتعيده على ورق تقدمه بعد ذلك إلى رؤسائها في جهاز أمن الدولة. هل عرضت عليهم خدماتها؟ هل وقع اختيارهم عليها لتوافر المواصفات المطلوبة بها؟ لا أعرف، أو بالأحرى لم

يقل لي جدي هذه المعلومة.

واستمرت في عملها الأمني بعد تخرجها من الجامعة واشتغالها باتحاد الإذاعة والتلفزيون كمحامية بالقسم القانوني. مارسته بين زملائها في ماسبيرو. وكم تألم جدي من كونه كان سببًا في زيجة ابنه الوحيد بعميلة للأمن. والدها «عبد الكريم محمد» كان فراشًا في مصلحة الضرائب التي عمل بها جدي. رآها مرة تزور والدها فأعجب بذكائها وفكر أنه من الجيد أن يتزوج ابنه من امرأة عاملة تعينه على الغلاء الذي ضرب انفتاح الدنيا وساوى الناس جميعًا في اللهاث وراء لقمة العيش مستثنين في هذا تجار المخدرات والسوق السوداء ورجال الدولة. وبعد ولادتي بعام عرف «رشدي» حقيقة أم ولده. زميلة لها في العمل كانت قد كتبت فيها «بثينة» تقريرًا أدى لإقالتها. جاءتنا بيت المنارة واستطاع جدي وأبي تخليص رقبة «بثينة» من بين يديها بصعوبة.

حكى لي جدي عن تاريخها وضحاياها في أيامه الأخيرة. يجوز أنه كان ينبهني من تكرار تاريخ «بثينة عبد الكريم»!! وربما أحس بقرب نهايته فأشفق علي من تركي في الدنيا من دون فهم الحرب الصامتة بين أبي وأمي، وقد يكون الأمر ما هو إلا هذيان الإحساس بالموت دفعه لفضفضة مؤلمة.

قلت: التجسس على الناس والوشاية بهم حماية للوطن؟! كتابة

تقارير أمنية عن الناس حماية للناس؟! أتدرين كم إنسان قتلتِ بعملك القذر هذا؟

أشعلت سيجارة. نفثت منها دخانًا واحدًا ثم غرزتها مع باقي السجائر المدعوكة، وقالت: لم أقتل أحدًا. مجرد كلام كنت أكتبه عمن حولي. وهم كانوا يؤكدونه أو ينفونه.

– مجرد كلام. يا الله؛ كيف يحوّل الإنسان جرائمه البشعة إلى أفعال مثالية بهذه الانسيابية؟!

– تُكرر كلام أبيك بلا أي فهم. هذا البلد محاط بالأعداء وعلينا محاربتهم حتى لو كلفنا هذا بعض الأبرياء. سقوط البعض خير من سقوط الكل.

ثم بفخار مدهش: في دول أخرى؛ أمثالي يحظون بالتكريم.

– تكريم المجرمين عن مجمل أعمالهم.

– وأنت، ألست مجرمًا؟ ألا ترى في تبنيك قضايا لا تؤمن بها وملء عقول طلابك بأفكار لا تمتلك جريمة؟

– أؤمن بكل حرف أدافع عنه.

– كاذب. انخرطت بالأعمال الاحتجاجية نكاية فيّ أو انتقامًا مني، وصديقك «طه»، الولد لم يكُن له علاقة بالسياسة، ملأت رأسه بكلامك الفارغ وورطته في قضية لا دخل له بها، وحرم بسببها من التعيين في

الكلية على الرغم من تفوقه عليك.

فتحت حكاية «طه» التي حاولنا أنا وهو أن لا نفتحها طيلة هذه السنوات. أحسست أنها تحيطني بكل هواجسي وجرائمي. ما استدعتني إلا لتعبث بجرح قديم متقيح وتصنع لي فخًّا من نفسي. سنوات طويلة لم أدخل معها في نقاش وها هي في أول حوار منذ زمن تقرؤني ككتاب مفتوح. كانت تتحدث بلا انزعاج ملامح ولا غصة حلق ولا اهتزاز يد، وكنت أنا كل ذلك.

وزادت: قبلت وساطتي لتصبح معيدًا في الكلية وأنت تعرف أن «طه» أحق بها. ترتيبه كان أعلى منك، ألا تسمي هذا إجرامًا؟ لا تزايد على أحد وأنت فيك ما يكفي لصنع مشنقة للقصاص منك.

كيف أُسكت هذه السيدة؟ كيف أوقف الرصاص المنطلق من فمها؟

أطلت عينا «قسمت» مستكينة على أريكة الصالون إلى جوار «بثينة عبد الكريم»، تبحلق فيّ بنظرات أسف وخجل وتكاد تسألني في ألم: «هل الدنيا ضيقة وقاسية إلى هذا الحد؟!». لم أخرج من المعتقل في قضية يسار حر سوى بمكالمة راجية من «بثينة» إلى «رأفت العباد» صديقها القديم في أمن الدولة. وتكررت المكالمة لتجاوز ملفي الأمني لقبول تعييني بالجامعة. كرهت أفضاله الدنيئة، وأنا الذي لم أره مرة واحدة في حياتي.

قلت بعصبية وبوعي تام: أكرهك. أنت أسوأ ما جرى لي في الحياة.

- في الحقيقة أنت لا تكره سوى نفسك المتمثلة في والكاشفة لك.

أتعرف.. أنت لست بحاجة للثورة على نظام بلد، أنت بحاجة فقط للثـورة على نفسك. وهذا أفضل ما يمكن أن تقدمه للبلد.

– لا أفهم، هل طلبت لقائي لتقولي لي كم أنا سيئ وكم أنتِ نبيلة؟!

– لا.. أردت فقط أن أفهمك أن النبل والسوء مسائل نسبية. نحن بـشر نصيب ونخطئ وربما يرى الإنسان أفعاله بخلاف ما يراه النـاس. لا تـسافر ابق في مصر حتى ولو في جبل العرب.. فقط ابق.

– ما شاء الله. صرتِ واعظة. سأسافر طالما أردتِ بقائي.

– أرأيت؟ قراراتك كلها نكاية فيّ لا أكثر.

– ليس نكاية فيك لكنه الإيمان الكامـل بـأن أي شـيء ترغبينـه علـي تجنبه تمامًا لأسلم من عذاب الضمير. وبالمناسبة لا أصدق أن طلاقـك بـسببي لو كان الأمر كذلك لما تزوجتِ أصلا. أنت متخيلة؟ أنا لا أعرف اسـم زوجـك أو طليقك حتى الآن.

قالت مصطنعة أسى: ليس بسببك يا «علي». أنا اعتدت الوحـدة حتـى أيام أبيك وكان صعبًا أن أعيش مع رجـل لم يعـرف الوحـدة مثلـي. انفـصلنا بهدوء.

– قلتِ لـ«طه» إنك تعيـشين سـعيدة وفي كامـل الراحـة. مـاذا تريـدين مني؟ لك حياتك وكُفّي ألمكِ عني.

– يا «علي». أرجوك لا تسافر. أنت ابني. لـيس لـي غـيرك في الـدنيا.

وأنا في أواخر أيامي و..

والحقيقة أنني ضحكت جدًّا على الرغم من كآبة الجلسة كلها.

ألمحت لاستخدام وساطاتها القديمة: إذن أتمنى أن تسافر بسلام ولا يعطلك فتح ملفك الأمني من جديد.

لماذا لا يموت الماضي والحاضر معًا؟ وما أخبار المستقبل وأنا العائش في اليأس؟ ولا ترغب في أن أمشي محملاً بهذا كله، فرمت في نهاية الكلام تهديدًا صريحًا.. لو أصررت على السفر سأقول لـ«طه» عما جرى وكيف قبلوا تعيينك في الجامعة، مؤكد ستنقشع من أمام عينيه علامة استفهام كبيرة حول الطريقة التي عينت بها على حسابه. كانت تتحدث كطفلة في العاشرة تغيظ وتساوم رفيقتها.

لفظني بيت المنارة بقلب مفتت. لو أنه يتجسد في شكل كائن له وجه يمكن البصق عليه؟ لكنه جماد كساكنته.

وتمكنت من نفسي استحالة مواجهة «طه» بندوب ماضٍ جددته السيدة «بثينة» دفعة واحدة، وأمست العودة لجبل العرب كالعودة لبيت المنارة، وباتت مصر الواسعة تضيق بي ليومين فقط قبل السفر. يومين.

وكانت «ليلى» هي الملاذ الوحيد والأخير. صحيح أنها من ضمن دفاتر الماضي، لكنها لم تكن يومًا خطيئتي. كنت أنا خطيئتها. اتصلت بها، وطلبت منها أن أقعد اليومين الباقيين لي في مصر بشقة عائلتها في

الإسكندرية والتي يتعاملون معها كمصيف. ورحبت «ليلى» باستضافتي ولكن في شقة القاهرة.

قالت إنها ستبيت عند صديقة لها لتترك لي الشقة. ولم تنس أن تؤكد علي إعادة التفكير في مسألة السفر.

– أدفع مليون جنيه لأعرف سبب سفرك.

– لا تدفعي شيئًا. حساباتي كانت خاطئة في هذا البلد. لا أمل، والرهان على أي تغيير جنون.

شقة «ليلى»، بها من فوضوية صاحبتها. ألوان جدران حجرة الاستقبال صاخبة بتنافر مزعج للعين. جدار أصفر يقابله آخر برتقالي وبينهما أخضر وكم كان اختيار اللون البني للسقف كئيبًا ومقبضًا ويمنح الشقة الواسعة ضيقًا. الأثاث يبدو غاليًا لكن تناثر قطع من الملابس وزجاجات مياه وبيرة فارغة على كراسي الأنتريه وترابيزة السفرة شوّش على رقة الذوق. يعلو بار السفرة صورة فتاة عارية ترقص وتتساقط منها دموع ووراءها أربعة غربان يعزفون على آلات موسيقية. أما الطرقة المؤدية إلى الغرف فتستقبل المار بتمثالين كبيرين متطابقين في الشكل والحجم وهما لطفلين ينظران لأسفل ويمسك كل منهما مصباحًا وكأنهما يتفحصان أقدام زائري الغرف..

– أرقام هواتف السوبر ماركت والمكوجي والمطاعم القريبة ستجدها

فوق الثلاجة. آه لا تنس غلق نافذة الحمام بالترباس وقت الاستحمام. أي هواء خفيف يفتحه.

كانت تتحدث بلهجة أم ذاهبة لمشوار اضطراري وتُملي على ابنها تعليمات السلامة لحين عودتها.

قالت وهي تعطيني المفاتيح: شقة صديقتي قريبة منك. لو احتجت شيئًا لا تتردد اتصل بي وسأحضر فورًا.

غرفة نومها مرتبة، ويبدو أنها رتبتها على عجل قبل مجيئي، بدا من أطراف الملابس المتكومة تحت السرير والأتربة العالقة ببعض من المرآة.

فوق السرير علّقت صورًا كثيرة لها في مراحل متتالية من حياتها؛ شكلت مربعًا كبيرًا. إلى اليمين تمسك بشهادة وفوقها لافتة مدرسة السلام الابتدائية. تأكل آيس كريم على البحر وضفائرها تطير من الرياح والفرح. تستلقي على عشب وبجوارها قبعة بنية رقيقة. وفي المنتصف صورة لها وهي ترتدي جيب حمراء قصيرة وقميصًا أبيض وتستند إلى سيارة فيات بيضاء. على الرغم من جمال وجهها بالشعر الطويل في هذه الصورة فإن حزنًا عميقًا كان يكسو ملامحها. وعلى اليسار كانت الصورة الأكبر وهي تحتضن رجلاً تحمل من ملامحه الكثير.

على الكومودينو تركت ورقة صغيرة كتبت عليها: تأكد أنك أول رجل ينام هنا.

تظهر خفة دم «ليلى» في هذه الأوقات. وكنت سأصدقها لو أنها غيرت ديكور منزلها، لكن زميلي «أمجد مهران» سبق وأن وصف لي بدقة كل قطعة بشقتها في إطار قصة طويلة عن ليلته معها قبل ثلاث سنوات على نفس السرير.

هه، يوم رأيتها في شارع عدلي تشبك يديها في ذراع أستاذها بالجامعة المشهور بعلاقاته مع الطالبات، بعد شهرين من فراقنا، ارتجفت من مرونة قلبها وسخافة إخلاصي. وقابلتها بعدها مرات عدة؛ تحديدًا أربع مرات بثلاثة رجال مختلفين في الهيئة والثراء والحب.

كيف أحببتها يومًا ما؟ كائن يبدل الرجال وفق الطقس العام ليومه!!

يوم فراقنا، كانت ترتدي ثوبًا رماديًا بلون السماء المستعدة لزفر مطرها وقبعة صوفية زرقاء بلون السماء وتمسك بمظلة سوداء مغلقة.

تنهدت كما لو كانت تقف على خشبة مسرح وأمامها جمهور ينتظر منها إجادة أداء الدور..

– آسفة يا «علي».. العالم قاسٍ حد عدم استيعابه حبنًا.. وأنا لا أستوعب هذا. سأنسحب، حتى لا أكرهك أو تكرهني. حتى تبقى بي إلى آخر العمر، أتمنى لك حياة مستوعبة لما نحن عليه.

هكذا من دون سبب، ووقتها تحديدًا لم يكُن هناك أي مناسبة للحديث عن قسوة العالم سوى دخول الأمريكان بغداد. هل مشاعرها

المرهفة تصل حد مؤازرة الإخوة في العراق بفراقي أنا؟!

قلت لها: أتدرين.. هذا الصباح قال لي أبي «يا بني اهرب من هذي البلاد» ربما كان يقصدك أنتِ.

سحبت كومة ورق كانت على الكومودينو جوار كذبتها «أنا أول رجل ينام هنا». قررت أن أكتب لها لكني كتبت لأخرى:

عزيزتي قسمت..

قبل قليل مزقت عشر صفحات سوّدتها كلها بكلام مجنون كنت أريد أن أقوله لك.

وأنا أخاف الكتابة؛ لأنها الفعل الوحيد الذي يجب أن نمارسه بصدق، وأنا غير واثق من كوني صادقًا تمامًا.

كما تعلمين أنا رجل الكلمات السيئة؛ لذا لا تفترضي أن مختلفًا ستقرئينه هنا. لكن أعدك سأحاول أن أكون لطيفًا ولو لمرة واحدة معك.

وددت أن أشكرك على كل شيء. حقيقة فكرت كثيرًا فيما قدمتِه لي منذ لقائنا الأول في الأندلس ووجدت أن أفضل شيء منحتِه لي هو أنك لم تكوني يومًا جزءًا من ماضيّ.

أرى الآن تحت النافذة التي أمامي جيشًا من النمل يستكين في مشيته، إن هذا النمل يعرف طريقه تمامًا بطريقة تثير فيّ الحسد.

قسمت، آمل أن تستوعبي أن سفري ما هو إلا حائط وصلت له بعد طريق طويل مسدود بهزلية ثورة وأنانية صداقة وبقايا إيمان.

قسمت، أنا أحبك. ولا أعرف كيف لإنسان يكره نفسه أن يحب ويحبك أنت تحديدًا، لكن هذا ما حدث يا حبيبتي.

وأنا لا أعرف كيف بدأت الأمور بالضبط، كنت أشعر معك بالطمأنينة والغدر، الثقة المتناهية والتوجس الرهيب، الصفاء التام وعكارة المصالح، الانتشاء والتعاسة، وانتهى الأمر بأن صار قلبي لك.

ولكن ما جدوى الحب الآن؟ الحب، الحرية، الموت. كلها أشياء باهتة كأن يخطط الحشاشون لقلب نظام الحكم.

أراك الآن تستقبلين جيش النمل فوق النافذة، أنت تعرفين الطريق بينما أنا فلا.

مودتي..

«علي رشدي».

قبّلت الرسالة ثم مزقتها، ورحت في نوم عميق إلى أن استيقظت على إتصال من «طه». مجرد اسمه على شاشة الهاتف أرعبني، ترى ماذا قالت له «بثينة عبد الكريم»؟ وفي المرة الرابعة لاتصاله أجبت..

– هل ضايقك أحد؟

– لا أبدًا.

– إذن لماذا تركت الجبل ورحت لـ«ليلى»؟

– أردت فقط أن أخفف من ضيافتي عندكم.

– لا أصدق أنك تلجأ لـ«ليلى» من دون سبب كارثي. عمومًا لك ما شئت. وأرجو أن نراك قبل السفر.

– مؤكد. لن أسافر قبل توديعكم. سلامي للجميع..

أنهيت المكالمة وفي نيتي أن لا يكون هناك وداع أبدًا.

(10) «علي».. الشياطين تُصلي الفجر قصرا

الثالثة صباحا. بقي على إقلاع الطائرة إلى كندا أربع ساعات. ظننته وقتًا مناسبًا، يكون الحشاشون أنهوا ليلتهم العامرة بالدخان وهذيان الحكايات، والمستقيمون يغطون في نوم عميق أملا في استيقاظ مبكر للحاق أشغالهم..

الجبل مسربل في الصمت. شبورة الطقس البارد مع عتمة تشوشر عليها مصابيح بعيدة حولت العشش إلى مربعات صنعها خيال كرتوني.

صعود الجبل كان شاقًا في تلك العتمة. ساعدتني إضاءة كشاف الهاتف على تفادي أكثر من فجوة وصخرة.

بخفة لم تستغرق دقائق أعدت ملابسي وبعض كتب إلى حقيبتي. على الرغم مما تحمله العشة الضيقة من موت وفاحشة وقهر لكني وجدت نفسي فيها أكثر من أي مكان آخر.

أغلقت الباب بهدوء ودسست مفتاحه داخل تجويف بعتبته الخشبية.

وكان شبح مستكين في وقفته ينتظر استدارتي له.

قال بصوت خفيض: كما توقعت.. ترحل من دون وداع.

كانت ملامح «طه» غارقة في هيئة الشبح التي بدا عليها في وقفته.

قلت: لا أحب الوداع يا «طه».

أطلق نصف ضحكة، وكانت نصف ضحكة مليئة بالأسى.

وطلت رأس «عبد ربه» من باب عشتهم كشبح آخر، مرر تحية، ثم عاد ليشعل مصباحًا في كوة. وبعد السلام والعتاب والسؤال عما نفعله هذه الساعة سألنا عن أم «طه»، ليست في العشة، واحتضنني ثم استأذن وراح دورة المياه ليبحث عن زوجته ويتوضأ انتظارا للفجر القريب.

ارتكنت على باب عشة «شوقي» وجلس «طه» القرفصاء أمام عتبة عشتهم.

ظل الصمت متورطًا بين جلستينا. ضمتنا وحدة المكان والأمل في الخلاص واليأس من الكلام.

انفك عن الصمت قائلًا: لن تتغير أبدًا يا «علي».

- لا أفعل في حياتي شيئًا سوى التغير.

قال بفتور قاس: ستظل عائشًا في وهم الإخلاص والوطنية والوفاء. لست غبيًا. مشكلتي أصلًا أني لست غبيًا.

ارتجف قلبي وقلت: كلنا عائشون في الوهم.

- أنا كنت عائشًا في الحقيقة وراضيًا بها. أنت من جررتني للوهم.

- نحن في زمن الوهم والحقيقة الغائبة.

وتدافعت أسئلته: «علي».. كيف خرجت من قضية يسار حر؟ وكيف عُينت بالجامعة على الرغم من ملفك الأمني؟ وكيف يتركونك هكذا من دون تصفية حسابات؟

زحف اليأس على لساني حتى قوضه وماج عقلي بجرائمه، أول مرة ينطق «طه» باتهاماته التي طالما حملتها عيناه لسنوات. هل فعلتها «بثينة عبد الكريم» وأخبرته، أم أن السفر ظرف جيد لطرح كل هواجسه مرة واحدة؟

وكما زلزال حش جلستنا وسكون الجبل انطلق زعيقًا تلاه دبيب خطوات مذعورة. كان الجميع يهبط إلى سفح الجبل. وسرنا مع ذعر الناس وخطاهم.

بدا مسجد الجبل هدفًا. أضيئت كشافاته الداخلية والخارجية. كان الناس يدخلونه أفواجًا فينحشر أحدهم بين جسد وعامود ويضيع شبشب آخر بين الأرجل المزدحمة وينفعص جذع أحدهم. ولم أصدق عيني وأنا أرى «الست» صاحبة السبعين عامًا تسرع الخطى برشاقة لا أعهدها على نفسي أما الحاج «صادق» فكان يمشي على مهل مع شلته وهو يلعن الجبل الذي يعكر المزاج، ومن خلفه تؤمن «حميدة» زوجة الشيخ «مصباح» على ما يقوله الحشاش. ولم ألمح «زُهرة» و«عبد ربه».

وما إن لامسنا، أنا و«طه»، الأفواج المتزاحمة حتى جذبتنا قوة الدفع

فغصنا بين الأجساد لتلفظنا في دقيقة إلى باحة المسجد لنكون أمام ما انقلبت الجبل له رأسا على عقب.

وكما رأيته من دون تجاوز بخيال مني أو تقصير في النقل، كان رجلاً عاريًا تمامًا يتمدد فوق امرأة ترتدي جلبابًا ملمومًا عن ساقيها حتى أردافها وتدس رأسها في صدر الرجل فلم أستبن وجهها. أما الشيخ «أبو ريشة» فكان يقف مكبوب الوجه يلملم عباءته عن الناس الذين ما إن كانوا يصلون إلى النقطة التي وصلت أنا و«طه» إليها تنكتم ألسنتهم وتنحشر أنفاسهم في صدورهم. وبجوار أحد الأعمدة جلس «عبد ربه» مقوّص الظهر ضامًّا ساقيه بصدره ويشيح بوجهه إلى الناحية المعاكسة للمرأة والرجل. كان كل جسده يرتعش.

وشكل الناس دائرة صامتة جامدة حول الرجل والمرأة.

وفي لحظة ما لم نعثر على منبتها أطلق الناس همهمات حول ما يستوجب فعله أمام الفضيحة. قال «أبو ريشة»: الكل يعود من حيث جاء.

ثم خطف نظره ناحية الجسدين العاريين، وقال: وهذان أيضًا يخرجان فورًا. لا نريد فضيحة للجبل لن تُنسى أبدًا.

هاج الناس.. إن الشيخ يريد الطرمخة على فعل الفاحشة في بيت الله.

قال أحدهم بغيظ واشمئزاز من الشيخ والموقف كله: إنه زنا في بيت الله.. أتعبت من بعدك في الوضاعة يا شيخ؟

وفسر آخر: بعد سرقة المسجد لم تعد مفاتيح المسجد لأحد غيرك يا «أبو ريشة». أنت من سهلت دخولهما. تريد التملص من مسؤوليتك أمام الله والبوليس ووزارة الأوقاف.

دافع «أبو ريشة» عن نفسه: الله يعلم نيتي. والشرطة كما ترى هي فاعل الفاحشة. ووزارة الأوقاف لن تجد علي شيئًا في هذه الواقعة كما ترى أيضًا.

ووسط وصلة من السباب والتطاول بالأيدي كان ضحيتها «أبو ريشة»، تزحزح الرجل العاري أخيرًا من وضعيته ليسحب ملابسه المكومة جواره من ناحية الجدار فانكشف وجه السيدة التي كانت تحته، وكانت هي «زهرة».

يحدث أحيانًا أن أخلط الخيال بالواقع من فرط رفضي للأخير، لكن في هذه تحديدًا كانت «زهرة» هي من رأيت من دون أي إضافة تخريف مني. وأين طه؟ لقد تبخر من المسجد.

وبامتعاض اقتربت «الست» من «زُهرة» التي بقيت على وضعها من دون حركة ولو لتغطية ساقيها المكشوفتين. نادت «الست» على سيدتين ليسحبا «زُهرة» من المكان في صمت وذهول.

أما الرجل الذي كان عاريًا قبل دقائق فاسمه «طاهر» ويبدو أن أهل الجبل يعرفونه ويتحاشونه.

قالت «الست» بصوت يقترب من الصراخ: الله ينتقم منك يا «طاهر». أنت إبليس و«أبو ريشة» شيطان. الله ينتقم من الجبل كله.

وتدريجيًا انفض الناس عن المسجد. ارتضوا برأي «أبو ريشة» على الرغم من عاصفة رفض هبت في البداية.

قال الحاج «صادق» وهو بين هذيان الحشيش والفاحشة: «أبو ريشة» صائب. البوليس سيقف في صف «طاهر»، وربما نجد أنفسنا مدانين في أي تهمة ملفقة.

وهكذا سار الناس وراء رأي الشيخ والحشاش. ووحده بقي «عبد ربه» في المسجد.

* * *

لماذا يُنجب الناس من دون خطة محكمة لحماية أبنائهم من الانتحار؟

اختفى «طه». ورأى كثيرون «عبد ربه» جالسًا أمام مسجد السيدة نفيسة لا يرد على أحد ممن تعرفوا عليه ومن لم يتعرفوا.

والعجيب أن «زُهرة» بقيت في عشتها تمارس أيامها كما لو أن الدنيا لم يجر فيها شيء. عادت إلى بيع الخضار الذي كانت توقفت عنه بعدما اشتغل «طه» في الشركة الهندسية. تستيقظ باكرًا لتجلب الخضار من السيدة عائشة وتبيع منه ما تبيع ثم تعود إلى سكنها الخالي من الزوج والابن.

تعاطف أهل الجبل مع «زهرة». عرفوا أن «طاهر» وهو أمين شرطة بقسم شرطة منشأة ناصر، ساومها على خروج زوجها من الحبس في قضية

سرقة المسجد كما هددها بفتح الملف القديم لابنها في أمن الدولة والقبض عليه. «طاهر» أقل من أن يفعل هذا، لكنها صدقته كما تصدق كل ما يقوله المسؤولون في التلفزيون.

قالت «الست» في مجمع لسيدات الجبل عن «طاهر»: طول عمره رمة. لكن رمته كان يبلي بها بنات الليل والسوابق. نقول إيه ربنا كريم يكرمه زي ما كرم «شوقي» كدا ونلاقي جثته متقطعة ومرمية ومالهاش صاحب.

أعجب «طاهر» بجمال «زُهرة» يوم رآها من خلف نظارته الشمسية في قسم الشرطة تنتظر رؤية زوجها. وعندما تركها «طه» في القسم ليبحث عن محامٍ، انتهز الفرصة ليعرض صفقته عليها. اختار «طاهر» عشة «شوقي» لتكون مكان لقائه بـ«زهرة». وعندما نَزلت أنا ضيفًا على العشة غيّر «طاهر» مكان لقائه بـ«زهرة» إلى المسجد بمعرفة «أبو ريشة». ولم يعد يُخفى أن الشبح الذي خرج من عشة «شوقي» وخبط «طه» على رأسه وأحدث له عاهة مستديمة ثم اختفى لم يكُن سوى «طاهر». كان ليلتها مع «زُهرة» في عشة «شوقي» و«كفاية»، يضع في جسدها مقابل الإفراج عن زوجها في اليوم التالي، ولمّا خرج «طه» يبحث عن أمه وسمع صوتًا غريبًا في العشة خاف «طاهر» من أن تنكشف فعلته فخرج وضرب ابن السيدة التي كانت معه على السرير قبل دقائق.

قالت «ليلى» بأسى: ما الذي يجعل امرأة تبيع جسدها سوى عُهر

الوطن؟

ثم أطلقت تنهيدة: ترى أين يكون «طه» الآن؟

- اختفى من وقتها.

- لو كنت مكانه لانتحرت.

- أمثالك لا ينتحرون يا «ليلى»؟ أمثالك يجعلون الناس تنتحر فقط.

ضحكت بطريقة هستيرية لا تتناسب مع الأسى الظاهر على ملامحها، لوت ضحكتها أعناق الزبائن القلائل الموجودين في تلك الساعة المتأخرة في «بريك».

- حقا. وأنت؟ ألا تشعر أنك مسؤول عما جرى؟ ألم تورط «طه» في المظاهرات ثم الاعتقال حتى صار له ملف في أمن الدولة؟ ألم تبع «زُهرة» جسدها خوفًا على ابنها من التهديد بملفه في أمن الدولة؟ ولا تظن أني مغفلة لأمرر تعيينك في الجامعة واستبعاد طه. لا تتحدث عن الأنقياء لمجرد أن لك صديقًا منهم. أتعرف لماذا أحببتك ولماذا صممت على بقاء صلتي بك حتى بعد فراقنا الذي أقنعت العالم كله أنه كان بسببي أنا؟ لأنك تشبهني بل تطابقني تمامًا.

وفكرت كم كنت غبيًا عندما حكيت لهذه الفتاة الغبية الذي جرى في المسجد. كنت بحاجة لأن أفرغ ألمي وأحكي لأحد وكعادتي اخترت الشخص الخاطئ. أين أنتِ يا قسمت؟

(11) «قسمت».. «المنيري»

«ضياء المنيري» شاب ذكي ولبق. أبهرتني ثقافته. يتحدث بثقة ودراية عن كل شيء، الأدب، الفن، التاريخ، العلوم، بل إن معلوماته الجغرافية أذهلتني. ولن يصدق أحد أنه حصل على دورة تدريبية في الطهي.

وربما اطلع خصيصا على عالم الأفلام الوثائقية ليجاري اهتمامي. وقد حاولت أن أبرز له عمق اختلافنا السياسي فأهديته نسخة من فيلمي الأخير عن حركة «كفاية» المعارضة للسلطة. والغريب أنه أثنى عليه بل وتندر على حال البلد. قال إنه من أشد المتحمسين للتغيير وإنه لا يمكن أن يظل الكهول ممسكين بزمام بلد غالبيته من الشباب. وعرفت أنه من متابعي مقالات خالتي «مهجة». قرأ آخر مقال لها وشكرها عليه في أول لقاء بينهما خلال حفل خطبتنا. اقتصر الحفل على الأقارب، وحضرت «مهجة» على مضض، وكانت مثلي غير مقتنعة بما يحدث. كنت اتفقت معها أن أمرر الخطبة ثم أصطنع بعدها المشاكل معه لأفسخها.

لكن عندما اقتربت منه حدث شيء آخر.

يمارس أنشطة تطوعية. يشارك في أكثر من جمعية خيرية سواء بالمال أو بالمجهود. نعم، على الرغم من مشاغل مصانع والده وشركته الخاصة

لكنه يمنح بعضًا من وقته لزيارة جمعيات خيرية ودور أيتام ومسنين.

لم يكُن كغالبية من حولي ممن سافروا أوروبا للدراسة وعادوا مشبعين بالثقافة الغربية ورافضين لشرقيتهم، على العكس هو درس الاقتصاد في لندن ونال درجة الماجستير لكن أسلوب حياته وطريقة كلامه توحي بأنه لم يغادر يومًا حي الجمالية الذي تربى فيه. لا تفوته فرصة ليذكر بفخر بأنه من مصر القديمة. وقد تحمس عندما ألمحت برغبتي في صنع فيلم عن حي الجمالية.

وعرفت حبًّا آخر غير الحب الذي تعرفه «مهجة».. حبها الذي يتلخص في أن نتشارك الألم، نتشارك البحث عن الحقيقة..

إن «ضياء المنيري» دائرة كبيرة من الثقة وليس الألم، إنه الحقيقة التي لا تحتاج لشقة البحث عنها. يعرف بالضبط ما الذي يريده من الحياة وراضٍ تمامًا عما يفعله. إنه لا يعرف الحياد لكنه في الوقت نفسه ثابت وراسخ.

ابتسمت «مهجة» حينما تعجبت من أن شابًا بمواصفات كهذه هو ابن أحد أعمدة النظام،

قالت: على العكس هذا هو المطلوب للمرحلة القادمة. ويحدث بمباركة القدامى.

وسألتني كأنها تغير مسار الحديث على الرغم من أنها كانت تورطني

فيه أكثر: كيف حال أصدقائك؟

– لا أعرف عنهم شيئًا منذ فترة. الدنيا تأخذ الناس.

– ببساطة هكذا!!

* * *

مارس 1999

صار طلاقي من «يحيى» خطوة حتمية. ليس لأن قطيعة أهلي أرهقتني أو لأني حملت لقب «الصحفية زوجة الإرهابي» أو لأن «يحيى» لم يعد «يحيى». بت لا أطيق الوضع كله بعد أربع سنوات من زواجنا.

آلمه اعتماد مجلس شورى الجامعة الإسلامية مبادرة وقف العنف والمراجعات بعد عامين من إعلان بدء المراجعات في يونيو 1997.

قال بإيجاز حزين من خلف الحاجز المعدني: المجلس اعتمد المبادرة.

– لننهِ كل هذا يا «يحيى». أريد الطلاق.

– لست إرهابيًا. أنا متدين ولو أن التدين صار إرهابًا فلكم حرية التصنيف ولي الله.

قلت بصوت عالٍ، لأتجاوز الأصوات العالية: المشكلة لم تعد في هذا. أنا لا أريد الاستمرار. زواجنا فاشل. كيف لا تشعر بهذا؟

– لا يمكنني الحياة من دونك. أنا أحبك.

- حتى هذا لم يعد سببًا وجيهًا للاستمرار. ثم عن أي حياة تتحدث؟ أنا بالكاد أسمعك يا «يحيى» من خلف الحاجز المعدني وسط كل هذا الصراخ.

صرخ من وراء الحاجز المعدني: كرهتِني؟!

- لو استمر هذا الوضع سأكرهك. أكبر خطأ فعلناه هو الزواج.

- كلام أهلك.

- لن تعود علاقتي بأهلي حتى بطلاقنا يا «يحيى».

صارت الأمور مع عائلتي أعقد من أن تُحل بطلاقي من «يحيى». فقط أردت الطلاق لإطلاق نفسي من سجن دخلته بإرادتي الحرة.

منذ أن أعلنت الجماعة الإسلامية عن مراجعاتها قبل عامين انقلبت حياة «يحيى».

رفض المراجعات ووصف قيادات الجماعة بالخونة لمبادئهم وتابعيهم. كان رد فعله غريبًا على مساره المعتدل البعيد عن التشدد طيلة سنوات حراسته للشيخ «سيد حفني» ثم بعد اعتقال الشيخ وعمله بدار نشر «الرحيق المنشود».

كور الصحيفة التي نشرت خبر بدء المراجعات بين يديه وقال بانفعال: كيف يمكن أن أقود آلافًا لفكر معين كلفهم حياتهم وتشريد أسرهم ثم أتراجع عنه؟ هم حتى لم يأخذوا رأي القواعد في المراجعات. وما

استندوا عليه لمراجعة فكرهم من آيات قرآنية وأحاديث وأثر السلف هو نفسه كان سندهم لدفع الناس ناحية التشدد بل وارتكاب العنف. هل الناس لعبة في أيديهم؟

قلت بهدوء: ولماذا لا تفترض أن القيادات أيقنت خسارة المعركة فرأت الخروج بأقل الخسائر؟ أقصد ربما يحاولون بالمراجعات تخليص المعتقلين من السجن. ولا تُسلم برفض القواعد لهذه التسوية. وأرجوك لا تنس أن منهم قتلة يستحقون العقاب سواء تراجعوا عن فكرهم أم لا.

– هم يخلصون أنفسهم لا التابعين. والقتلة معروفون وأحكام الإعدام جاهزة بحقهم. إن المسألة أخلاقية بامتياز، كيف أسعى لإقناع المرء بقضية ثم عندما يقتنع أتخلى عنه؟

تحولت حياته إلى رقعة من الشك تجاه كل من حوله. وقد عذرته لما رآه خلال سنوات من مطاردة وقتل وتعذيب لأناس اقتربت أو ابتعدت صلته وصداقته بهم. وتأزمت الأمور بتحركاته المريبة مع أتباع جماعة الجهاد وانحسار اطمئنان الأمن لسنواته في البلطجة واستقامته خلال مدة حراسته لـ«سيد حفني». وبعد ثلاثة أشهر ألقوا القبض عليه في مسجد نور الإيمان ببولاق مع آخرين وحكم عليه بعشر سنوات بتهمة التخطيط لحرق الأوبرا.

حذرته قبل القبض عليه: بهذا الشكل لن تفلت من الأمن.

– مخبروكِ أخبروكِ!!

- الآن صاروا مخبرين. ألم ينقذوك من دور الجاسوس قبل سنوات.

كان الأمن اختار «يحيى» ليكون عينهم على الشيخ «سيد حفني» باعتباره حارسه وثابت أنه غير منضم لأي تنظيم، رفض وبقي محتجزا في أمن الدولة لأسبوع. حاولت باتصالات كثيفة أن أخلصه وقد كان.

قلت له مازحة بعد خروجه من الاحتجاز: لا تتخيل أنهم أطلقوا سراحك بسببي. ربما وجدوا في الشيخ نفسه عينًا واسعة لهم على ما يحدث داخل الجماعة.

قال بثقل: هزار ماسخ.

- مصر كلها صارت هزار ماسخ يا عزيزي.

(12) «علي».. أفول

حتى السفر وتنفيض يدي من كل شيء لا أتمكن منه. هذا الوطن لا يريد أن يتركني إلى حال سبيلي، إذا حاولت الهروب منه؛ يشدني من رقبتي وملابسي، ويشخط فيّ ويقول: «لن تفلت.. عد معي».

كنت أجلس في الأندلس أرتب للمرة الألف في ذهني الأماكن التي يمكن أن يكون «طه» موجودًا بها عندما جاء صوت حيادي عبر الهاتف:

- كيف حالك يا «علي»؟

- معذرة الرقم غريب.. من يتحدث؟

- أنا «عمرو».. «عمرو المندوه».. ألا تتذكرني؟

- آه. «عمرو». طبعًا. كيف حالك؟ لك دوام الوصل.

- بخير. أريد لقاءك في أقرب وقت.

- سأمر عليك في الشركة؟

- لا. أرجوك. الأفضل في مقهى قريب من الشركة.

التقينا في مقهى بشارع شامبليون. وبلعت سؤالا عن حال «قسمت» مع ارتشاف الشاي.

فاجأني بسؤال:

- ماذا جرى لـ«طه»؟

سألت بلهفة: هل تعرف عنه شيئًا؟

قال إن «طه» اتصل به قبل يومين ليدبر له مكانًا للسكن. يبيت في مقر الشركة. ألح علي أن لا أخبر أحدًا بمكانه لكن حالته سيئة للغاية. وقال إنه يخاف من تدهور صحته لذا كسر وعده بعدم إبلاغ أحد بمكانه.

- هل حكى لك شيئًا؟

- لا شيء. ما الذي أوصله لهذه الحالة؟

- أي حالة بالضبط؟

- ساكت طيلة الوقت. لا ينام، يدخن كثيرًا جدًّا على الرغم من أنه كان لا يدخن على ما أتذكر. لو رأيته الآن لحسبته مجنونًا.

لم تأت «قسمت» على الرغم مما حكاه «عمرو» لها عن حالة «طه». قالت إنها خارج القاهرة في مؤتمر شبابي بالسويس.

- فيلم جديد؟

ضحك «عمرو»، ثم قال: لا يا سيدي. تشارك في مؤتمر الحزب مع ابن «المنيري». تصور تريد أن تصنع فيلمًا عن الجمالية وأهم الرموز التي نشأت فيها، وبثقة قالت إنها ستتناول رموزًا كـ«نجيب محفوظ» و«أحمد المنيري». «قسمت» جُنت يا «علي».

* * *

اتصلت بـ«ليلى». سألتها الذهاب لـ«طه».

كان صوتها مضطربًا وهي تسأل: ولماذا لا تذهب أنت؟

أنا الشاهد على كل شيء، والمتورط في كل شيء. أين أذهب بالضبط؟

انتظرتها في مقهى قريب من الشركة. غابت نصف ساعة. عادت من لقاء «طه» بوجه مكفهر قالت بعدما استراحت على مقعد: يقول إنه سيعود للجبل قريبًا. أظنه فاق من الصدمة وبدأ في استيعابها.

– ومالُ وجهكِ حزينًا؟

– مشاكل في العمل.

– أحدثتِه عن عودته لعمله؟

حاولت أن تبدو رحيمة وهي تتحدث لكنها فشلت تمامًا، قالت إن الشركة التي يعملان بها تقيم مشروعات تخالف شروط البناء وتعتمد في ذلك على تعيين مهندسين ضعاف الخبرة كواجهة لها ويوقعون بدراية أو من دون على تسلم مشاريع للتنفيذ إلا أنها فعليًا يتم إسنادها لمقاولين تابعين للشركة. لذلك يتغير طاقم المهندسين لديها بشكل دوري إما لاستقالتهم بعد اكتشافهم المخالفات أو بإقالتهم واستبدالهم بمغفلين آخرين..

أكملت: هو بالفعل وقّع على مشروعين لا يعلم عنهما شيئًا. لكن لا

داعي لمزيد من توريطه.

- أنتِ شيطان.

- جميعنا شياطين لأديان مختلفة. اللهم امنحنا العفو.

- ما أعجب أن يمنحنا الفسق فضائل الموعظة.

في اليوم التالي، صدر قرار من النائب العام بضبط وإحضار عشرة مهندسين من بينهم طه. هرب صاحب الشركة إلى لندن وشمعت الشركة بالشمع الأحمر. واختفى «طه» تمامًا.

وأخيرًا ظهرت «قسمت رأفت العباد»، والتقينا مع «أحمد» و«عمرو» في شركتهما..

كانت ترتدي فستانًا أحمر وتضع كثيرًا من مساحيق تجميل، وكانت دبلة الخطوبة تزين إصبعها. ولأول مرة ألحظ الشبه الكبير بينها و«ليلى». إنهما متطابقتان. نفس العيون والنظرات، الشفاه والابتسام، الخدود التي لا تعرف الخجل، الشعر المتهور.

قالت بأسى: لماذا لم تتصل بي؟

وكنت أريد أن أنفجر فيها لكني قلت: قدرت انشغالك.

- هل عثروا عليه؟

وكنت أريد أن أبادلها السؤال: وهل عثروا عليكِ؟ إلا أنني قلت: لا.

اختفى.

تأملت «قسمت» أريكة منزوية في حجرة العرض بـشركة إضـاءة، قـال «أحمد» إن «طه» لم يتحرك من عليهـا طيلـة أيـام بقائـه حتـى إنـه لم يكُـن يعرف هل يستخدم دورة المياه أم لا.

قالت: «مهجة» تعرف محاميًا ممتازًا. ولكن لنجد «طـه» أولا. وهنـاك أمر آخر مهم يا «علي» بخصوص الشيخ «أسامة».

(13) الفصل الأخير

أخيرًا كتبت «مهجة» الفصل الأخير من روايتها..

خرج «يحيى» من السجن بعدما قضى مدة عقوبته وزيادة سنة عليها. بأي حال هو محظوظ؛ بعض زملائه أنهوا عقوبتهم منذ ثلاثة وأربعة أعوام ولم يفرج عنهم. أول مقاصده كانت إمبابة. رحب أهلها به لكنه ترحيب مشوب بحذر يعقده حاضر لا يحتمل رائحة الماضي. وأخذته قدماه إلى الهرم. قلة من تذكروه من قدامى البلطجية. أغلقت كثير من الكباريهات وتحجبت غالبية النساء وازدحمت الشوارع أكثر بالسيارات والمتسولين.

صارت القاهرة بالنسبة له تيهًا كبيرًا دليله كبار البلطجية وعتاة الإسلام الجديد. لن يتقبله الهرم كبلطجي ولم تعد إمبابة سكنًا ملائمًا كتابع لأي جماعة.

كان صعبًا أن يجد عملاً، لكن «دشيش» وهو صديق قديم يعمل في تجارة العملة، وفّر له عملًا بأجر متواضع في متجر لبيع غيار الموتوسيكلات، صاحبه الحاج «كاظم» عاد من الخليج قبل ثلاثة أعوام وفتح محله في فيصل، ويشتري من «دشيش» ما يحتاج من دولار لشراء بضاعته.

قال «دشيش» لـ«يحيى» إن الحاج «كاظم» رجل تقي لا يتخير عنه ويتكفل بأسر معتقلين كثيرين..

– ألم تصل يد الأمن له؟

– الأمن يعرف لكنه يمرر الأمور. وفي النهاية الرجل تحت أعينهم.

– لا أريد مشاكل يا «دشيش».

– أنت لا تريد العمل معي في تجارة العملة ورفضت حراسة كبارية النجمة ولا تقبل المخدرات. اقبل بهذه حتى أوفر عملًا أفضل. وأنت تعرف أن توفير عمل على هواك أمر صعب.

– يعني هو آمن؟

– لا تقلق.

استقر «يحيى» بعمله الجديد. كان يعمل بجد وبحذر أيضًا على الرغم من المعاملة الطيبة التي لاقاها من الحاج.

وظللت في باله وقلبه. فكر أكثر من مرة أن يراسلني عبر البريد الإلكتروني الذي أذيله في ختام مقالاتي للتواصل الفعّال مع القراء. كان يعرف أن اللقاء قادم لكن أجلّه لحين.

وحدث ما كان يتوقعه. انخطف وجهه عندما رأى رجلين يعرفهما جيدًا يدخلان المتجر. «عبد القادر أيوب»، و«حازم زايد» زميلاه في قضية حرق الأوبرا. أفرج عنهما قبل يومين.

لم يكُن عسيرًا فهمُ سبب زيارتهما. يريدان تنفيذ ما خططا له

لسنوات. الانتقام.

همس «حازم»: عرفنا مكانه. ووجب التنفيذ في أسرع وقت.

كان الحاج «كاظم» يجلس أمام المحل يقرقر نرجيلته ويلتفت كل فينة للرجلين الغريبين.

قال «يحيى»: أرجوك يا شيخ «حازم»، دعنا نتحدث في وقت آخر ومكان آمن. هنا مكان أكل عيش.

– ليس لدينا وقت. سنسافر خارج البلاد في غضون أيام.

قال «يحيى»: لم يعد فيّ طاقة للسجن كما أننا غير متيقنين من خيانة الشيخ «أسامة».

تنحنح «عبد القادر»، ثم قال: يا شيخ «يحيى». لقد تيقنّا من خيانته والمهمة تحتاج لثلاثة وأنت ثالثنا.

سأل «يحيى»: وأين «ربيع» و«سعيد»؟ أليسوا في هذه الورطة معنا؟

– «ربيع» و«سعيد» منّ الله عليهما بالجهاد الأكبر. غادرا إلى العراق وسنلحق بهما الأسبوع القادم.

قال «يحيى» بحزم: لن أقتل أحدًا ولو كان هو من فعلها فأنا شخصيًا سأقتص منه يوم القيامة.

قال «حازم»: قصاص الله في قتله ذبحاً.

كان «حازم» و«عبد القادر» على يقين أن صديقًا لهما - أو من كان صديقًا لهما - هو من وشى بمجموعة حرق الأوبرا. وبنيا يقينهما بأنه الوحيد الذي علم بالخطة من «ربيع» وأنه الوحيد الذي لم يقبض عليه. حاول «يحيى» إقناعهما بأن الرجل كفيف ولم يكُن مرتبطًا بأي جماعة وطبيعي أن لا يشك الأمن فيه، لكنهما أصرا على رأيهما. وحقيقة فصديقهما لم يتورط في أي أعمال عنف حتى قبل فقدان بصره بالمعتقل. والرجل استقر في إمبابة لفترة ثم اختفى وعاد زائرًا إمبابة لينقطع تمامًا عنها بعد القبض على «يحيى» ورفاقه مما جعل أصدقاءه يشكون في أنه من وشى بهم.

- هذا قرارك الأخير.

- نعم يا شيخ «عبد القادر». لم أتورط قديمًا في دم ولن أفعلها الآن.

نفذ الشيخان ما رأياه قصاصًا عادلاً. ذبحاه في غرفته بحي العباسية واتهم شاب كان يرافقه في السكن لكن التحريات أثبتت براءته وقيدت الجريمة ضد مجهول.

و«يحيى» جاءني. زارني في العمل. ابتسامته ما زالت كالتي تركناها في السيارة المسروقة بالهرم، وزادته خصلات شعره البيضاء وقارا ووسامة، وغرقت في حضنه وهو قبل جبهتي.

- اشتقت إليك.

- ليس أكثر مني.

سحب جسده مني. قال وهو يلقي نظرة على المكتب: صرتِ كاتبة كبيرة.

وضعت يدي على كتفه: لم أذق طعمًا للنجاح من دونك.

ندت عنه تنهيدة عشق ثم قال وهو يسحب يدي ويقبلها: اخترتِ الفراق.

- الفراق كان قائمًا بسجنك. خبرني عن أحوالك الآن.

- تهربين من الحديث. عمومًا أنا خرجت منذ شهرين.

- شهران؟

أزاح مجلة كانت على مقعد جوار المكتب. جلس ثم قال: أردت تدبير أموري أولا قبل لقائك.

حكى عن عمله الجديد والحاج «كاظم» وكيف تغيرت إمبابة والهرم ومصر كلها، قلت: إنك تبالغ. لم يحدث تغير كبير عن سابق سجنك.

- لأنك عايشتِ هذا التغير.

- أبدًا. ما جرى هو تطور بسيط. نحن أصلًا مشكلتنا منذ عقود أننا لا نتغير.

حكيت له عن عملي ومشاغلي وقرب زفاف ابنة شقيقتي وحكى لي عن جريمة قتل صديق له على يد أصدقائه أيضًا.

– هذه الجريمة التي قلبت العباسية؟ إن الشاب الذي اتهم في القتل كان جاري. شيء فظيع.. كيف يقتل الناس بعضهم بلا وخزة ضمير؟

ولم يرد وسألني: وما أخبار أهل الزمالك؟

ضحكت: غادروا الزمالك وآل بهم المطاف إلى مدينة نصر.

– الدنيا لا تبقى على حال.

– هم الذين لا يبقون الدنيا على حالها. «رأفت العباد» خاف من غضب أهالي ضحايا سفينته التي غرقت. تعامل بمنطق الإسرائيليين عندما اختاروا سفارتهم في مبنى سكني ليحتموا بالسكان. وهو اختار عقارًا يملكه في مدينة نصر ليعيش فيه. وربما يعود قريبًا إلى الزمالك بعد أن برأه القضاء.

اقترب مني حتى صارت أنفاسه تداعب وجهي، قال برقة: وهل كتبتِ رواية أم لا زلتِ تخافين أبطالها؟

– كتبت وقررت أن لا أنشرها.

سألني عن السبب وهو يملس بأصابعه خصلات قصة شعري: ومن يكتب إذا لم تكتبي أنتِ؟

– لست جديرة بكتابة الأدب.

– أنت جديرة بكل شيء جميل يا «مهجة».

(14) السكين والذبيح

رأسي صحن كبير من الملح، يذوب بلا ماء، يكتم تقيحات الذاكرة؛ ليعود كل شيء إلى النزيف.

وهي لم تصرخ؛ أهدتني ابتسامة ساكتة، ابتسامة العارف بأصول النهاية.

وكان «يسري» محاصرًا داخل الإطار الذهبي، عيناه تتسعان وتضيقان بسرعة مذهلة. هل أنت ميت الآن بشكل جيد يا «يسري»؟

يدنو جبينها البارد بخطوات طفل قديم يحمل كتبًا قديمة، تقول له بثقة وأمل:

- ستكبر يا «طه» وتصير رجلًا عظيمًا.

يتحمس الطفل ويكبر، وتكبر جراحه العظيمة، تستعملني الأرض في نباتها الشيطاني، ثم تعيدني حاملا السكين والنزيف. ويسيل الدم ليصنع دائرة كبيرة، يتكوم الذباب عليها.

كان الموت يتلوى في دائرته الكبيرة، بهدوء وعجز وبلا أي قدرة على الثورة أو الندم. هل أزرع وردة هنا في لحمي، تسقيها رطوبة دمها؟

هل انتظر قليلًا حتى يبرد جسدها ثم أصنع به جبلا جديدًا للعرب؟

* * *

تمت

القاهرة – أغسطس 2017





أنا خائف. خائف جدًا ومذهول. هل يموت الناس من الذهول؟.. هل يموت الناس أصلا؟.. وبمن سأنجو لو أنهم يتبخرون ثم يُمطرون بكؤوس يشربها اللاحقون في صباحاتهم الأخيرة؟.. ليتني بركة ماء في صيف ملتهب.

رأسي صحن كبير من الملح، يذوب بلا ماء، هل أنا حي بشكل كامل.. هل أنا ميت تماما؟. وأين الطفل القديم الذي صنع من شرايين قلبي أرجوحة؟...

وهو لم يكن خائفًا ولا مذهولاً. كانت نظراته تدور بيننا واثقة من أن كل ما يحدث حوله سينتهي بطريقة ما تُرضيه، هو حتى لم يُكلف يده لتسحب ما تداري به جسده العاري تماما، بل إنه لم يتزحزح من فوق السيدة التي كانت تحته. أيوجد منشار كبير يسع رقبة الحياة؟.



رقم الإيداع: 2018/4655 ــــ الترقيم الدولي: 978-977-810-014-3